الأكاديميـــــة الليبيـــــة (طرابلـــــس)
مدرســـــة العلـــــوم الإنسانيــة
قســم الفلسفة والفكر الديني
شعبة الفكر الديني

رسالة مقدمة استكمالاً لمتطلبات الحصول على الدرجة العالية (الماجستير) بعنوان:

صورة الإسلام في كتابات "ول ديورانت"

دراسة تحليلية نقدية

إعداد الطالب:

فاضل خليفة الفيتوري

إشراف الدكتور:

سالم مصطفى القريض

العام الدراسي
2012-2013م

6

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

صدق الله العظيم

سورة النحل / الآية "120"

إهـــــــداء

إلى الذي لم يقرأ ولكن علم غيره القراءة والكتابة سيدنا وحبيبنا محمد (ﷺ).

إلى روح والدي الطاهرة الذي كان دائماً يتمنى لي النجاح والتوفيق في كل دروب حياتي.

إلى النبع الذي غمرني بالعطف، والحب، والحنان (أمي)

إلى كل من يسعى إلى معرفة آراء المتقولين من مستشرقين وغيرهم عن الإسلام والنبي (ﷺ) ويعمل على تفنيد أقوالهم.

إلى كل محبي البحث والاطلاع أهدي هذا العمل

شكر وتقدير

أتقدم بجزيل الشكر والتقدير إلى من عمل على إظهار هذا البحث على هذه الصورة

الأستاذ الدكتور/ سالم مصطفى القريض.

كما أتقدم بجزيل الشكر والعرفان إلى من فتح أمامي آفاق جديدة ومتنوعة ساعدتني على اختيار عنوان البحث

الأستاذ الدكتور/ سعيد فاندي

والله ولي التوفيق

الباحث

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــــــــة

يرى بعض مفكري الغرب أن مصدر الوحي القرآني بشري بقصد تجريده عن قدسيته، وكان على رأس هؤلاء جمهرة من المستشرقين، فقد حاولوا الطعن في شخصية النبي محمد (ﷺ) منذُ مولده ونشأته، ويظهر هذا الطعن جلياً عند تعرضهم لبداية الدعوة في العهدين "المكي والمدني" حتى وفاته (ﷺ) وقد ركز هؤلاء طعونهم في عدة مناحي في الدين الإسلامي تبدأ في أقوالهم لما عليه القرآن في ترتيب آياته وسوره، وفي موثوقيته، ومراحل جمعه، وازداد هذا الطعن المسلط من هؤلاء المستشرقين على مرحلة الخلفاء الراشدين، والدولة الإسلامية التي أقاموها إبان خلافتهم.

ويعد "ول ديورانت"[1] واحداً من هؤلاء المستشرقين الذين تعرضوا للدين الإسلامي من خلال القرآن والسنة وكذلك تعرض لشخص النبي (ﷺ) ونبؤته

---

(1) **السيرة الذاتية لول ديورانت:** ولد ديورانت بولاية ماساتشوستس الأمريكية عام 1885م بدأ مشوار حياته العلمية في مدارس الأبروشية الكاثولوكية، ثم انتقل إلى الدراسة في كلية القديس بطرس "اليسوعية" لتكون آخر مراحل التعليم الكاثوليكي، لينتقل بعدها إلى التعليم المدني فتحصل على البكالوريوس في الآداب عام 1910 ثم الماجستير في العام التالي، وبعد ذلك انتقل إلى تعليم اللاتينية والفرنسية عام 1911 ليعود بعد ذلك إلى التدريس بالمدرسة الفرنسية، حيث توثقت صلته بإحدى تلميذاته، وهي "أدا كاوفمان" فتزوج بها عام 1913م. ول ديورانت، دروس التاريخ، تقديم وترجمة علي شلش، ط الأولى، دار سما الصباح، سنة 1993، ص9.

وفي ذات العام عاد ديورانت للدراسة في جامعة كولومبيا، وتخصص في علم الأحياء، والفلسفة، إذ تحصل على الدكتوراه في الفلسفة من الجامعة ذاتها سنة 1917م، حيث مكث يدرس الفلسفة في تلك الجامعة. ول ديورانت، قصة الحضارة، ج/13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، ترجمة محمد بدران، ط الأولى، دار الجيل، بيروت، ص13.

وقد عين ديورانت عضو بالمعهد القومي للفنون والآداب بعاصمة الولايات واشنطن حيث قدمت له الجامعة دكتوراه فخرية عام 1930، وقد فاز بجائزة "بوليتزر" أكبر جائزة أمريكية للأداب والصحافة.

ول ديورانت العديد من المؤلفات لعل من أهمها وأشهرها (قصة الحضارة) (قصة الفلسفة) (أبطال التاريخ) (دروس التاريخ)، وقد تميز ديورانت بالمقدرة على تبسيط التاريخ، والفلسفة، والأديان، = =والشرح

وللحضارة الإسلامية في عمومها، إذ عالج في قراءته للإسلام لما سبق ذكره بعيداً عن صدى الإلهيات، ومنطق الوحي الإلهي، المعتمد على الرسل المنذرين، والمكلفين ببلاغ هذا الوحي الإلهي. مكتفياً بالجانب البشري المحض، فكان هذا هو المنهج الذي اتبعه "ديورانت" عند دراسته للإسلام على الصعيد النبوي، والقرآني، وعلى صعيد دولة الخلفاء، ويبدو من الواضح أن الغرب المسيحي في عمومه دفعه وتدفعه أسبابٌ متنوعة مشوهة عن الإسلام، والمسلمين وهي متنوعة، دينية، ونفسية، وتاريخية، وثقافية، وسياسية، واجتماعية أدت وتؤدي جميعها إلى سوء الفهم ومواقف العداء المقصود تجاه الإسلام، ولكن هذا لا يمنع من تسجيل بعض المواقف المنصفة لهذا الدين.

أهمية الدراسة:

إن الأهمية التي تكتسبها هذه الدراسة هي معرفة آراء المؤلف الأمريكي "ول ديورانت" (1885–1981) في قراءته للحضارة الإسلامية، حيث يعد "ديورانت" أحد أهم الشخصيات المعاصرة والمشهورة في دراسة الحضارات والديانات على اختلافها، والذي يشد الانتباه لدى القارئ لكتابة (قصة الحضارة) إعجابه الشديد بشخصية النبي محمد (ﷺ) وإنصافه له في العدل والعفة، والرحمة واللين، وفي مقابل ذلك يلاحظ إنكاره لنبوءته، ومحاولة إدخال بعض الشبهات عليه مثل "أنه عصبي المزاج" "حاشالله" وعدم معرفة بعض مراحل شبابه (ﷺ) وبعض المقاصد المزعومة من

والتلخيص، وقد سئل ذات مرة أن يصف نفسه وعلمه، فقال: لسائله إنه لا يعد نفسه مفكراً أو فيلسوفاً، وإنما يعتقد أنه "عاشق لعشاق الفلسفة، وسئل ذات مرة أن يلخص الحضارة فقال "هي نهر ذو ضفتين، يمتلئ أحياناً بدماء الناس الذين يقتلون ويسرقون ويصيحون ويفعلون أشياء يسجلها المؤرخون عادة. ولكننا نجد على الضفتين في الوقت ذاته أناساً لا يحس بهم أحد وهم يبنون البيوت، ويمارسون الحب والجنس، ويربون الأطفال، ويتغنون بالأغاني، وينظمون الشعر، بل ينحتون التماثيل، وقصة الحضارة هي ما حدث بين الدفتين.

توفي ول ديورانت 7 نوفمبر عام 1981م عن عمر يناهز 96 سنة. المترجم على شلش مقدمة كتاب دروس التاريخ ، ص13.

بعض الزيجات وتكريسه للدين من أجل تحقيق مصالحه الشخصية، وإنكاره للوحي الإلهي والقرآن وقد حاول من جانب آخر أن يستغل بعض الصراعات التي حدثت زمن الخلافة والدولة التي أقامها الخلفاء آنذاك وكل هذه الآراء تُعد آراء جديرة بالنظر فيها والرد عليها وبخاصة أنها تمس المقدسات الدينية لدى المسلمين التي هي عندهم فوق الشبهات الزائفة، لذلك فقد استندت على آراء بعض المستشرقين المنصفين، ومحاولة الرد بأقوالهم على المستشرقين الذين كانت غايتهم تشويه صورة الإسلام بإلقاء الأباطيل. ومن الشبهات التي اتخذوها أساساً ومنطلقاً لتحقيق غاياتهم نذكر الآتي:

1- التشكيك في نبوءة محمد (ﷺ) وبعض مراحل سيرته.
2- محاولة الطعن في زيجات النبي (ﷺ) كأن تكون من أجل شهوة أو مال أو من أجل تحسين علاقته الاجتماعية.
3- الإسلام ليس رسالة عالمية لجميع الناس وإنما هو خاص بالعرب فقط، والفتوحات الإسلامية قامت بحد السيف.
4- وصف الأسلوب الذي انتهجه محمد (ﷺ) بأنه أسلوب سياسي استخدم الموروث الجاهلي والمعتقدات من أجل السيطرة على الجماهير الأمية.
5- التشكيك والطعن في صحة القرآن الكريم، وقدسيته وصدوره من الله سبحانه وتعالى والطعن في جمعه وكتابته وإيراد الشبهات على محكمه ومتشابهه من أجل التأكيد على بشريته وإرجاع مصدره للرسول (ﷺ).

أهداف الدراسة:

1- معرفة الأسباب التي جعلت ديورانت ينكر النبوة.
2- بيان الأسباب التي جعلت من ديورانت يطعن في مصدرية القرآن وموثوقيته وجمعه.

3- معرفة أسباب اختلاف وجهات النظر بين المستشرقين القائلين بأن الإسلام رسالة قومية كان السبب في أنتشارها حد السيف، وبين القائلين بخلاف ذلك.

4- معرفة الدوافع التي كانت وراء نجاح الفتوحات الإسلامية كما حددها "ول ديورانت".

دوافع الاختيار:-

هناك العديد من الدوافع التي كانت سبباً في اختياري هذه الدراسة حول هذه الشخصية، ودراستها دراسة موضوعية بعيداً عن التعصب، ومن بين هذه الدوافع آراؤه المخالفة لآراء الفكر الإسلامي، وبخاصة عن شخصية النبي (ﷺ)، والقرآن، والدولة الإسلامية بالإضافة إلى ما قاله المستشرقون الذين حذو حذوه، والذين جاؤوا بآراء مخالفة للآراء السابقة، محاولاً قدر الإمكان الجمع والتوفيق بين الرأيين، ومحاولة الرد عليهما بطريقة منطقية بعيداً عن التعصب وبما يخدم الدين الإسلامي.

إشكالية الدراسة:-

إن التعارض بين التصور الغربي والإسلامي يعود إلى الاختلاف في الدوافع والمعتقدات، والمصادر والمناهج، وهذا الاختلاف أدى ‘إلى التعارض في وجهات النظر، فكثير من مفكري الغرب يؤمن بالمصدر البشري للرسائل السماوية، وبخاصة الرسالة الإسلامية التي يرى بعضهم أن أصولها ترجع إلى النبي (ﷺ) في حين يرى آخرون أنها ترجع إلى الأمراض النفسية مثل "الصرع" وغيره، بالإضافة إلى من ادعوا بأن النبي (ﷺ) كتب القرآن وأعانه الصحابة على ذلك، فهذه هي الإشكالية التي جاءت لتناقشها هذه الدراسة من خلال كتاب المستشرق "ول ديورانت" (قصة الحضارة) وكذلك سأتناول من خلاله بيان وجهة نظره في كيفية قيام الدولة الإسلامية، والمدى الذي ذهبت إليه في إقامة السنة النبوية بعد وفاة الرسول (ﷺ) فمن خلال هذه الدراسة حول هذه الإشكالية حاولت الإجابة عن التساؤلات التالية:

1- لماذا أنكر "ديورانت" وجود الأنبياء، وبخاصة وجود المسيح مع أنه مسيحي الديانة؟.

2- ما هي الدوافع التي جعلت "ديورانت" يعجب بالنبي محمد (ﷺ) ويؤكد على وجوده كإنسان، وليس كنبي، ولماذا ينكر نبوءته؟.

3- هل يصنف "ديورانت" الديانة الإسلامية ضمن الديانة اليهودية والمسيحية؟

4- ما هي الدوافع التي جعلت "ديورانت" يشك في مصدرية القرآن وموثوقيته وجمعه؟.

5- هل المستشرقون مجمعون على أن الإسلام رسالة قومية كان السبب في انتشارها حد السيف، وما موقف "ديورانت" من هذه الرسالة؟

6- لماذا أنكر "ديورانت" وجود حضارة للعرب قبل الإسلام؟ وهل أكد إنكاره هذا أم إن كتاباته في عمومها أثبتت عكس ما أنكره؟

7- ما هي الأسباب التي جعلت "ديورانت" يعجب بالفتوحات الإسلامية؟.

8- لماذا الاهتمام بالدراسات الشرقية والإسلامية في الأوساط العلمية الغربية؟ وما هي دوافعها؟

نلاحظ أن "ديورانت" لم يعترف بمحمد (ﷺ) كرسول مبعوث، ومن هنا فإن رسالته وما جاء فيها في رأيه صدرت عنه شأنها شأن الديانتين المسيحية واليهودية إلا أن الاختلاف عنده يكمن في صدور رسالة الإسلام عن محمد (ﷺ) وحده في حين أن المسيحية، واليهودية كتبت من عدة أشخاص، وقد ذكر المؤلف بعض الأقوال عن المسيحية، واليهودية ما لا يوافقه عليه كثيرون من أتباع الديانتين مع كونه مسيحي الديانة، إذاً الإشكالية عنده تنبثق من رفضه للمسيحية واليهودية في مصدريتهما، ومن هنا فلا يستطيع قبول مصدرية الإسلام في حين أن المسلمين لم يخوضوا خوض الجاهلين، فاتبعوا مبدأ التسليم الإلهي المطلق في بعثته الرسل، وصدور الكتب السماوية من الله تعالى منذ أن خلق آدم إلى خاتم الأنبياء.

أما حضارة العرب فإنه يرفض وجودها قبل الإسلام مؤكداً على أن ما وصل إليه العرب من ازدهار وتقدم بفضل محمد (ﷺ) ورسالته وحدها مستبعداً كل ما قام به العرب قبل البعثة.

حدود الدراسة:-

تختص هذه الرسالة بالدراسة لهذه الشخصية الإستشراقية المعاصرة، وما تناولته في الفكر الإسلامي منذ مولد النبي (ﷺ) ورسالته السماوية حتى اكتملت بوفاته (ﷺ)، ثم تتناول عصر الخلافة ومرحلة قيام الدولة الإسلامية، كما كنت أرغب في دراسة عوامل إزدهار الحضارة في الدولتين العباسية والأموية، غير أن اتساع البحث وتجنب الإطالة في العهدين العباسي، والأموي هو ما جعلني أترك دراستهما، واكتفيت بالوقوف عند نهاية مرحلة الخلفاء الراشدين. لما فيه من أهمية في أمر الدفاع عن الرسالة المحمدية ودولة الإسلام.

منهج الدراسة:-

اعتمدت الدراسة على المنهج التحليلي النقدي، وذلك بتحليل آراء "ول ديورانت" في أصول الدين الإسلامي ورسالته الخالدة مع التوجه إلى تلك الآراء بالنقد المناسب مع مراعاة إبراز الأخطاء التي وقع فيها "ديورانت" في دراسته للفكر الإسلامي وبخاصة من خلال مؤلفه (قصة الحضارة) بالإضافة إلى الاستناد إلى بعض مؤلفاته الأخرى، والتي سأعتمد في مناقشتها على المصادر والمراجع الموثوقة.

تقسيمات الدراسة:-

الفصل الأول: أثر شخصية النبي محمد (ﷺ) في نشر الدعوة.

تناولت الدراسة في هذا الفصل سيرة النبي (ﷺ) من مولده، ونشأته، وبعض الجوانب الشخصية، والبعثة وصولاً إلى الهجرة إلى المدينة، وتم تقسيم الفصل على النحو التالي:

المبحث الأول:

- مولـده (ﷺ).
- سيرتـه (ﷺ).
- كفالته.
- رحلتا الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى الشام.
- الرحلة الأولى.
- الرحلة الثانية وزواجه من خديجة (ﷺ).
- صفات رسول الله (ﷺ).
- الحاجة إلى بعثته (صلى الله عليه وسلم).
- مفهوم المتنبئين عند "ول ديورانت".
- مفهوم الحنفاء عند "ول ديورانت".

المبحث الثاني: دعوته (صلى الله عليه وسلم)

- بعثته.
- بدء الوحي.
- سرِّية الدعوة.
- الجهر بالدعوة.
- إسلام عمر بن الخطاب.
- المقاطعة.

- الهجرة إلى الطائف.
- الإسراء والمعراج.
- بيعة العقبة الأولى.
- بيعة العقبة الثانية.
- الهجرة النبوية.

الفصل الثاني: التأثير والتغيير الدعوي الذي أحدثه النبي (ﷺ) بعد الهجرة.

تناولت الدراسة في هذا الفصل بداية العهد المدني بعد الهجرة، والتغيير الذي أحدثه النبي (ﷺ) على الصعيد الاجتماعي، والديني، والسياسي، والعسكري، حتى وفاته (ﷺ)، وكان تقسيمه على النحو التالي:

المبحث الأول: بداية عهد محمد (ﷺ) في المدينة.

- المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.
- مفهوم الإسلام عند ول "ديورانت".
- الرسول الزعيم الديني والحاكم السياسي.
- كتاب الرسول (ﷺ) في موادعة اليهود.

المبحث الثاني: السرايا والغزوات.

- سرية عبدالله بن جحش.
- غزوة بدر الكبرى.
- غزوة يهود بني قينقاع.
- غزوة أحد.
- غزوة يهود بني النضير.
- معركة الخندق.
- غزوة بني قريضه.
- صلح الحديبية.

- غزوة يهود خيبر.
- عُمرة القضاء.
- فتح مكة.
- أنتصار النبي (ﷺ).

الفصل الثالث: أثر بشرية النبي (ﷺ) في القرآن:

يشتمل هذا الفصل على دراسة القرآن، من حيث المصدرية، والموثوقية، واختلاف القراء في آياته بالإضافة إلى مراحل الجمع ابتداء من عهد الرسول (ﷺ)، وانتهاءً بالجمع الأخير في عهد الخليفة عثمان رضى الله عنه، وقد تم تقسيمه على النحو التالي:

المبحث الأول: مصدرية القرآن.

- أسلوب القرآن

المبحث الثاني: موثوقية القرآن.

- موثوقية الجمع.
- موثوقية المصدرية.

المبحث الثالث: جمع القرآن.

- مرحلة التدوين.
- الجمع في عهد الصحابة
- الجمع في عهد عثمان.
- دستور عثمان في كتابة المصحف

الفصل الرابع: الدولة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين.

تناول هذا الفصل دراسة الدولة الإسلامية إبان عهد الخلفاء الراشدين، وما قاموا به من فتوحات إسلامية، وصراعات مع الطوائف الأخرى الدينية، والقومية والاجتماعية، وكانت الدراسة مقسمة كالتالي:

المبحث الأول: الصراع السياسي والاجتماعي.

- خلافة أبي بكر.
- مناقب أبي بكر.
- قتال أبي بكر للمرتدين.
- أسباب نجاح الفتوحات الإسلامية عند "ول ديورانت".
- واقعة أليس.
- معركة اليرموك.

المبحث الثاني: خلافة عمر بن الخطاب.

- مناقب عمر.
- الفتوحات العمرية عند "ول ديورانت".
- فتح بيت المقدس.

المبحث الثالث: بداية الصراع وحدوث الفتنة عند "ول ديورانت".

- خلافة عثمان.
- مناقب عثمان.
- بداية الصراع وحدوث الفتنة.
- خلافة علي.
- موقعة الجمل.
- معركة صفيّن.
- ظهور الخوارج.

المصطلحات:-

عند البحث في هذه الدراسة بدقة وموضوعية وجدت أن "ول ديورانت" قد استحضر في قراءاته للفكر الإسلامي من خلال كتابه (قصة الحضارة)، بعض المصطلحات غير المسبوقة مثل "الزعيم الديني" "الاستسلام" "المتنبئين"، في حين أن بعضاً منها تناوله الفكر الإسلامي مثل "الحنفاء" "الإسلام" وقد حاولت الإشارة إلى هذه المصطلحات من خلال طرحي لما تناوله "ديورانت" وما ذكره بالتحليل والنقد علماً بأن بعض المصطلحات لم يتم ذكرها غير أنني سأوضحها عند التعرض لها أثناء هذه الدراسة.

الدراسات السابقة:

لم أعثر على دراسات سابقة أو مشابهة لهذا الموضوع فيما أطلعت عليه من أطروحات ماجستير أو دكتوراه باستثناء بعض الجزئيات اليسيرة في بعض الأطروحات، والتي إن كانت مشابهة لهذه الدراسة إلا أن محتواها بعيد كل البعد عن مضمون هذه الدراسة، ومن هذه الأطروحات.

1- رسائل الرسول (ﷺ) والخلفاء الراشدين (دراسة دلالية)، محب حسين محمود رزق، رسالة دكتوراه مقدمة لجامعة المنصورة، كلية الآداب، مصر.

2- القرن الرابع الهجري، رسالة لنيل دكتوراه في كلية دار العلوم.

3- عبدالمحسن بن متعب المطيري، الطعن في القرآن الكريم والرد على الطاعنين في القرن الرابع الهجري، رسالة لنيل درجة الدكتوراه في كلية دار العلوم .

الفصل الأول

أثر شخصية النبي
محمد (ﷺ) في نشر الدعوة

المبحث الأول: مولــده (ﷺ).

المبحث الثاني: دعوته (ﷺ).

تمهيد:

إن تعلم السيرة النبوية، وفهم مجريات أحداثها، والتأسي بها أعظم طريق لبناء مجتمع سليم على أسس صحيحة، والمجتمع الذي يتأسى بالسيرة النبوية يكون منضبطاً في معاملاته، وأخلاقه، واحترامه للحقوق المعنوية والمادية لأفراده، وإذا كانت هذه نظرة المسلم لهذه السيرة العطرة، فإن نظرة غير المسلم قد تختلف في كثير من الأحيان، فبعض المستشرقين لهم من الآراء الغربية والمخالفة للحقيقة والمتناقضة آراء كثيرة، وإذا كانوا يعتمدون فيها على المنهج النقدي إلا أنهم قد خالفوا شروط النقد الموضوعي، ولكن نجد منهم في كثير من الأحيان من كان منصفاً بل وهناك من أدى به إنصافه إلى اعتناق الإسلام.

وإذا ما أمعنَّا النظر في آراء أصحاب الفكر المعاصر من هؤلاء المستشرقين سنجد أن أفكارهم لم تأتِ بجديد عما قاله أسلافهم السابقين، بل إن معظمهم يستند على ذات الأفكار، مما يجعلك تستنبط القوة الحجية من خلال السيرة في الرد على الهرطقات الغربية على مر العصور، والتي ظلت حبراً على ورق، ولذلك خصصت الفصل الأول، والثاني من هذا البحث في الرد على أهم هذه المطاعن الموجهة إلى الشخصية المحمدية، والوحي الإلهي، والأفكار البشرية للنبي (ﷺ)، وسنرى أن هذه المطاعن، والشبهات سرعان ما تنهار عند قراءة السيرة النبوية بمنهج موضوعي.

المبحث الأول
مولـــــــــــده (ﷺ)

تعد قبيلة قريش من أهم القبائل العربية في الجزيرة العربية ما قبل الإسلام، ومن أشرف القبائل نسباً ورفعة، وكان لزعمائها موضع السيادة على عامة الناس. وقبل مولد محمد (ﷺ) كان يتولى أمرها جده هاشم، وأن أمر تولي سيادة الكعبة تفردت به قريش من قبل البعثة، وازدادت قريش شرفاً، ومكانة عندما اصطفى منها الله رسوله وخير خلقه محمد (ﷺ) وكانت هذه القبيلة هي من يتولى أمر الكعبة وسيادتها وأمر ما يُعبد بها قبل مجيء الإسلام وقد توارثت قبيلة قريش هذه السيادة كابراً عن كابر، وكلما مات زعيم أعطيت إلى من بعده من ذات القبيلة كأن يكون ابنه أو ابن أخيه.

بعد وفاة هاشم كانت خلافة بيته لابنه عبدالمطلب[1]، وفي عام (569)[*] تم زواج ابنه عبدالله بآمنة[2] وهي أيضاً من قصى. يقول "ديورانت" "أقام عبدالله مع عروسه أياماً قليلة سافر بعدها في بعثة تجارية، ومات في المدينة وهو راجع من سفره وبعد شهرين من وفاته (569) ولدت آمنة أعظم شخصية في تاريخ العصور الوسطى"[3]، بل كان أعظم شخصية في التاريخ كله، وذلك ما جعل "مايكل هارت" يصنفه على رأس قائمة أعظم الشخصيات في التاريخ في كتابه "المئه". يقول "إن

---

(1) هو عبدالمطلب بن شيبه بن هاشم بن عمر بن عبد مناف بن المغيرة بن قصي بن كلاب بن مرة، كان سادن الكعبة وهو جد رسول الله ﷺ "ينظر: عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، سنة 1989، ص17.

(*) البعض يجعل من مولده (569) والبعض الآخر يجعل من مولده (571).

(2) هي آمنة بن وهب بنت عبد مناف أم النبي ﷺ كانت أفضل امرأة في قريش نسباً ومكانة وزوجة عبدالله بن عبدالمطلب توفيت بالأبواء بين مكة والمدينة "ينظر: الأعلام للزركلي"، الطبعة الخامسة عشر، دار العلم للملايين، بيروت، سنة 2002م.

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج/13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، ترجمة محمد بدران، ط الأولى، دار الجيل، بيروت، ص20.

اختياري محمداً ليكون على رأس القائمة، لأنه الإنسان الوحيد في التاريخ الذي بلغ أعلى درجات النجاح على المستويين الديني والدنيوي"[1] من جانبه أشار "ديورانت" إلى أن نسب محمدٍ (ﷺ) كان من أسرة كريمة ممتازة[2] وأن نسبه الرفيع (ﷺ) لا يختلف عليه اثنان، وهو ما تداول ذكره في كتب السيرة النبوية وغيرها، ومن ذلك ما رواه الترمذي أنه (ﷺ) قام على المنبر فقال "من أنا؟ فقالوا: أنت رسول الله عليك السلام. فقال: أنا محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب، إن الله خلق الخلق، ثم جعلهم فرقتين فجعلني في خيرهم فرقة، ثم جعلهم فرقتين فجعلني في خيرهم فرقه، ثم جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيله، ثم جعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً وخيرهم نفساً"[3].

إذن نستطيع أن نقول أن "ديورانت" لو لم تتوفر لديه السيرة بدون تحريف كما حدث في الديانات الأخرى، حيث حُرفت فيها السير من مولد وحياة وغاية؛ لكان له رأي آخر عن مولد محمد (ﷺ) ونسبه، كما هو رأيه عن المسيح إذ يقول: "ديورانت" (على الرغم من أنه مسيحي الديانة) "هل وجد المسيح حقاً أو أن قصة حياة مؤسس المسيحية أسطورة من الأساطير شبيهة بخرافات كرشنا"[4].

وبما يتوافق مع الطبيعة البشرية، ووفقاً لمولد الإنسان، وسنة الله في خلقه من مولد وحياة (يقول جاسم) [5] على الأرض ولد محمد، مثل أي إنسان سوي:

---

(1) أحمد عبدالوهاب، الإسلام في الفكر الغربي دين ودولة وحضارة، دار نوبارا، (د.ت)، ص40.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج/11، الجزء الثالث من المجلد الثالث، مصدر سابق، ص21.

(3) أخرجه الترمذي، كتاب المناقب رقم 236.

(4) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج/11، الجزء الثالث من المجلد الثالث، مصدر سابق، ص202.

(5) هو عزيز السيد جاسم كاتب ومفكر عربي من الناصرية في العراق له الكثير من الأعمال في السياسة والفكر والرواية، من أعماله (متصوفة بغداد) تأملات في الحضارة والاغتراب. " ينظر: الموسوعة العربية العالمية، أول عمل من نوعه وحجمه ومنهجه في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية، شارك في إنجازه أكثر من ألف عالم، ومؤلف، ومترجم، ومحرر، ومراجع علمي ولغوي، ومخرج فني، ومؤسسة من جميع البلاد العربية.

منها يأكل، وعليها يمشي، ويعمل ويعيش. وكم يخطئ من آمن بالحقيقة المحمدية وهو يتجاوز حقيقة الأرض وحكمها متمسكاً فقط بالجانب الإلهي للنبوة"[1].

إن الإصطفاء في نسبه وأصله متداول منذ أن ولد سيدنا آدم، وهو بين الأصلاب الشريفة من نسل النبوءة حتى ولد. وإذا كان عبدالمطلب جداً صالحاً لنبي كريم. فابنه عبدالله نِعْمَ الأب لذلك النبي الكريم، حيث كان ذلك الفتى الذي شغل حديث النساء بوسامته وحيائه.

وكُنّ يرغبن في الزواج منه المئات، ثم بعد زواجه من آمنة سافر ليتجر فإذا هي السفره التي لا يؤوب منها الذاهبون. توفي عبدالله ولم ير ثمرة ذلك النور المشع الذي كان على جبينه[2].

وشرف نسبه (ﷺ) جُمع فيه من الطرفين، فكما أن عبدالمطلب أميراً من أمراء قريش التي هي من أشرف القبائل في العرب. كذلك فإن وهب هو الآخر سيدٌ من سادات قريش، فيزداد شرفاً ومكانة بنسب أمه فتكون بيئة نسب لا يشق لها غبار بين أنساب العرب، فتتم المصاهرة بين البيتين، ومن ثم يصطحب عبدالله زوجته إلى منزل أخيه لإتمام الزواج. فيمكث ثلاثة ليالٍ مع عروسه ارتحلا بعدها بتجارة إلى الشام فرجعت القافلة وعقبها نعيه.

أما آمنة أم المصطفى فقالت: ما شعرت بأني قد حملت به أتاني آت وأنا بين النائم واليقظان، فقال: إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ونبيها، وعندما دنا موعد ولادتي ظهر لي الملك من جديد، وأوصاني قائلاً: عندما تضعين ولدك قولي "أعيذه بالواحد الصمد من شر الحاسدين، وسمِّه محمداً، ولد سيدنا محمد (ﷺ) قبل إشراق نجمة الصباح بلحظات يوم الإثنين لإثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول عام الفيل 29

(1) عزيز السيد جاسم، محمد الحقيقة العظمى، ط الأولى، دار الأندلس، لبنان، سنة 1987، ص39.
(2) عباس محمود العقاد، عبقرية محمد، دار النهضة للطبع، القاهرة، (د.ت)، ص15.

أغسطس سنة (570). ولد نظيفاً مختوناً وقام جبريل بقطع سرته[1].

وبحسب ما قاله (روم لاندو) [2] إنه ولد في عام (570) وتوفي عبدالله وأمه حامل به، وبعد ميلاده بسنين معدودة توفيت آمنة. ليكون محمداً (ﷺ) يتيماً[3]، لذلك لا خلاف بين العلماء أن النبي (ﷺ) ولد عام الفيل بعد قدومه مكة[4].

قد يكون هناك اختلاف في تاريخ مولده بين العلماء إلا أنه خلاف ليس من شأنه أن يجعل لأولئك المشككين أن يدخلوا عليه الشبهات كما أدخلوها على أنبيائهم، فأنزلوا بعضهم إلى منزلة الخرافات، والأساطير، ولا يتسع المجال لذكر أخبارهم، وما حدث لهم من تحريف في تاريخهم، ولكن لو تسنى لهؤلاء أن يأتوا بالشبهات عن مولد محمد (ﷺ) ونسبه لفعلوا وذلك لأن التمحيص والتدقيق في نقل السيرة من قبل المدونين والعلماء المسلمين لم يختلفوا فيه عن أصول وقواعد السيرة بقدر ما اختلفوا في فروعها، ومن جانب آخر توافق السيرة عند المؤلفين الغرب مع المسلمين، وذلك لأنهم نقلوا الأخبار عن ثقات السيرة. كأبن هشام وغيره.

سيرتـــــه ﷺ:

توفيت أمه وهو في السادسة من عمره، وكل ما تبقى له من أسرته ثروة متواضعة، فقد ترك له عبدالله خمساً من الإبل، وقطيعاً من المعز، وبيتاً[*]، ولفظ

---

(1) اتيين دنييه، سليمان إبراهيم، محمد رسول الله (ﷺ)، ترجمة: عبدالحليم محمود محمد، ط الثالثة، دار المعارف، ص76، 81.

(2) هو روم لاندو الانجليزي كان ناحتاً ومؤلفاً ومربياً في جامعة الباسيفيك ستوكتون كاليفورنيا من مؤلفاته (دعوة إلى المغرب) (فرنسا والعرب) (الإسلام والعرب) "ينظر: موقع ويكبيديا الحرة".

(3) روم لاندو، الإسلام والعرب، ترجمة منير البعلبكي، ط الثانية، دار العلم للملايين، بيروت، سنة 1977، ص13.

(4) أحمد بن حسن بن علي الخطيب، وسيلة الإسلام بالنبي عليه الصلاة والسلام، تحقيق سليمان العبد المعافي، ط الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، سنة 1984، ص44.

(*) المعروف في سيرة ابن هشام وغيرها أن النبي (ﷺ) لم تترك له أسرته شيئاً من الميراث.

محمد (ﷺ) مشتق من الحمد وهو مبالغة فيه، كأنه حمد مرة بعد مرة، ويمكن أن تنطبق عليه بعض فقرات في التوراة تبشر به[1].

ليس من السهل على من لم يتقن استخدام اللغة العربية، ومعاني الألفاظ، والعبارات، والبلاغة، والبيان أن يدرك معاني الأسماء، فالعرب كما هو مشهور كانوا فصحاء، والكلمة أو الإسم عندهم تندرج تحته عدة معاني، فلفظ محمد كما جاء في لسان العرب هو: "ومحمد هذا الاسم منه كأنه حمد مرة بعد أخرى. وأحمد إليك الله أشكره عندك، وقوله طافت به فتحامدت ركبانه"[2].

وكذلك ورد ذكره في التوراة والإنجيل "وهو الاسم الذي بشر به في التوراة والإنجيل، ولأنه سوف يحمد من جميع سكان السماء والأرض"[3].

يورد "ديورانت" الشك في المصدر الإلهي للديانات بدون استثناء، وكما مرّ سابقاً أن كلامه عن المسيحية لا يوافقه عليه الكثيرون من أتباعها، مما يستوجب إنكاراً لنبوة محمد (ﷺ)، "علماً بأن معرفة النبوءة لا تتوقف على دليل بشرى الأنبياء السابقين بها، بل أن طرق المعرفة متعددة لا حصر لها كإنشقاق القمر، ونبع الماء من بين أصابعه (ﷺ) وهذه الأدلة الحسية جاءت ملازمة لحياته ﷺ قريبة من منكريها أقرب من دليل البشارة التي جاءت بها الكتب السابقة، لأنها مشاهدة مثبتة، وهو ما يجعل من إنكار "ديورانت" لها اليوم ضعيف الحجة كما أنه ضعيف الألمام بالمعنى الشرعي واللغوي لأسمه (ﷺ).

وعنه (ﷺ) "أن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي، يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر، الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب، والعاقب الذي ليس بعده نبي"[4].

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص21.

(2) ابن منظور، لسان العرب، ط الثالثة، دار صادر، بيروت، سنة 1414، ص156.

(3) سامر عامر، محمد (ﷺ) في الكتب المقدسة، ط الأولى، دار مركز التنوير الإسلامي للخدمات المسرحية، القاهرة، 2006، ص13.

(4) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن. باب قوله تعالى ﴿ من بعدي أسمه أحمد﴾ برقم (4896) ومسلم، كتاب الفضائل، باب أسمائه (ﷺ) برقم (2354).

كفالته:-

بعد وفاة آمنة كانت كفالته (ﷺ) أولاً لجده عبدالمطلب الذي كان وقتئذ في السادسة والسبعين من عمره. ثم كفله عمه أبوطالب ولقى منهما كثيراً من الحب والرعاية، ومن المعروف أن حب الأجداد لاحفادهم هي من سنة الله تعالى في خلقه، فكيف سيكون الحال، والحفيد محمد (ﷺ) وخير خلق الله، وابن عبدالله أحب أبنائه إليه، فكان حبه ورعايته له ليس لها مثيل، فأعطاه كل حب وحنان بعد فقدان والديه، أما كفالة عمه أبي طالب، فلم يكلف بكفالته من قبل جده لأنه كان الأكثر مالاً أو الأكبر سناً، بل لأنه كان أنبلهم وأكرمهم مكانة واحتراماً في قريش[1]، ويبدو أن جده عبدالمطلب كان حريصاً على مثل هذه الشيم فيمن يتولى كفالته بعد موته.

ومما يثير العجب ما قاله "ديورانت" عن مرحلة شباب النبي (ﷺ) بزعمه أننا لا نكاد نعرف عن شبابه إلا القليل، ومن جانب آخر يقول: أن القصص عنه قد ملئت عشرة آلاف مجلد[2]. إذن كيف يمكن وجود غموض في فترة من شبابه كما يدعي مع وجود عشرة آلاف مجلد، في حين أن غيره من الشعراء، والخطباء، والفنانين، يذكر الرواة عن نشأتهم، ومراحل حياتهم، الشيء الكثير، مع أنهم أقل شهرة منه لدى الناس، إذن كيف نتصور أن الرواة يتركون جانباً من مراحل حياة محمد (ﷺ) دون تدوين، وهو حفيد عبدالمطلب زعيم سيد قريش[3]، ولو دّونّا سيرة لحياة طفل منذُ ولادته حتى وفاته. مع شدة حرصنا على تدوين كل صغيرة وكبيرة لا يمكن أن نحصل على تاريخ مفصل شامل كسيرة المصطفى (ﷺ).

---

(1) محمد حسين هيكل، حياة محمد، ط الرابعة، دار المعارف، القاهرة، سنة 2001م، ص81-82.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص22.

(3) نقلاً عن شوقي أبوخليل، أضواء على مواقف المستشرقين والمبشرين، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، سنة 1991، ص49.

إن معاصري النبي (ﷺ) من عظماء وغيرهم لم نجد لهم تاريخاً يسجل كل حركاتهم وأنفاسهم وأكلهم وشربهم، وحتى صورة قلمية مكتوبة عن أوصافهم في غياب (التقنية) من آلات التصوير وغيرها.

يقول هندي مسلم: "إن سيرته (ﷺ) معروفة منذ نعومة أظفاره إلى أن أختاره الله لجواره ... ولست أغالي إذا قلت: إنني أعرفه أكثر مما أعرف أبويّ"[1].

كما أن "ابن حزم الأندلسي[2] (456هـ) "جعل من سيرته خير دليل على بعض أقوال المشككين إذ يقول "إن سيرة محمد (ﷺ) لمن تدبرها تقتضي تصديقه ضرورة وتشهد له بأنه رسول الله (ﷺ) حقاً، فلو لم تكن له معجزة غير سيرته (ﷺ) لكفى"[3].

وهو ما جعل المستشرق (مونتيه)[4] يقول في وصف وضوح حياة الرسول(ﷺ): "ولقد ندر بين المصلحين من عرفت حياتهم بالتفصيل مثل محمد"[5].

إن الطعن في السيرة النبوية لايمكن قبوله والاقتناع به مالم يخضع إلى شروط المحققين، والمؤرخين الذين يعلمون بكل صغيرة وكبيرة من سيرته العطرة (ﷺ) ومن جهة أخرى نلاحظ أن "ديورانت" ينتقد نفسه انتقاداً صريحاً بتأكيده على عدم إدراك بعض مراحل شباب النبي ﷺ ثم يؤكد على وجود المجلدات الضخمة المليئة بسيرته ﷺ إذن فهذا الطعن يخلوا من ضوابط المحققين والمؤرخين فلا يمكن قبوله.

---

(1) شوقي أبوخليل، أضواء على مواقف المستشرقين والمبشرين، مصدر سابق، ص49.

(2) هو ابن حزم الأندلسي علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي الظاهري شاعر وكاتب وفيلسوف من مؤلفاته (الفصل في الملل والأهواء والنحل) (طوق الحمامة) توفي سنة 456هـ، "ينظر: الموسوعة العربية العالمية"، مصدر سابق.

(3) الفصل في الملل والنحل، ابن حزم (90/2) كذلك له جوامع السيرة (6)، المقدمة.

(4) هو إدوار مونتيه فيلسوف ومستشرق فرنسي من آثاره كتاب (العرب) توفي سنة 1894"ينظر: المكتبة الالكترونية" www.ashamela.libyary.com.

(5) نقلاً عن عبدالشافي محمد عبداللطيف، السيرة النبوة والتاريخ الإسلامي، ط الأولى، دار السلام، القاهرة، سنة 1428هـ، ص17.

- رحلتا الرسول (ﷺ) إلى الشام:

سافر الرسول (ﷺ) إلى الشام حيث أخذه عمه في رحلته معه إلى تلك البلاد، وهو لم يتجاوز الثانية عشر من عمره، وكان ذلك نتيجة لتعلقه الشديد به، وارتحل مرة أخرى في تجارة لخديجة بنت خويلد طلباً للرزق، وكلا الرحلتين ليس فيهما ما يدل على غير ذلك، إلا أن بعض المستشرقين وبعض الرواة انحرفوا بالغاية المنوطه بهما إلى غايات دينية، وأخرى دنيوية، وسيأتي ذكر ذلك.

- الرحلة الأولى إلى الشام:-

هنا أشير إلى سرد "ديورانت" وهو يصور لنا هذه الرحلة بصحبة عمه، حيث يقول "وتقول إحدى الروايات إن عمه أبا طالب قد أخذه معه، وهو في الثانية عشر من عمره في قافلة إلى بصرى ببلاد الشام، وليس ببعيد أن يكون قد عرف في هذه الرحلة قليلاً من القصص الشعبية اليهودية، والمسيحية"[1].

هل من الممكن أن يتعلم الرسول (ﷺ) من هذه الرحلة التجارية بعض القصص اليهودية والمسيحية؟!

إذا كان الأمر كما ادعى "ديورانت" نقول له كيف يمكن أن يتعلم قليلاً من تلك القصص وهو يومئذ لم يتجاوز الثانية عشر بعد. فضلاً عن أنه لم يمكث هناك إلا وقتاً قليلاً. ولما بلغت سنه عليه الصلاة والسلام اثني عشرة سنة، أراد عمه وكفيله السفر بتجارة إلى الشام، فاستعظم الرسول (ﷺ) فراقه فأخذه معه، وهذه هي الرحلة الأولى"[2].

فكانت الغاية، ليست تعليماً دينياً من راهب أو كاهن، وإنما حالة نفسية ناتجة عمّا شعر به عمه من صعوبة فراقه فلم يستطع عليه صبرا، ومن جهة أخرى فإن

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص22.

(2) الشيخ الخضري، نور اليقين في سيرة المرسلين، ط الثانية، دار الفيحاء، دمشق، سنة 1425هـ، ص12.

الأحداث التي دارت حول محمد (ﷺ). من قبل الراهب بحيرى[1] وعمه لا توحي إليك بأنه أخذ عنه علماً، والقصة مأثورة للجميع، فإن اطلاع بحيرى على الكتب السابقة، وما أخبرت به عن نبوءته، وقراءته لعلامات النبوة على جسده "فسألهم عما رآه في كتبهم المقدسة من بعث نبي من العرب في هذا الزمن، فقالوا له أنه لم يبعث، وهذه العبارة كثيراً ما كان يلهث بها أهل الكتاب من يهود ونصارى قبل بعثة الرسول (ﷺ) "[2].

- الرحلة الثانية إلى الشام وزواجه من خديجة:-

وهذه الرحلة تختلف عن الأولى حيث إن الأولى لم تخرج عن كونها رحلة اصطحاب ابن عبدالله مع عمه الذي رق له ولم يستطع عليه صبرا. بقدر ما كانت هذه الرحلة تجارية. يبحث فيها الرسول (ﷺ) عن مصدر رزقه، ومن جانبه "ديورانت" يصورها لنا باختلاف عن الأولى إذ يقول "نراه بعد بضعة سنين من الرحلة الأولى مسافراً إلى بصرى في تجارة للسيدة خديجة[3]، وكانت وقتئذ أرملة غنية، ثم نراه في الخامسة والعشرين من عمره وقد تزوج فجأة بهذه السيدة، وهي وقتئذ في الأربعين من عمرها، وأم لعدة أبناء، ولم يتزوج غيرها حتى توفيت بعد ذلك بخمسة وعشرين عاماً"[4].

لعل عمه أبا طالب رأى أن محمداً (ﷺ)، قد بلغ سناً يؤهله للزواج وكان عمره حينئذ خمسة وعشرين عاماً، فحرفة الراعي التي يشتغل بها محمد (ﷺ). لم تأت له بالربح الوفير حتى يسدد نفقات زواجه. وحينها ذهب أبوطالب إلى خديجة التي كانت

---

(1) هو بحيرى النصراني عم خديجة زوجة رسول الله ﷺ كان راهباً في منطقة بصرى الواقعة جنوب سوريا وكانت لديه مؤشرات مما عنده من كتب ومأثورات على قرب ظهور نبي. "ينظر: الموسوعة العربية العالمية"، مصدر سابق.

(2) الشيخ الخضري، نور اليقين في سيرة المرسلين، ط الثانية، دار الفيحاء، دمشق، سنة 1425هـ، ص12.

(3) هي خديجة بنت خويلد أول زوجات الرسول صلى اله عليه وسلم وهي من انجبت له كل أولاده ماعدا إبراهيم أنفقت الكثير من مالها على رسول الله عليه وسلم وساندته بكل ما تملك توفيت بمكة قبل الهجرة بثلاث سنوات. "ينظر: الموسوعة العربية العالمية"، مصدر سابق.

(4) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص22.

تستأجر الرجال بمالها الوفير. فطلب منها أن توفر عملاً لابن أخيه، يكسب منه ما يمكنه من تسديد نفقات الزواج. فقال لها أبو طالب "إن محمداً ابن أخي أمين، ويوثق به، ولقد صاحبني في رحلتي إلى الشام وهو في العاشرة من عمره"[1].

فقالت له وهي تدرك مكانة محمد (ﷺ) وشرفه وصدقه وأمانته. لو طلبت هذا للغريب لأجبت: فما بالك بالقريب، وما ظنك بالحبيب وإن أجره عندي ضعف ما يأخذ غيره"[2].

فجاءها محمد ﷺ بأضعاف الأرباح التي كان يأتيها به غيره، وحدثها عن الرحلة التي ذهب فيها حديثاً كان ذا وقار وخلق فأعجبت بصدقه وأمانته.

إن خديجة التي كان كثير من سادة قومها حريصاً على الزواج بها، وهي السيدة الزكية الطاهرة، والأكثر مالاً يلهث وراءَها الرجال. إلا أنها أبت وها هي الآن تعرض نفسها على محمد (ﷺ). فقالت له "يا ابن العم إني قد رغبت فيك لقرابتي منك وشرفك في قومك وأمانتك فيهم وحسن خلقك وصدق حديثك"[3].

إن خديجة أرادت أن تتزوج بابن عمها محمد (ﷺ) باحثةً فيه عن شرف النسب، والصدق، والأمانة، وليس كما يزعم "ديورانت" أن النبي (ﷺ) راغباً في الزواج منها لمالها وهي الأرملة الغنية التي ستعينه على نوائب الدهر، فتزوجها عليه الصلاة والسلام وقد تم له من العمر خمسة وعشرون عاماً ولها من العمر أربعون، وكانت قد تزوجت خديجة قبل زواجها من رسول الله (ﷺ) مرتين.

ظل النبي (ﷺ) أثناء وبعد زواجه من خديجة لم يتزوج بغيرها، ولو شاء لتزوج بغيرها دون أن يخرق بذلك عادة أو عرفاً، على الرغم من زواجه بها وهي

---

(1) عابد طه ناصف، أمهات المؤمنين وتكريم نساء العالمين، (د.ت)، ص73.

(2) المصدر نفسه، ص74.

(3) رفاعة الطهطاوي، نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز، ط الأولى، دار الدفاتر، القاهرة، سنة 1419هـ، ص81.

تكبره بما يقارب مثل عمره. وهو آنذاك في عمر الشباب وقت تتحرك فيه الشهوة، والإستزادة من النساء. وكان بمقدوره أن يتزوج من هي أصغر منه سناً. وذلك من أقوى الردود على أولئك المبشرين والمستشرقين، بأن محمداً (ﷺ) كان شهوانياً[1].

ويصف "ديورانت" خديجة في إعجاب منه فيقول: "كانت سيدة طيبة، وزوجة صالحة، وتاجرة بارعة ظلت وفية لمحمد في ظروف حياته الروحية، وظل يذكرها بعد وفاتها على أنها خير نسائه كلهن"[2]. تزوج محمد (ﷺ) من خديجة، في زمن أصبح فيه تعدد الزوجات أمراً مألوفاً عند أغنياء العرب. وهو زمن الشهوات، والملذات، وزواجه منها لم يكن مادياً أو شهوانياً، وإنما أسس على احترام المبادئ، والأخلاق، والنسب الرفيع لمحمد (ﷺ)، وأن ورغبة خديجة في زواجها من رسول الله (ﷺ). كانت مرتبطة بعدة أمور من أهمها. أن ورقة بن نوفل عندما أخبرته بما أخبرها به غلامها ميسرة. رفيق النبي عليه السلام في رحلته الأخيرة، فقال لها "لئن كان هذا حقاً يا خديجة أن محمداً لنبي هذه الأمة. وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر، وهذا زمانه"[3].

- صفات رسول الله (ﷺ):-

سبق ذكرُ أنه لم يحض رجل بسيرة كاملة الأوصاف مثل سيرة محمد بن عبدالله (ﷺ) وأن معاصريه من ملوك، وأحبار وكهان، لم نعرف عنهم إلا القليل في حين أن محمداً (ﷺ). قد اصطبغت شخصيته بصبغة تاريخية قد لا نجدها عند أي

(1) البوطي، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلاف الراشدة، ط الخامسة والعشرون، دار الفكر دمشق، سنة 1426، ص51-52.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص22.

(3) ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ، ط الثانية، دار شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، سنة 1955، ص190.

مؤسس آخر من مؤسسي الديانات الكبرى[1]. ولم يعرف التاريخ رجل يصل به وصف أصحابه له إلى حد وصف شيب شعره، واتكائه، ونومه، ولون العيون والوجه. ذلك هو محمد بن عبدالله (ﷺ) "فأنوار التاريخ تسطع على حياته التي نعرفها في أدق تفاصيلها، والصورة التي خلفها محمد (ﷺ) "[2].

إن الوصف الشامل لحياة محمد ﷺ في جوانبه الخلّقية والخُلّقية هي ما يتداول ذكره عند التعرض لذكر سيرته، وقد اقترن وصف الشمائل المحمدية عند "ديورانت" بوصف أحد الصحابة المقربين منه ﷺ (علي بن أبي طالب) وكان حينها في الخامسة والأربعين من عمره فوصفه بأنه "لم يكن بالطويل الممغط ولا بالقصير المتردد وكان ربعة من القوم ولم يكن بالجعد القطط ولا بالسبط كان جعدا رجلا ولم يكن بالمطهم ولا بالمكلثم، وكان أبيض مشربا أدعج العينين أهدب الأشفار، جليل المشاش والكتد، دقيق المشربة،، أجود شثن الكفين والقدمين، إذا مشى تقلع كأنما يمشي في صبب، وإذا التفت التفت معا،... أجود الناس كفاً وأجرأ الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة،وأوفى الناس ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عِشرةً، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه أحبه، يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثله (ﷺ)"[3].

وإذا ما أمعنا في تفسير صفات رسول الله (ﷺ) التي وردت في النص سنجد أنه لم يكن من ذوي القامة المفرطة في الطول ولا من أصحاب القامة القصيرة، وكان بين هذا وذاك، وأما القطط أراد به جعودة شعره أي أنه كان في شعره التواء بسيط، وأما المطهم البادن الذي فيه لحم كثير، والمكلثم المدور الوجه، وأما المشرب فهو الذي في بياضه حمره، والأدعج فالشديد سواد العين، والأهداب عريض وطويل

(1) حسين حسني معدي، الرسول (ﷺ) في عيون غريبة منصفة، ط الأولى، دار الكتاب العربي، دمشق، سنة 1419، ص144.

(2) المصدر نفسه، ص114.

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص22-23.

الكتفين، مجتمع الكتفين، وهو الكاهل، والمشربه هو الشعر الدقيق الممتد من الصدر إلى السرة والشثن الغليظ الأصابع من اليدين والقدمين، والتقلع السرعة في المشي، والصبب انحدار الماء من المكان المرتفع تشبيهاً بمشيية (ﷺ) وقوله جليل المشاش، يريد رؤوس المناكب، والعِشرةُ = الصحبة والرفقة، والبديهة المفاجأة يقال؟ أي فجأته[1].

والقارئ لقصة الحضارة يجد ما يثير الدهشة من كلام "ديورانت" حيث أنه تساءل عن وجود المسيح قائلاً: "هل وجد المسيح حقاً... لقد كان بولنجبروك والملتفون حوله، وهم جماعة ارتاع لأفكارهم فوليتر نفسه، يقولون في مجالسهم الخاصة أن المسيح قد لا يكون له وجود على الإطلاق"[2].

لم يكن لدى "ديورانت" أدنى شك في وجود محمد (ﷺ). وما كتبه عنه في كتابه (قصة الحضارة) يبدو أنه نقله عن مؤلفات إسلامية إلا أنه حاول طمس بعض الأشياء.

إنه أنكر النبوة، ويعتبرها من المصدر البشري. فليس عنده إيمان بالرسل، ولكن ما يجعلنا نتساءل كيف كان مسيحي الديانة، وهو منكر وجود المسيح، في حين كان إعجابه بمحمد (ﷺ). ومدحه له يكاد يكون إعجاب المؤمن به. ثم ينكر له صفة خاتم النبوة؟ أن من لم يستطع أن يحفظ الديانة التي يدين بها من التحريف، لابد له من إسقاطات على الديانات الأخرى، حتى يجد لنفسه مخرجاً مما هو فيه. وإن الكنيسة الغربية كان من أولوياتها، منذ بداية الإسلام الطعن في صدق نبوة رسول الله (ﷺ)، ولا يزال هذا هو المنهج المتبع لمعظم المفكرين الغربيين، على الرغم من أن بعضهم وصف النبي ببعض الصفات الإيجابية: كقولهم عنه أنه

---

(1) أخرجه الترمذي في السنن، باب المناقب، فصل ما جاء في صفة النبي (ﷺ) برقم (3638).

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج11، الجزء الثالث من المجلد الثالث، مصدر سابق، ص202.

مصلح سياسي ناجح، أو قائد عسكري، ولكن ليس كنبي يوحي إليه فكم تغنينا بعبارة (العظماء مائة وأعظمهم محمد) وغيرها[1].

وبعد أن ذكر لنا "ديورانت" بعض شمائل محمد (ﷺ) الخلقية. يذكر لنا بعض شمائله الخُلقية إذ يقول كان مهيب الطلعة، قليل الضحك، ممتنع عن الفُكاهة. شديد الحرص من المُزاح ولو لم يكن كذلك لما استطاع أن يتولى أمور الناس[2].

يبدو أن ما فهمه "ول ديورانت" من عبارة مهيب الطلعة تصوره رجلاً ذو هيبة قوية غليظ القلب تهابه الناس لشدته، لا يترك العنان لأحد لمجادلته في أي أمر يفعل ما بدا له دون أن يرجع في ذلك إلى أحد.

لقد كان النبي (ﷺ) ذو هيبة، ووقار. وليس هيبة خوف، فلم يشهد له أحد بسوء معاملة، بل كانت هيبة قد جمعت بين التواضع الشديد حتى لا يظهر فرط هيبته، فيزيدها لطفاً بذلك التواضع، بل أن تواضعه هذا كان من قوة نفسه، دون أن يحس بأنه نزل به هذا التواضع إلى المهانة فيما يفعل، وقد كان الواصفون لمجلس النبي عليه الصلاة والسلام بين صحابته. بما يدل على عظيم مهابته، وقوة وقاره، وسمته، فقد كان مجلسه يحفه الوقار لا يتكلمون إلا بإذنه، فإذا صمت صمتوا لا يخرجون عن قوله، ولا يبعدون عن آرائه[3].

لقد كان (ﷺ) مثالاً للتعامل مع الناس. فهم سواسية عنده، لا فرق بين مسلمين وغير مسلمين، ولا بين غني ولا فقير، لذلك أحبه الناس جميعاً، وكان وديعاً يهتم بأمور الناس أكثر من اهتمامه بأمور نفسه[4]، وإذا كان قليل الضحك كما يزعم "ديورانت" ها هو (بوش) وهو من كتب عن محمد (ﷺ) أيضاً، يعطينا صورة عن

---

(1) حسين حسني معدي، الرسول (ﷺ) في عيون غربية منصفة، مصدر سابق، ص51.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص23.

(3) محمد بن أحمد بن مصطفى، خاتم النبيين (ﷺ)، دار الفكر العربي، القاهرة، سنة 1452، ص181.

(4) محمد ظفر الله خان، الإسلام والإنسان المعاصر، ترجمة وقدم له محمد جلال شرف، دار النهضة العربية، بيروت، سنة 1981، ص79.

ضحكه (ﷺ). إذ يقول "ومع أنه كان يضحك إلا أنه كان ذا ضحك وقوراً مهيباً وإذا ابتسم تقلصت عضلات فمه وخديه مما يجعل لابتسامته جاذبية لا تقاوم"[1].

وإذا ما أخذنا بأعيننا ضحك رسول الله (ﷺ) كان بساماً. ولم يكن ضحوكاً بالمعنى الذي يرمي إليه "ديورانت" "فعن عبدالله بن الحارث بن جزء[2] قال "ما كان ضحك رسول الله (ﷺ) إلا تبسماً"[3].

فهو ليس بالضحك الشديد المصاحب للقهقهة. والذي يكون مدعاة للسخرية. فضلاً على أنه كان نادراً ما يضحك حتى تبدو نواجذه، وهي سمة الأنبياء "ألم تر ماذا فعل سليمان عليه السلام، لما سمع قول النملة؟ ما زاد على التبسم"، قال تعالى: ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ [النمل، الآية 19].

وفي وصفه لبنيته الجسدية (ﷺ)، وبعض من جوانبه النفسية يقول "ديورانت" "لم يكن قوي البنية، ولهذا كان مرهف الحس سريع التأثر، ميالاً إلى الانقباض كثير التفكير. كان إذ غضب أو تهيج انتفخت عروق وجهه بدرجة يرتاع لها من حوله(*)"[4].

---

(1) جورج بوش، محمد ﷺ مؤسس الدين الإسلامي ومؤسس إمبراطورية المسلمين، ترجمة وعلق عليه عبدالرحمن الشيخ، ط الثانية، دار المريخ، سنة 2005، ص354.

(2) هو عبدالله بن الحارثة بن جزء بن عبدالله بن معد بن يكرب بن عمر بن غسم وقيل عصم توفي سنة 86هـ. "ينظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة ابن الأثير، تحقيق عادل أحمد الرفاعي، الناشر دار إحياء التراث، بيروت، سنة 1417هـ، 1996م".

(3) أخرجه الترمذي في السنن، فصل المناقب، ص101، باب في بشاشة النبي (ﷺ) رقم (3642).

(*) كان النبي يغضب أحياناً لله ولدينه، ولكننا لا نعرف أنه كان يتهيج لأن التهيج صفة لا تليق بمسلم فضلاً عن رسول الله رب العالمين وخاصة وأن الله يصفه بأنه بالمؤمنين روؤف رحيم ويقول عنه ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (المترجم). حاشية كتاب قصة الحضارة، ص23.

(4) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص23.

ولو كان النبي (ﷺ) ذي بنية ضعيفة لما جاءه الصحابة يوم حفر الخندق، وطلبوا منه مساعدتهم في تهشيم الكدية الكبيرة التي اعترضت طريقهم. قالوا له "هذه كدية عرضت في الخندق، فقال (أنا نازل) ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً، فأخذ النبي (ﷺ) المعول فضرب، فعاد كثيبا أهيل"[1].

فالامتناع عن الطعام لثلاثة أيام مع شدة الجوع يجعل الإنسان في أشد حالات الضعف، إلا أنه (ﷺ) ضرب الصخرة فتحولت إلى كتل من الرماد، وذلك مما يدل على قوته البدنية (ﷺ) وكمال رجولته"[2]، وقد يتبادر للبعض أن في هذه القوة تدخل للقدرة الإلهية، ونحن هنا لسنا بصدد مصدر هذه القوة، وإنما بصدد القوة التي تقابل الضعف البدني الذي نريد الإشارة إليه.

وهناك صفات نفسية يصنفها "ديورانت" ضمن آراءه الشخصية، وهي لا تليق حتى بمصلح كيف لها أن تكون من صفات محمد (ﷺ) حيث يقول: "كان مرهف الحس سريع التأثر، ميالاً إلى الإنقباض" في حين يقول (اللورد هدلي) [3] "أن للنبي العربي أخلاقاً قوية متينة وشخصية وزنت ومحصت واختبرت في كل خطوة من خطى حياته... فهي مرآة تعكس علينا التعقل والرقي والسخاء والكرم والشجاعة والإقدام والصبر والحلم والوداعة والعفو والتواضع والحياة وكل الأخلاق الجوهرية"[4].

كما كان النبي (ﷺ) طويل الصمت، كثير التفكير، قليل الكلام، وليس "ميالاً إلى الإنقباض التأثر" كما يدعي "ديورانت" فقد كان له أصالة الفكرة، وسداد الوسيلة

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، ص108 باب غزوة الخندق، رقم (1401).

(2) أحمد عبدالفتاح زواوي، شمائل الرسول (ﷺ)، دار القمة الإسكندرية، ص350.

(3) هو اللورد هدلي البريطاني البارون الخامس في عائلته البريطانية له العديد من الأعمال منها (محمد النبي). "ينظر: الموقع الالكتروني التالي www.kazamlza.com ".

(4) محفوظ العباسي، الغرب نحو الدرب بأقلام مفكريه، مصدر سابق، ص64.

والهدف، وكان يستعين بصمته الطويل على طول التأمل، وإدمان الفكرة، لقد كان حكيماً لا يطلق العنان لكثرة الكلام من دون فائدة"[1].

يقول "ديورانت" في صفة غضب النبي (ﷺ) كان إذا غضب أو تهيج انتفخت عروق وجهه بدرجة يرتاع لها من حوله.

أولاً: إن هذه الصفات لا يمكن أن يتحلى بها الرسول الذي جعله الله القدوة الحسنة والمثل للكمال البشري: فقال تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: 21]، فإنه من غير المقبول أن يكون القدوة الحسنة لكل البشرية على غير صفات الفضيلة وحسن الخلق وضبط النفس.

ثانياً: لم نعرف هذه الصفة في أي نبي غيره، إذ ليس من الممكن أن يعمل بها من فضله الله عليهم جميعاً، وجعله خاتماً لهم. قال تعالى في تفضيله ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة 253]. وفي كونه خاتماً للأنبياء قال تعالى ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب 40].

إن حالة الغضب التي يصورها "ديورانت" قد لا نجد فيها القدر الكافي من العفو والتسامح. خاصة إذا كان الأمر يتعلق بشخص رسول، ولكن "ديورانت" ما صبر حتى قال فيه "كان في وسعه أن يعفو من فوره عن عدوه الأعزل إذا تاب"[2]، فكيف يجتمع الغضب الشديد المصاحب لانتفاخ العروق مع هذا العفو الجميل عن العدو الذي يتحين الفرصة لقتله.

---

(1) عبدالله محمد النقراط، المفيد في الثقافة الإسلامية، ط الأولى، سنة 2010، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، ص.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص23.

ولعل (وليم موير) [1] هو الآخر وقع في ذات الخطأ ألا وهو التناقض في الرأي، إذ يقول "أن سيف محمد (ﷺ) والقرآن هما أكثر أعداء الحضارة والحرية... – ومن جهة أخرى يرى– أن صفات محمد (ﷺ) الجديرة بالتنويه: الرقة والإحترام اللذين كان يعامل بهما أتباعه، حتى أقلهم شأناً، وكان في ممارسته للحكم عادلاً رحيماً رفيقاً حتى بأعدائه"[2].

ولعل عداء الأخير كان أكثر وضوحاً من "ديورانت" ومع ذلك لم يحد عن الثناء عليه (ﷺ)، فالغرب وكتابهم أدركوا بأن الطعن وإلقاء الشبهات حول النبي (ﷺ) لن يجدي نفعاً لذلك وجدوا لا مناص من ذكر كثير من صفاته الجليله، ليدسوا بينها شبهاتهم المزيفة.

- الحاجة إلى بعثته (ﷺ):

يشير "ديورانت" إلى بعض الأحداث التي كانت وراء ظهور نبوة محمد (ﷺ) والحالة التي وصل إليها العرب باعتبارها من أولويات الأسباب –على حد زعمه– فيرى أن محمداً (ﷺ) قد تأثر بشخصيات يهودية، ومسيحية، ساعدته على شق طريقه، حتى يخرج بالعرب من تلك الحالة التي وصلوا إليها. يقول "ديورانت" "إن بلاد العرب كان فيها كثير من المسيحيين، وكانت طائفة منهم أقامت بمكة، وكان محمد (ﷺ) على اتصال بواحد منهم على الأقل وهو ورقة بن نوفل، ابن عم خديجة، وكان محمد (ﷺ) يتردد على المدينة التي توفي فيها والده، "ولعله قد التقى هناك

(1) هو وليم موير مستشرق اسكتلندي أحد الشخصيات التي أعجبت بالرسول (ﷺ) وخاصة في كتابه (حياة محمد) وله مؤلفات أخرى عديدة منها (تاريخ دولة المماليك في مصر) توفي سنة 1950م "ينظر: موقع قصة الإسلام".

(2) نقلاً عن أنور محمد زناتي، زيارة جديدة للاستشراق، ط الأولى، دار الأنجلو المصرية، الأزهرة، سنة 2006، ص38، 39.

ببعض اليهود وكانوا كثيرين فيها، وتدل كثير من آيات القرآن على إعجابه بأخلاق المسيحيين، وبما في دين اليهود من نزعة إلى التوحيد"[1].

يقول (نذير حمدان) [2] في كتابه (الرسول (ﷺ) في كتابات المستشرقين) "إن مثل "ول ديورانت"، وبدلي وأرفنج يكتفون بنقل أخبار الرسل من العلماء، مسلمين، وغير مسلمين، دون أن تدفعهم حماسة لتقديم أدلة عقلية أو نصية على نبوة الرسل"[3].

من المعروف لدى الناس في ذلك الوقت أن الديانة المسيحية، واليهودية كانت من أكثر الديانات انتشاراً في العالم، وليس الجزيرة العربية فقط. وكان ورقة على صلة بكثير من الناس، وليس بمحمد (ﷺ) فقط، وربما كان بعض الناس أقرب إلى ورقة من محمد (ﷺ)، فلماذا لم يأتوا بمثل ما جاء به محمد (ﷺ)؟ وكل ما في الأمر أن ورقة كان قد تنصر واطلع على الكتب المقدسة، ومحص في الحقائق ووازن بينها، فعرف من خلالها أن الزمان الذي يعيش فيه هو زمن النبي الذي سيبعث[4].

ولهذا عندما جاء محمد (ﷺ) بالحق من نبوته، وهو ما أشارت إليه الكتب السابقة، واطلع عليه ورقة وأشار إليه، فلم يجدوا أمامهم إلا أن يقولوا أن نبوة محمد (ﷺ) تلقاها من ورقة.

واليهود الذين كانوا في المدينة يذكرون مجيء نبيءٍ من العرب ومع أن اليهود معروفون بكتمان ما أنزل الله تعالى عليهم، إلا أن الحكمة الإلهية اقتضت أن ينزلقوا في الحديث عن ظهور نبي من أبناء عمهم إسماعيل عليه السلام"[5].

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص23.

(2) هو ندير حمدان الدمشقي ولد عام 1931 ساهم في تحقيق عدة كتب منها (تعليم المتعلم للزرنوجي) والجزء الثامن (لسير أعلام النبلاء للذهبي) له العديد من المؤلفات منها (الموسوعة الفلسفية الحكيمة) وله (حكمة القرآن والحضارة). "ينظر: الموسوعة العربية العالمية"، مصدر سابق.

(3) نذير حمدان، الرسول (ﷺ) في كتابات المستشرقين، ط الثانية، دار المنارة جدة، سنة 1986، ص68.

(4) أبي زهرة، خاتم النبيين (ﷺ)، دار الفكر العربي، القاهرة، سنة 1425، ص251.

(5) أبي زهرة، خاتم النبيين (ﷺ)، مصدر سابق، ص249.

وما جاءت نبوة محمد (ﷺ) حتى أنكروا ما جاء به ولذلك فإن الله يذكرهم بما كفروا به في قوله: ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا به﴾ [البقرة، 89].

يرى "ديورانت" أن النبوة مصدر بشري في تلك الأديان، وكان محمد (ﷺ) تلقاها إما عن طريق ورقة، أو عن طريق من التقى بهم عند زيارته للمدينة التي توفي فيها والده، وهو ما يؤكد على ما ذكرناه سابقاً من أن "ديورانت" ومن حذا حذوه، ليس لديهم أدلة عقلية، أو نقلية على نبوة الرسل، وحينما يتحدثون عن الرسل يتحدثون وكأن الموضوع لا يعنيهم"[1].

وكذلك يدعي "ديورانت" أن النبي (ﷺ). كان معجباً بأخلاق المسيحيين، وما كان في الديانة اليهودية من نزعة التوحيد، وإعجابه هذا يدل عليه –حسب رأيه– كثير من آيات القرآن –على حد زعمه– وإعجابه بشدة بالمسيحية واليهودية، لأن لكليهما كتاباً مقدساً يعتقد أن موحي به من عند الله[2].

وفي نظر "ديورانت" هذه هي الأسباب التي أدت إلى ظهور الدين الجديد الذي جاء به محمد (ﷺ)، ولكن حالة الديانة اليهودية والمسيحية آنذاك ليس فيهما من الأخلاق والقوة ما يدعو إلى الإعجاب لما دخل عليهما من تحريف، الأمر الذي يجعل محمداً (ﷺ) يبحث عن دين مماثل لهما. فنزعة التوحيد في اليهودية مثلاً تصور الإلهة في التوراة بـ(يهو) فهو تصور يتعلق ببني إسرائيل وأنبيائهم، وليست له صفة العموم والشمول[3]، والمسيحية تحولت إلى ديانة وثنية، فالإله ذو ثلاثة أقانيم منفصلة[4]، فأصبحت بعيدة كل البعد عن عقيدة التوحيد، والأخلاق انحرفت فيها عن

---

(1) نذير حمدان، الرسول (ﷺ) في كتابات المستشرقين، مصدر سابق، ص68.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص23.

(3) نذير حمدان، الرسول (ﷺ) في كتابات المستشرقين، مصدر سابق، ص71.

(4) خواجة كمال الدين، المثل الأعلى في الأنبياء، عربة وقدم له، أمين محمود الشريف، اللورد هدلي، ط الأولى، دار الفكر المعاصر، لبنان، سنة 1989، ص68.

أصلها، وأصبحت الرذيلة فضيلة، والفضيلة رذيلة، وأصبح ارتكاب المحرمات هو السبيل للأجر والثواب عند الرب بزعمهم، وكانت الفاحشة ترتكب عند أداء الشعائر الدينية[1].

هل من الممكن أن يعجب النبي (ﷺ) بمثل هذه الأخلاق؟ وهل هذه هي الأخلاق التي بعث بها؟

وإذا كانت أخلاق المسيحيين واليهود تدعو إلى الإعجاب، وبفضل دينهم وأخلاقهم صارت لهم قوة كبيرة في العالم. لماذا أحسوا بالخطر حين شعروا بأنها دين لا يوائم طبيعة الغرب، وأدركوا بأن المسيحية ستنهار عن قريب، وسيتحول المسيحيون قريباً إلى الإسلام[2]، وذلك يدل بشكل قاطع على الاختلاف بين جوهر الإسلام، والمسيحية واليهودية، يقول (شوبنهور)[3] "إن الديانة المسيحية فلسفة تشاؤمية عقيمة، وجوهرها قائم على مبدأ الخطيئة، أما اليهودية كانت متفائلة إلى حد ما فالدين عند اليهود عبارة عن رشوة يقدمها الناس إلى الآلهة لتساعدهم على النجاح في الدنيا[4].

أما عن الإسلام فإن (غوستاف لوبون) [5] يقول "ومما لا ريب فيه أن محمداً

---

(1) خوجة كمال الدين، المثل الأعلى في الأنبياء، المصدر نفسه، ص68.

(2) عبدالمتعال محمد الجبري، السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، ط الأولى، دار مكتبة وهبة القاهرة، سنة 1988، ص13-14.

(3) هو شوبنهور آرثر فيلسوف ألماني أشتهر على نطاق واسع بسبب آرائه التشاؤمية وهو صاحب ومؤسس نظرية التشاؤم، من مؤلفاته (العالم رغبة وعرض) توفي سنة 1860م. "ينظر: محمد علي سويد، موسوعة هل تعلم، الطبعة الأولى، الناشر شركة رشار برس، بيروت لبنان، 1999، ص145.

(4) ول ديورانت، قصة الفلسفة، ترجمة فتح الله محمد المشعشع، ط السادسة، منشورات مكتبة المعارف، بيروت، سنة 1408هـ 1988م، ص436.

(5) هو غوستاف لوبون طبيب ومؤرخ فرنسي عني بالحضارة الشرقية من أشهر آثاره (حضارة العرب) و(حضارات الهند) وهو أحد أشهر فلاسفة الغرب وأحد الذين أنصفوا الحضارة الإسلامية، توفي سنة 1931م. "ينظر: موقع ويكيبديا الحرة.

(ﷺ) أصاب في بلاد العرب نتائج لم تصب مثلها جميع الديانات التي ظهرت قبل الإسلام. ومنها اليهودية، والنصرانية"[1]، فمعنى التوحيد الذي جاء به محمد (ﷺ) مغاير لما جاء في اليهودية والمسيحية، يقول (هنري كاسترو) [2] في كتابة (الإسلام سوانح وخواطر) "أما فكرة التوحيد فيستحيل أن يكون هذا الاعتقاد وصل إلى النبي (ﷺ) من مطالعة التوراة والإنجيل، إذ لو قرأ تلك الكتب لردها لاحتوائها على مذهب التثليث"[3].

ولكن إذا ما ألقينا نظرة بسيطة على حالة العرب في ذلك الوقت، نجدها حالة مأساويه، ليس هناك معيار للخير أو الشر، يقول "ول ديورانت": "إن الحالة التي وصل إليها العرب من شرك وعباده للأوثان، وفساد أخلاقي، والحروب بين القبائل المتجاورة، والضعف السياسي، جعل محمداً (ﷺ) يفكر في مخرج للعرب من هذه الحالة المأساوية، وبخاصة إذا ما قورنت بما تأمر به المسيحية واليهودية، تجدها حالة بدائية ليس لها أي قوة دينية واجتماعية أو سياسية. فأنتابه الإحساس بالحاجة إلى الدين الجديد، حتى يجعل من هذه الجماعات المتعادية أمة واحدة دين قائم على أخلاق وأوامر منزلة لا ينازع فيها أحد"[4].

الحقيقة أن تلك الحقبة من الزمن لم يخل فيها مكان ولازمان من ظهور الفساد في كل قطر براً وبحراً مصداقاً لقوله تعالى ﴿ ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم، الآية41] فالفساد الذي ظهر في العالم ابتدأ بالعقائد، فاليهودية انحرفت عن المسار الصحيح ولم يعد لها تأثير على أصحابها، وكذلك المسيحية دخلت في دوائر مغلقة خلال

---

(1) حسين حسني معدى، الرسول (ﷺ) في عيون غريبة منصفة، مصدر سابق، ص154.

(2) هو هنري كاسترو الذي كان مقدم في الجيش الفرنسي قضى في الشمال الافريقي ردحاً من الزمن، من آثاره (مصادر غير منشورة عن تاريخ المغرب) (الأشراف السعديون)، توفي سنة 1927م. "ينظر: المكتبة الالكترونية، مصدر سابق.

(3) نذير حمدان، الرسول (ﷺ) في كتابات المستشرقين، مصدر سابق، ص71.

(4) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص23.

القرن السابع الميلادي، ولم يعد هناك ما يوجه العقول إلى الطريق الصحيح، فكان لابد من قبول أفكار جديدة، فصاروا يعبدون أرواح الموتى وآثارهم، وبرغم كثرة الفساد في ذلك الزمن فإن "ديورانت" أصاب حين قال "إن بلاد العرب انتشر فيها الفساد أكثر من البلدان الأخرى فقد ترك العنان لشرب الخمر، وانتهاك الأعراض ولعب الميسر وسفك الدماء، ووأد البنات، وسرقة الأموال، كل هذه الأمور أصبحت مدار افتخار بينهم، ناهيك عن عدم الانضباط في العلاقات الجنسية فلا قيد ولا شرط، فالأبناء ينكحون ما نكح آباؤهم من النساء، يقول (جيبون) عن العرب في تلك الأيام "لم يكن الإنسان يفترق كثيراً عن الحيوان في ذلك المجتمع الذي لا يستحق هذا الإسم فقد كان أشبه بحال الإنسان البدائي في الانحطاط فلم يكن يعرف القوانين"[1].

وعلى صعيد الكتب السماوية لم ينجُ أي كتاب سماوي من التحريف، عند بني إسرائيل، والفرس، والهندوس، والصين، والبوذيين، حتى أن الكتاب المقدس (المسيحية) لحقه ذات المصير، مما أدى إلى عدم الإيمان إلا بالقليل منه، الأمر الذي جعل رجال الكنيسة لا يحلفون اليمين بأنه صحيح، لأنهم لا يؤمنون بصيغة الكثير مما ورد فيه من العقائد والأساطير[2].

يرجح "ول ديورانت" أن محمداً (ﷺ) أخذ دينه عن الديانتين اليهودية والمسيحية وهذا غير صحيح، فالمسيحية، واليهودية كما مرّ سابقاً. دخل عليها كثير من التحريف، حتى أن أنصارهما من الناس في ذلك الوقت. ودوا لو أن تعاليم المسيح تجردت من العقائد الدخيلة.

إن "ديورانت" وكما سبقت الإشارة إليه وصل به الأمر إلى حد إنكار وجود المسيح عليه السلام. وها هو الآن يشيد بالمسيحية وأخلاقها وفكرة التوحيد في عقيدة اليهودية، ولكنه ذكر في الجزء الخاص بالمسيح في كتابه قصة الحضارة؛ أن

---

(1) خوجة كمال الدين، المثل الأعلى في الأنبياء، مصدر سابق، ص من67-71.

(2) المصدر نفسه، ص73-74.

المسيحية ديانة وثنية ولم تستطع أن تقضي على الوثنية، بل تبنتها حيث أدخلت عليها أفكاراً يونانية، وانتقلت هذه الأفكار اليونانية الخفية إلى طقوس القداس ودخلت عليها من مصر آراء الثالوث المقدس[1].

وقد آلت اليهودية إلى ذات المصير، فالإله الواحد أصبح خاصاً باليهود دون غيرهم، فهو ليس مطلق شامل لجميع الناس، كما أنهم أصبغوه بصبغة التشبيه والتجسيم يقول مؤرخ يهودي: "إن الذين يعتبرون أنفسهم من اليهود في جهات خيبر، ليسوا يهوداً حقاً، إذ لم يحافظوا على الديانة الإلهية التوحيدية، ولم يخضعوا لقوانين التلموذ خضوعاً تاماً"[2].

ومن هنا فإنه لا يستطع أحدٌ أن ينكر أن الحاجة كانت ماسة لبعثة رسول جديد خاتم ناسخ لكل الديانات، فلم يعد هناك أي رادع في الحياة، فالديانات تعددت فيها الإلهة، ولم يعد يعرف الناس ما هو الدين الصحيح حتى يتبعوه، وكثر الفجور والظلم، حتى أنهم لم يستطيعوا أن يردوا ظالم عن ظلمه، إلا بفصل تأسيس حلف الفضول لمساندة المظلومين، وكل هذه الأشياء توحي إليك بأن العناية الإلهية، لن تترك البشر يتحولون إلى وحوش يحتكمون إلى قانون الغاب، لهذا توالى بعث الرسل عند خروج الناس عن جادة الصواب، وصولاً إلى خاتمهم محمد (ﷺ).

ويبدو أن قراءة "ديورانت" للحال التي كانت عليها جزيرة العرب، وما حولها، والعلامات الدالة على بعث رسول جديد وقرب زمانه، كانت قراءة مغايرة لكثير من مفكري عصره، فمثلاً جاء في التوراة والإنجيل وصف لبلاد العرب بأنها أرض النبي المنتظر، مما جعل اليهود والنصارى يقيمون بها[3].

---

(1) محمد عزت إسماعيل الطهطاوي، التبشير والاستشراق أحقاد وحملات على النبي (ﷺ) وبلا الإسلام، ط الأولى، دار الزهره للإعلام الغزي، 1991، ص61.

(2) علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج1، ط التاسعة، دار المعارف، القاهرة، ص64.

(3) أمين دويدار، سورة من حياة الرسول، دار المعارف، القاهرة، ص149.

مفهوم المتنبئين عند ول ديورنت:

ليس من الغريب على "ول ديورنت" أن يرجع كل تلك الإشارات الدالة على قرب زمان محمد (ﷺ)، إلى ظاهرة (التنبؤ) بما سيحدث إذ جعل من هؤلاء المتنبئين طائفة من الناس كانت بانتظار رسول جديد، وهذا التنبؤ يرجع إلى تأثر العرب بعقيدة المسيح المنتظر التي يؤمن بها اليهود، حتى ظهر محمد (ﷺ). حيث يقول "ديورانت" "لعل هذه الأفكار نفسها قد طافت بعقل غيره من الناس، فنحن نسمع عن قيام عدد من (المتنبئين) [1] في بلاد العرب في بداية القرن السابع، وقد تأثر كثير من العرب بعقيدة المسيح المنتظر التي يؤمن بها اليهود" فكان محمد (ﷺ) هو الأسبق إليها فوجدت هذه الفكرة قبولاً عند الناس لانتظارهم مجيء رسول من عند الله"[2].

وهنا يحا"ول ديورانت" طمس البشارات التي جاءت في الكتب السابقة، والتي تبشر بظهور رسول جديد خاتم للأنبياء، بحيث تكون مجردة من الدين، ولكن من المعروف أن التنبؤات قد تصيب وقد تخطئ، وهي غالباً ما تكون مبنية على مقدمات ونتائج، وفي بعض الأحيان هي إحساس داخلي، ومن هنا نستطيع أن نقول أن ما جاء في التوراة والإنجيل من بشرى بمحمد (ﷺ)، بعيد كل البعد عن التنبؤ، فالأخبار عنه (ﷺ) قبل بعثه كثيرة في الديانات، وعند بعض الكهان، والبعض الآخر من الناس ربما لا يرقى إلى مرتبة التنبؤ التي يدعيها "ديورانت" غير أن الحال الذي كان عليه الناس حينذاك، يوحى إليك على الأقل بمجيء من يهدي الناس إلى الصواب ولو كان مصلحاً وليس رسولاً.

---

(1) المتنبئين عند ول ديورانت هم عبارة عن فئة من الناس تكهنت بظهور رسول جديد أو هم مجموعة من البشر كانت تنتظر رسول جديد متأثرين في ذلك بعقيدة اليهود التي تؤمن بقدوم المسيح المنتظر أو المنقذ لذلك وجدت هذه الفكرة أي فكرة الرسول الجديد قبولاً عند الناس لأنهم كانوا بانتظار ظهوره.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص24.

ومن هذه الإشارات المتعددة على سبيل الذكر وليس الحصر، ما جاء في التوراة، وهو ما يؤكده الله تعالى في قوله ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾ [الأعراف، 157].

وكان أحبار اليهود ورهبان النصارى قد تحدثوا بأمر رسول الله (ﷺ). قبيل مبعثه لما وجدوه عندهم في وصف زمانه، وما اخبرهم عنه أبناؤهم عند عهدهم إليهم. حتى أن يهود المدينة اعتقدوا أنه منهم وكانوا يتوعدون به أهلها من العرب ودلت عليه أيضاً بعض الإرهاصات، والمقدمات، التي تدل على قرب زمانه، حتى أن بعض الحنفاء الذين يلتمسون الحنفية، بعد الوثنية طمعوا في أن يكون هذا هو النبي، والبعض الآخر دفعته حماسة الانتظار إلى تسمية ابنه (محمداً) (ﷺ) طمعاً في أن يكون هو النبي المنتظر[1].

لم تكن الحجة التي يستدل بها "ديورانت" على قرب ظهور نبوة محمد (ﷺ) بالحجة العقلية المبرهنة، ومن خلال دراستي لطائفة المتنبئين عنده، وجدته لم يجد حجة غير هذه الحجة، توافق هواه لإنكار علامات قرب ظهور النبي المنتظر، مستبعداً كل الأدلة الدينية التي لا تترك أدنى مجال للشك على ظهوره (ﷺ).

هذا وقد ذكر "ديورانت" طائفة أخرى غير طائفة (المتنبئين) وهذه الطائفة في نظره، تتمثل في رفضة عبادة الأصنام، وهي طائفة ظلت تبحث بين الأديان عن دين لها غير دينها السابق، الذي دخلت فيه الوثنية وهي ما يطلق على أتباعها الحنفاء.

- مفهوم الحنفاء عند ول (ديورانت):

(1) أمين دوريدار، سورة من حياة الرسول، مصدر سابق، ص149.

كانت هذه الشيعة (الحنفية) [1] من العرب غير مؤمنة بالأصنام التي يتقربون بها إلى آلهة الكعبة، وأقرت هذه الطائفة بإله واحد تعبده البشرية جميعاً، وقالت بأن البشر عبارة عن عبيد له، فتلزم عليهم عبادته وحده[2].

وقد اختلفت الآراء حول هذه الطائفة إلى عدة اتجاهات: فهناك من رأى أن الحنفية لم تكن تتبع منهجاً دينياً معيناً لمفهوم الدين مثل اليهودية، والنصرانية، بمعنى أنه لم يكن لها قاعدة شرعية تستمد منها أحكامها، من كتب مقدسة ووحي سماوي على غرار الأديان السماوية الأخرى، لذلك فهم لا يمثلون أي جماعة دينية منفصلة[3].

وذكر ابن إسحاق: أن هؤلاء الحنفية هم "زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزي، وعثمان بن الحارث، أما ورقة فتنصر واستحكم في النصرانية وكان زيد أعدلهم أمراً فترك كل الأديان إلا دين إبراهيم الموحد لله عز وجل[4].

وكان للدراسات الاستشراقية عن فترة ما قبل الإسلام أثرها حول هذه الطائفة فهي عندهم قد نشأت "بتأثير اليهود والنصرانية، غير أن أصحابها لم يكونوا يهوداً أو نصارى وكانوا تأثروا بآراء الديانتين[5].

وعندما جاء الإسلام أشار القرآن الكريم إلى هؤلاء الحنفاء الذين اتبعوا ملة إبراهيم (الحنفية السمحة) وهم من رفض عبادة الأصنام ولم يشركوا بالله شيئاً، وقد

---

(1) الحنفاء عند ول ديورنت هم شيعة من العرب اعتزلت عبادة الأصنام المتعددة، ونادت بعبادة إله واحد لاشريك تعبده كافة الناس.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص24.

(3) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج/12/ط الرابعة، دار الساقي، سنة 2001، ص29.

(4) ابن إسحاق، السير والمغازي، تحقيق سهيل نتار، ط الأولى، دار الفكر، بيروت، سنة 1398-1978، ص115، ص116.

(5) جود علي، المفصل في تاريخ العرب، مصدر سابق، ص34.

ملئت قلوبهم توحيداً له؛ قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِياً وَلاَ نَصْرَانِياً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران، 67].

المبحث الثاني
دعوتـــــــــــه ﷺ

بعثته:-

بعد مرور الأربعين عاماً من عمره (ﷺ). وقد بلغ أشده وكل تلك الفترة التي انقضت من حياته الشريفة مشهود له فيها بالصدق والأمانة والعفة، فضلاً عن أنه (لم يسجد لصنم قط) فكان هذا خلقه –ﷺ، غير أن رياح التجديد الديني الذي أرسله بها ربه، لم تجد قبولاً واسعاً في بدايتها عند الناس، وبخاصة أن جوهر رسالته مناقضاً للعقيدة الوثنية المنتشرة آنذاك، بحيث إنهم ينظرون إلى آلهتهم الوثنية على أنها دين الآباء والأجداد، وبعضهم الآخر يرى فيها مورد رزقهم، كل هذه الأسباب كانت كفيلة لاتهام محمد (ﷺ) بعد بعثته بالكاذب، والساحر، والكاهن وغيرها، ولن تجد أحداً قبل البعثة ذكر عنه شيئاً كهذا، وسنرى كيف كان عداؤهم الحاقد له سبباً في الأذى الذي أصابه (ﷺ)، وهو الذي بعثه الله ليهديهم إلى دين الله الحق ويخرجهم من الظلمات الوثنية إلى نور الوحدانية.

بدء الوحي:-

ها هو الوحي الإلهي بعد طول انقطاع يأتي وللمرة الأخيرة في تاريخ البشرية، ويعلن فيها محمداً (ﷺ) خاتم النبيين، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب، الآية 40] ووصف "ديورانت" ظاهرة الوحي فقال "وكان كلما قرب من سن الأربعين ازداد إنهماكاً في شؤون الدين، فإذا حل شهر رمضان(*) وهو من الأشهر الحرم(**)– آوى وحده أو جمع أسرته في بعض الأحيان إلى غار في جبل حراء على بعد ثلاثة أميال من مكة، وقضى فيها

(*) كان الرسول (ﷺ) ينقطع في غار حراء شهراً من كل سنة ولكن دون تحديد أنه شهر رمضان نقلاً عن: حاشية قصة الحضارة، ج/13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، ص14. (المترجم)

(**) إنه من المعروف أن رمضان ليس من الأشهر الحرم، بل الأشهر الحرم ثلاثة متوالية وهي : ذو القعدة، ذو الحجة، محرم، وأوحد فرد وهو شهر رجب.

عدة أيام وليالي في الصوم، والتفكير، والصلاة. وبينما هو في ذلك الكهف بمفرده في ليلة من ليالي عام (610)م إذ حدث له ذلك الحدث العظيم وهو المحور الذي يدور عليه تاريخ الإسلام كله"[1].

وقد اعتمد "ديورانت" في كتابة هذا الحدث على روايات كتّاب السيرة والمحدثين. بمنهج يقارب الموضوعية.

ولقد كان الرسول (ﷺ) يجاور إلى غار حراء شهراً من كل سنة، غير أنه لم يكن مقلداً في ذلك أحداً ممن سبقوه أو ممن عاصروه[2]، ولعل الأمر كان تهيئة من الله له حتى لايكون الأمر مفاجئاً له.

ويستدل "ديورانت" على ظاهرة الوحي ببعض رواية ابن اسحق، ويذكر أن النبي (ﷺ) وصف هذا الحدث الجليل بقوله فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال: اقرأ ! قلت ما أقرأ؟ فغتني به حتى ضننت أنه الموت ثم أرسلني فقال: اقرأ، فلقت ما أقرأ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود إلى مثل ما صنع) فقال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق، 1-5].

وبعد الإنتهاء من قراءته انصرف عنه الملك، فاستيقظ من نومه (ﷺ) فكأنه ألصق بقلبه كتاباً، وعندما خرج من غار حراء عاوده الملك ليقول له بأعلى صوت (يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل) قال وجعلت أنظر إلى آفاق السماء فلم أنظر إلى مكان إلا رأيته فيه، ويعيد عليه ما قاله بأنه رسول الله، وهكذا كان واقفاً يستمع إلى جبريل حتى وصلت إليه رسل خديجة[3].

وقد يتساءل أحد ما الذي جعل محمداً (ﷺ) يعتكف في غار حراء كل هذه المدة؟

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص24.

(2) نذير حمدان، الرسول (ﷺ) في كتابات المستشرقين، مصدر سابق، ص82.

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص25.

أنها السعادة الروحية التي لم يتذوقها بنو جلدته، ولو لم يكن غير ذلك لما ترك الزوجة والولد، واتجه إلى مناجاة ربه الذي يناديه من بعيد في صمت بين صخور حراء، وكلما ازداد انهماكاً في التفكير والتأمل، اقترب منه صوت المنادي له حتى جاءه الملك.

غير أن (وات) [1] كان له رأياً آخر في مسألة الوحي حيث رأى، بأن محمداً (ﷺ). قد لجأ إلى غار حراء للهروب من حرارة مكة، ومن جانب آخر كان على دراية مسبقة بأن الفساد الاجتماعي والسياسي والديني، في حاجة إلى إصلاح فسعى إلى الوحدة حتى يلجأ إلى الأمور الإلهية، وربما كان محمد (ﷺ) قد قام ببعض التمرينات الدينية، ولكننا لا نعرف عنها شيئاً[2].

نقول (لوات) إن الوحي الإلهي لا يختلف في أصله فقد رافق كل الأنبياء في رسالاتهم "إنهم يقبلون أن تكون التوراة وحياً من الله، وتنزيلاً منه على موسى عليه السلام، ويقبلون أن تكون أقوال الحواريين وتلامذة المسيح عليه السلام رواية عنه كما سمعوها، أو كما وصلت إليهم على أنها وحي من الله، ثابت في نصه وحروفه، ولم تقبلوا بأن ما يتلقاه محمد (ﷺ) وحياً. إذا كان علماء النفس قد قالوا: إن الهوى يعمي ويصم، فإني أقول: إن التعصب يعمي ويصم، ويقلب الباطل حقاً، والحق باطلاً"[3]، ولو كان محمد (ﷺ) كاذباً (حاشا لله)، ولم يتلقَّ وحياً من الله، لما آمنت به زوجه خديجة رضي الله عنها، وهي أقرب الناس إليه، وأكثرهم معرفة به، وقد اتفقت كل الروايات على أنها أول من آمن به وصدقه، فما قاله "ديورانت" عن خديجة بعدما

---

(1) هو مونتجمري وات كان عميداً لقسم الدراسات العربية بجامعة أدنبرا سابقاً من مؤلفاته عوامل انتشار الإسلام، محمد في مكة. "ينظر: المكتبة الالكترونية"، مصدر سابق.

(2) مونتجمري وات، محمد (ﷺ) في مكة، تحقيق أحمد شلبي، ترجمة عبدالرحمن الشيخ، الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة 1415هـ، ص109-110.

(3) شوقي أبوخليل، أضواء على مواقف المستشرقين والمبشرين، ط الثانية، مصدر سابق، ص87-88.

عاد إليها محمد (ﷺ) يرتجف من أمر الوحي قالت له "بأن ما رآه وحي صادق من السماء وشجعته على أن يعلن رسالته للناس"[1].

وقد كان "ديورانت" الأقرب إلى الموضوعية من بين المستشرقين، فقد حاول بعضهم الطعن والتشكيك في نزول الوحي على محمد (ﷺ) وذلك لأهمية هذا المحور العظيم بالنسبة للمسلمين. فهو المحور الذي يدور عليه تاريخ الإسلام كله كما قال عنه "ديورانت" إذا استطاع هؤلاء المستشرقون التشكيك فيه فإنهم لامحالة سيؤولون إلى الطعن في نبوة محمد (ﷺ)، وهذا لن يتسنى لهم، لذلك فقد حاولوا بشتى الطرق من خلال شبهاتهم النفسية والاجتماعية والعقلية دون جدوى ولم يحصلوا من خلالها سوى على خيبة الأمل.

فقد زعم (شبرنجر)[2] و(جوستاف فايل)[3] وغيرهما بأن ما كان يأتي محمداً (ﷺ)، من شدة وتفرق، وتشنجات عصيبة، لم يكن سوى الإصابة بداء الصرع، فإذا استيقظ، قال أنه أوحي إليه، وتلا على أتباعه ما يزعم بأنه وحي وهو ليس وحياً[4].

وسنترك الرد على هذه الفريه الظالمة "لديورانت" الذي بدا عليه في أول الأمر الذهاب إلى ما ذهب إليه (شبرنجر) و(جوستاف فايل) غير أن الأول سرعان ما تدارك الأمر، وقال بأن المصروع لا يمكن أن يأتيه الوحي. وقد يكون ارتجافه ناشئاً من نوبات صرع فقد يصحبه في بعض الأحيان صوت وصفه بأنه يشبه صلصلة الجرس، وتلك حال كثيراً ما تحدث مع هذه النوبات، ولكننا لا نسمع أنه نعس في

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص25.

(2) شبرنجر هو مستشرق نمساوي ولد عام 1813م اشتغل في مدرسة دلهي ومطبعة كالاكونا في الهند توفي سنة 1842م. "ينظر: موقع مقالات الإسلام".

(3) هو جوستاف فايل مستشرق ألماني يهودي تعلم العربية في باريس والجزائر ومصر حيث تتلمذ على يد علي محمد عياد الطنطاوي من مؤلفاته (النبي محمد حياته ومذهبه)."ينظر: موقع ويكبيديا الحرة.

(4) جعفر عبدالسلام، محمد عبدالرحيم محمد، المستشرقون والدراسات العربية الإسلامية، سنة 1427هـ، 2006م، ص12.

خلالها أو حدث ارتخاء في عضلاته كما يحدث عادة في نوبات الصرع، وليس في تاريخ محمد ﷺ ما يدل على انحطاط قوة العقل التي يؤدي إليها الصرع عادة، بل نراه على العكس يزداد ذهنه صفاء ويزداد قدرة على التفكير وثقة بالنفس وقوة في الجسم والروح كلما تقدمت به السن وقصارى القول إنّا لا نجد دليلاً قاطعاً[1]، وهو غير موجود أصلاً في تاريخ حياته على أن ما كان يحدث للنبي كان من قبيل الصرع.

وكما أنه من المعروف علمياً أن المصروع تتعطل لديه حاسة التفكير، ويذكر للناس ألفاظاً غير مألوفةً، وإذا ما استيقظ وسئل عما قاله، لن يذكر من ذلك شيئاً، وبكل سذاجة من هؤلاء المستشرقين يقاس لديهم الوحي الإلهي المقدس بمقياس داء الصرع، ولو كان داء الصرع هو السبب في حدوث الوحي الإلهي، لكان هناك آلاف الكتب التي نزلت على المصابين بالصرع، ولا نريد أن نذهب بعيداً في الرد على مثل هذه الآراء الزائفة.

وأما ما كان يحدث للنبي (ﷺ) من شدة إثناء نزول الوحي عليه، وهذا ما أشار إليه "ديورانت" إذ قال: "وتكرر الوحي بعد ذلك مرات كثيرة، وكثيراً ما كان يحدث أثناء هذه الرؤى أن يسقط على الأرض ويرتجف أو يغشى عليه، ويتصبب العرق من جبينه، وحتى الجمل الذي كان يركبه يتأثر ويضطرب في مشيته وقد قال محمد (ﷺ) فيما بعد إن مشيبه كان من أثر هذه التجارب... ولم يكن المحيطون بالنبي في هذه الأوقات يرون جبريل أو يسمعونه"[2].

لقد كان الرسول (ﷺ) يعاني ثقلاً شديداً من أثر الوحي، غير أن الثقل عليه يختلف وذلك تبعاً لاختلاف الصورة التي ياتيه على هيئتها الملك، وما كان يحدث له

---

(1) جعفر عبدالسلام، محمد عبدالرحيم محمد، المستشرقون والدراسات العربية الإسلامية، سنة 1427هـ، 2006م، ص12.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص25، 26.

من سقوط على الأرض، وارتجاف وغثيان كما وصفه "ديورانت" فقد ذكر النبي (ﷺ) هذه الحالة وهي من أشدها عليه "أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشد علىّ..."[1]. أي أن الصوت المجلجل الذي يسمع له طنين وصدى، والثقل المصاحب لهذا الصوت هو ما عبر عنه الرسول (ﷺ) بالشدة لما فيه من عبء ومعاناة ولا ريب في ذلك فهو يتصل به جبريل من عند ربه.

والحالة الثانية، من أثر معاناة التنزيل ما روي عن عائشة[2] رضي الله عنها أنها قالت: "وقد رأيته ينزل عليه في اليوم الشاتي الشديد البرد فيفصم عنه وأن جبينه ليتفصد عرقاً"[3].

ومن شدة الوحي عليه أن راحلته لتبرك به إلى الأرض فجاءه مرة وفخده على فخذ زيد بن ثابت، فكادت ترض.

إن الشدة والتعب الذي كان يعانيه محمد (ﷺ) عندما كان الملك يقوم بالضغط عليه، مما يؤدي إلى الارتجاف والخوف عند نزول الوحي. هي دليل على عظمة وقيمة الرسالة التي بعث بها محمد (ﷺ)[4]. وثقل كلام الله قد ضرب بها مثلاً: فإذا أُنزل على الجبال وهي مرساة للأرض لخشعت وتصدعت مصداقاً لقوله تعالى ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر، الآية 21].

---

(1) أخرجه البخاري، باب بدء الوحي، ص6 وكذلك أخرجه مسلم في الفضائل، باب طيب عرق النبي (ﷺ) في البرد وحين يأتيه الوحي رقم [2333].

(2) هي عائشة بنت أبي بكر أم المؤمنين زوجة رسول الله ﷺ وأكثر نساءه رواية لأحاديثه عقد عليها الرسول ﷺ سنة اثنتين للهجرة وهي بنت وتزوجها بكراً. "ينظر: الموسوعة العربية العالمية"، مصدر سابق.

(3) هذا جزء من حديث أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الوحي، فصل ذكر وصف نزول الوحي على الرسول (ﷺ)، ص226، رقم (38) وأيضاً أخرجه الإمام مالك في الموطاء ص1/202 (203) في القرآن باب ما جاء في القرآن، ومن طريق مالك أخرجه أحمد 6/257، والبخاري (2) في بدء الوحي.

(4) علي محمد محمد الصلابي، السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، ط السابعة، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، سنة 1429هـ-2008م، ص76.

فما بالك به وهو ينزل على بشر، وربما كل هذا الثقل لكلام الله، لا يمكن لبشر أن يعاني ثقله، إلا إذا أودع فيه الله من القدرة ما يمكنه من ذلك، ومن جهة أخرى فغاية هذه الشدة من أجل ألا تكون النبوة إدعاءً سهلاً يصطنعها من يشاء ويدعي بأنه نبي، ولكننا لا نعرف من أين جاء "ديورانت" بفكرة "مشيب الرسول (ﷺ) وعلاقتها بتجارب الوحي" وهنا نلاحظ أنه قد مزج بين ثقل الوحي على الرسول (ﷺ)، وبين ثقل معاني القرآن وأثرها على الرسول (ﷺ). ولم نجد في السيرة ما يؤكد أن مشيبه كان من أثر هذه التجارب، بقدر ما كان أثر مشيبه من معاني بعض السور وما تتضمنه من أخبار يرتعد لها كل ذي عقل لبيب. فعن ابن عباس[1] رضي الله عنهما قال: أبوبكر[2] رضي الله عنه يا رسول الله قد شبت، فقال (ﷺ) "شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت"[3]، وليس لثقل الوحي عليه كما أن القارئ لهذه السور يجد فيها "ما يكشف سلطان الله وبطشه مما تذهل منه النفوس، وتضطرب له القلوب وتشيب منه الرؤوس"[4].

---

(1) هو ابن عباس عبدالله بن عبدالله القرشي الهاشمي أبو العباس لازم رسول الله ﷺ وروي عنه الأحاديث الصحيحة وشهد مع علي الجمل وصفين لقب بترجمان القرآن وحبر الأمة والبحر توفي سنة 86هـ، "ينظر: الأعلام للزركلي"، مصدر سابق.

(2) هو أبوبكر الصديق واسمه عبدالله بن أبي قحافة التميمي القرشي أول الخلفاء الراشدون وأحد أوائل الصحابة الذين أسلموا مبكراً. "ينظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، مصدر سابق.

(3) أخرجه الحاكم (ج/2/رقم 344. و. 476) والبزار (170/1/ والبحر الزجار من طريق عكرمة، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وأخرجه على أبويعلي، وذكره عكرمة بحجة أنه لم يدرك أبا بكر وبدون ذكر ابن عباس، وللحديث شواهد كثيرة في (فتح القدير للشوكاني) ص1219. إلى ص1226، ويقول البغوي أنه حديث حسن صحيح.

(4) محمد محمود حجازي، التفسير الواضح، ج/2، الطبعة السادسة، الناشر مطبعة الاستقلال الكبرى، 1389هـ-1969م، ص97.

وقد ورد في ذات السياق قوله تعالى ﴿ يَوْماً يَجْعَلُ الوِلْدَانَ شِيباً﴾ "فإنما شابوا من شدة الفزع"[1]. فكل الفزع والخوف وتصور أهوال يوم القيامة، كان له أثر كبير في جوارح الرسول (ﷺ)، وهو ما يمكن أن يكون قد أدى به إلى الشيب.

وربما لا هذا ولا ذاك. فعندما يبلغ المرء قدراً من العمر قد يظهر عليه بعض من الشيب وهذا أمر مألوف. فعن ابن عمر[2] كان شيب رسول الله (ﷺ) نحو عشرين شعرة" إذن إمّا أن يكون قد شيبته السور التي قال عنها (ﷺ) في الحديث الذي ذكرناه سابقاً وهو الأرجح، وإما أن يكون قد بلغ سناً يصاحب فيها المشيب بعض من الناس، أنبياء وغير أنبياء، وكلا الأمرين بعيد كل البعد عن مزاعم "ديورانت" من أن ذلك كان لشدة ثقل تجارب الوحي.

سرّية الدعوة:

كانت في البدء دعوة الرسول سرية بدأت من بيت محمد (ﷺ) ويأتي "ديورانت" بذكر أول الناس إسلاماً، إذ يقول: "أول من آمن برسالته زوجته المسنة السيدة خديجة، وآمن بها من بعدها علي ابن عمه، ثم خادمه زيد[3] وكان قد اشتراه بالمال ثم أعتقه من فوره، ثم قريبه أبي بكر وهو رجل من ذوي المكانة العالية في قريش، واعتنق الدين الجديد بتأثير من أبي بكر خمسة من زعماء مكة، كونوا معه صحابة محمد الستة"[4] رضى الله عنهم جميعاً.

---

(1) تفسير القرطبي، دراسة وتحقيق، محمد طلحة، بلال منيار، ج/9، ط الأولى، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، سنة 1418هـ، ص1.

(2) هو ابن عمر عبدالله بن عمر بن الخطاب ويكنى بأبي عبدالرحمن أمه زينب بنت مظعون أحد الرواة للحديث. "ينظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير"، مصدر سابق.

(3) هو زيد بن الحارثة بن شراحيل بن كعب بن عبدالعزى بن امرئ القيس بن عامر النعمان وهو حب رسول الله ﷺ أصابه سبا في الجاهلية وروي معمر عن الزهري قال ما علمنا أحد أسلم قبل زيد بن الحارثة توفي في معركة موته سنة 80هـ. "ينظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير"، المصدر نفسه.

(4) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص27.

وإذا ما أخذنا بهذه النخبة الأولى من المسلمين سنجد أن إسلام كلاً منهم، قد جاء في وقت والرسول (ﷺ) في أمس الحاجة إليه، فخديجة بدورها كانت تخفف عنه شدة آلام الوحي فتزمله، وكان لا يسمع منها إلا ما يحب، فزادته تثبيتاً وتأكيداً على صدق الرسالة التي جاء بها من عند الله. وكان لإسلام علي صرخة في وجه قريش أيضاً، فعندما سخرت قريش من دعوة محمد (ﷺ) قال عليّ "أنا أناصرك يا رسول الله"[1].

أمَّا إسلام زيد بن الحارثة، الذي كان حبه شديد لمحمد (ﷺ)، ومن شدة حبه له رفض العودة مع أبيه عندما بلغ ذلك أهله فجاءوا في طلب فديته[2]، فقد اشتراه الرسول (ﷺ) بالمال كما أشار إلى ذلك "ديورانت" ولكنه تبناه، ثم اعتقه بعد الإسلام[3].

فإيمان هؤلاء الثلاثة كان هدية مباركة بالنسبة للرسول (ﷺ) مثلما كان هو هدية إلى الناس [4].

وقد اشتد ظهر محمد (ﷺ) بإسلام صديقه أبي بكر الصديق، وهو من بين أشراف الناس وأكثرهم مالاً ومعرفة بالأنساب فكان أثره لا يخفى على أحد فأغنياء قريش وفقراؤهم يحبون أبا بكر ويقدمون له جزيل الإحترام لحسن مجالسته وعلمه، وتجارته وخلقه[5]، وهو الرابع من بين الذين أسلموا، والأكثر أهمية من حيث تأثيره الناجح في دعوة الناس على اختلاف طبقاتهم، فهو يمتلك لهجة الداعي ووداعة الحكيم، ومحبة الناس[6]، وقد ضم إلى صفه خمسة

---

(1) اتيين دينييه، سليمان بن إبراهيم، محمد رسول الله، مصدر سابق، ص113.

(2) المصدر نفسه، ص116.

(3) عزيز السيد جاسم، محمد الحقيقة العظمى، مصدر سابق، ص75.

(4) عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، مرجع سابق، ص63.

(5) أتيين دنييه، سليمان بن إبراهيم، محمد رسول الله، مصدر سابق، ص117.

(6) جورج بوش، محمد (ﷺ) مؤسس الدين الإسلامي ومؤسس إمبراطورية المسلمين، مصدر سابق، ص166.

من زعماء مكة إلى الإسلام هم عثمان بن عفان[1]، والزبير بن العوام[2]، وعبدالرحمن بن عوف[3]، وسعد بن أبي وقاص[4]، وطلحة بن عبيد الله[5]، وهؤلاء هم من خصهم "ديورانت" بأن السنن قد أخذت عنهم، ونحن لاننكر دورهم في الإسلام، وبخاصة أنهم كانوا في مقدمة من أسلم بعد الأربعة الذين سبقوهم، ولكن هذا الدور لا يخصهم وحدهم، فقد كان إلى جانبهم عدد كبير كان قد أسلم بعدهم، وهم حوالي نيف وأربعون رجلاً من بينهم بعض النساء[6].

- الجهر بالدعوة:

ظلت الدعوة حوالي ثلاثة سنين محصورة بين عدد من الناس، كانوا يتحركون بسرية تامة خوفاً من قريش، ولكن وقت النشاط للدعوة قد حان، ولم يعد هناك حاجة لسرية الدعوة، فأمر الله رسوله ﷺ بتبليغ الناس وأولهم عشيرته، فقال تعالى ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر، الآية 94].

وبدأ محمد (ﷺ) بالجهر بالدعوة وبأنه نبي الله المبعوث لهداية العرب إلى حياة الأخلاق والدين الواحد، ولكن صعاباً كثيرة اعترضت طريقه[7]، وهو ليس للعرب

---

(1) هو عثمان بن عفان بن العاص بن أمية من قريش من أول الناس إسلاماً وسمي بذي النورين لزواجه بابنتي رسول الله ﷺ وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، من أظهر أعماله في الإسلام جمع القرآن في مصحف واحد بعد وفاة الخليفة عمر توفي سنة 35هـ. ينظر: الأعلام للزركلي"، مصدر سابق.

(2) هو الزبير بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب من السابقين إلى الإسلام وأحد العشرة المبشرين بالجنة وأصحاب الشورى. ينظر: الأعلام للزركلي"، مصدر سابق.

(3) هو أبو محمد عبدالرحمن بن عوف بن عبدالحارث الزهري القرشي صحابي من السابقين للإسلام وأحد العشرة المبشرين بالجنة شهد المشاهد كلها مع رسول الله توفي بالمدينة سنة 32هـ. ينظر: الأعلام للزركلي"، مصدر سابق.

(4) هو سعد بن وقاص بن مالك بن أهيب أحد العشرة المبشرين بالجنة روي عن النبي ﷺ كثيراً وروت عنه عائشة وابن عباس وابن عمر. ينظر: الأعلام للزركلي"، مصدر سابق.

(5) هو طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمر بن كعب القرشي ويكنى بأبي محمد ويعرف بطلحة الخير وقى الرسول ﷺ في أحد وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة توفي يوم موقعة الجمل في خلافة علي بن أبي طالب. ينظر: الأعلام للزركلي"، مصدر سابق.

(6) عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، مرجع سابق، ص64.

(7) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص27.

فقط كما يذهب إليه ديورانت وإنما هو للناس كافة، ولقد كان هذا القلق فما العمل أمام هذه التكاليف الجديدة التي تتطلب المواجهة، والمجابهة الصريحة مع عالم وثني وجائر وكبير، فمنذ القدم نجد أن كل صاحب فكرة جديدة تمس حياة الناس المعتادة، يتعرض لأشد أنواع الاضطهاد، والإيذاء، فكيف الأمر ومحمد (ﷺ) صاحب رسالة إلهية لا مجال للتنصل منها[1]، وهي الرسالة التي تهدف إلى تغيير واقع بأكمله؟.

من الواضح بأن قريشاً لم تتقبل هذا التغيير، يقول "ديورانت" "فالأفكار الجدية لا يقبلها الناس إلا إذا كانوا يرجون من ورائها نفعاً مادياً عاجلاً وأن محمداً (ﷺ) كان يعيش في مجتمع تجاري متشكك يحصل على جزء من إيراده من الحجاج الذين يفدون على الكعبة لعبادة آلهتها الكثيرة"[2]، وعندما عرض محمد (ﷺ) دعوته على عشيرته والأقربين وجمعهم لأول مرة وقف ضد ذلك أبولهب[3] وفي المرّة الثانية عندما أخبرهم بأنه نبي الله ونذيره قال: له تباً لك ألهذا جمعتنا.

فمحمد (ﷺ) لم يأتهم بمعبود مادي يزيد من أرباحهم أضعافاً مضاعفة، وهذا من أولى أسباب معارضتهم، فكانت تجارة الأصنام، ووفد الحجاج، من أكبر مصادر الربح و"أبولهب" كان على رأس أولئك التجار، ومن أشد المعارضين لدعوة محمد ﷺ. وبطلان عبادة الأصنام يعني لهم الكساد الإقتصادي للتجارة، ومن جهة أخرى هذه الأصنام كانت هي عقيدتهم الأولى، وموروثهم الأول والأخير ورثوها عن آبائهم وأجدادهم، ولن يحيدوا عنها بسهولة[4]، قال تعالى ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾

---

(1) عزيز السيد جاسم، محمد الحقيقة العظمى، مصدر سابق، ص74.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص27.

(3) هو عبدالعز بن عبدالمطلب المعروف بكنية أبولهب عم الرسول (ﷺ) وكنيته أبوعتبة كان من أشد أعداء الرسول (ﷺ) والإسلام، توفي سنة 624م. ينظر موقع وكيبيديا الحرة.

(4) أحمد معمور العسيري، موجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم عليه السلام (تاريخ ما قبل الإسلام إلى عصرنا الحاضر، ط الأولى، سنة 1417هـ 1996م، ص60.

[المائدة، الآية 104]. كما أن قريشاً تخشى أن تفقدها الرسالة الجديدة (الإسلام) مكانتها البارزة التي وصلت إليها برئاستها للدين الوثني، ورعايتها للتقاليد العربية[1].

إن المساس بمبادئ العرب وخاصة مبادئ قريش ومصالحها الخاصة وحرص العرب على مكانتها بين الشعوب، ليس من السهل التفريط فيها، حتى وإن كان الأمر قد جاء به نبي من عند الله فلا يمكن إتباعه وترك منافعهم المادية الدنيوية، والوسائل التي كانوا يستخدمونها لبلوغهما.

كل ذلك كان يقف عائقاً في طريق دعوة محمد (ﷺ)، ولابد من تخطي هذه المرحلة، ومحاولة إقناع قريش بهذه الدعوة وكان "ديورانت" قد قال: بأن ما ساعد محمداً (ﷺ)، على تخطي بعض الصعاب هو وعده لمن أراد اتباعه بالخلود والنعيم في الآخرة، وأنهم سينجون من عذاب النار[2]، وهو ما أدى إلى اعتناقهم الإسلام، غير أن "ديورانت" قد نسى بأن أغنياء قريش يستمتعون بالنعيم، والخمر، الدنيوي، فلو كان هو المحرك للإيمان لكان أولى الناس استجابة لدعوة محمد (ﷺ)، هم فسقه قريش، وهؤلاء هم أكثر الناس محبة إلى نعيم الدنيا، وحياة النعيم بعد الموت، لأنهم ذاقوا النعيم، وغيرهم لم يتذوق، وسيكون الحرمان من النعيم عليهم أشد من أولئك الذين لم يستمتعوا به في الدنيا[3].

وإلى حد الآن فإن محمداً (ﷺ) لم يتجرأ على آلهة قريش ولم يظهر معه شيءٌ يسيء إلى قريش وكان "يستقبل في داره كل من أراد الاستماع إليه، غنياً كان أو فقيراً أو عبداً رقيقاً، من العرب والمسيحيين واليهود، وكان قد تأثر بحماسته وبلاغه قوله عدد قليل ممن جاءوا إليه وآمنوا به"[4].

---

(1) أحمد إبراهيم الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول (ﷺ)، دار الفكر العربي، ص218.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص27.

(3) عباس محمود العقاد، عبقرية محمد، دار النهضة المصرية، القاهرة، ص23.

(4) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص27.

ونجد أن "ديورانت" قد تشبث بفكرة النعيم والخلود كسبب لإنجاح دعوة محمد (ﷺ)، والتغلب على بعض الصعاب. ولم يدرك بأن ما كان يقوم به محمد (ﷺ)، من استقبال للناس في داره والإستماع إلى كل طبقات الناس دون تمييز، وتواضعه الشديد، هو السبب في إنجاح دعوته، فطابع اللين والرحمة هو ما عرف عنه بالإضافة إلى أن الله قد وهب نبيه محمداً (ﷺ) هيبة نوراً يجذب القلوب مع قوة الحجة المستمدة من الحق الذي أتاه، وفصاحة اللسان، وسحر البيان، وهو من الأسباب التي كان لها تأثير على نجاح الدعوة، ناهيك عن القدرة على تأليف القلوب، وبث الثقة فيها، وكانت لديه قوة إيمانية عجيبة بدعوته، وحماسه فائقة النظير، بالإضافة إلى عبقرية الداعي[1]، يضاف إلى هذا كله الأخلاق الفاضلة وحسن المعاملة واحترام الآخرين بغض النظر عن لونه أو جنسه والعدالة بين الجميع، وهذا كله لم يعهده الناس في حياتهم.

كانت هذه من ضمن الآليات التي تغلب بها محمد (ﷺ) على الصعوبات التي واجهته، بالإضافة إلى الوعد والوعيد بالنعيم والخلود، الذي يزعم "ديورانت" بأنه كان السبب الوحيد في نجاح الدعوة وكثيراً ما كان محمد (ﷺ) يدخل الكعبة، ويعرض دعوته على الحجاج، ويدعوهم لعباده الله الواحد، وقد سخرت قريش من هذا الأمر في البداية ولكنها صبرت عليه، وقالت إن بعقله خبالاً، وعرضت عليه أن ترسله إلى طبيب على نفقتها عسى أن يشفيه[2].

وعندما كان الرسول (ﷺ) يعرض على الحجاج دعوته، كان يغتنم الفرص الواحدة تلو الأخرى طمعاً في مجيب لدعوته فكان عندما يأتي موسم الحج يعرض دعوته على الحجاج الوافدين على الكعبة، وكان منهم عدد كبير يأتي من خارج مكة، ولم تقتصر دعوته على أهل مكة فقط بل شملت الوافدين عليها. فكان ينزل

(1) عباس محمود العقاد، عبقرية محمد، دار النهضة المصرية، القاهرة، مصدر سابق، ص19.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص27.

إلى الأسواق والأماكن العامة للتبليغ، فإن ما يقوم به محمد (ﷺ) من دعوة إلى دينه، جعل قريشاً تسخر منه في بداية الأمر، ولم تلق له بالاً، فظل صابرا على ذلك الأمر ولم يحرك ساكناً، وعندما ازداد محمد (ﷺ) تحمساً واندفاعاً في دعوته، وأصبح أمره يشيع بين الناس عندها أدركت قريش أنه لابد من وضع حدٍ لما يقوم به محمد (ﷺ)، فلجأت إلى أسلوب المفاوضات والإغراء وبعد أن اجتمع رؤوس قريش مع محمد (ﷺ) قالوا له: يا محمد إذا كان مرادك من هذا الأمر هو المال جمعنا لك مالاً من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإذا كنت طالباً للشرف فنحن نسودك علينا، وأن كنت تبغي ملكاً ملكناك علينا. وآخر ما عرضت قريش على محمد (ﷺ) عرضه على طبيب إذا كان به شيء من رؤيا أو مس أو جنون[1]، وهو ما اقتصر عليه "ديورانت" في ذكره عروضهم عليه ولم يشر إلى ما سبقه، وهذا الأخير مستبعداً كل الاستبعاد لأنه لو كان به شيء من الجنون لما جاءت قبله ثلاث عروض مغرية، وهي كل ما يتمنى المرء في حياته، وكذلك يقول "ديورانت" عن محمد (ﷺ) كلما تقدمت به السن يزداد ذهنه صفاءً ويزداد قدرة على التفكير وثقة بالنفس وقوة في الجسم والروح والزعامة حتى بلغ الستين من العمر"[2].

لاشك أن هذه العروض مغرية، وهي كل ما يتمنى المرء في حياته ولو كان الرسول (ﷺ) يطلب السلطة والمال والشرف، والملك كما ادعى بعض المستشرقين لقبل بهذه العروض دون انتظار منه، وترك ما هو بصدده من دعوة، ورفض الرسول (ﷺ) كل تلك العروض، وقال لهم ليس بي شيء مما تقولون، ولا جئتُ به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك وإنما بعثني الله إليكم رسولاً[3].

---

(1) عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، مرجع سابق، ص75.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص26.

(3) عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، مرجع سابق، ص75.

كل هذه المحاولات التي قامت بها قريش لم تجدي نفعاً ولم تقف عائقاً في وجه محمد (ﷺ)، وقد بدأهم بشيء لم يكن في حسبان قريش ولم تدرك خطره إلا عند حدوثه وهو أنه لما أخذ يهاجم دينهم ويقول إن الشعائر التي يقومون بها ليست إلا عبادة لما فيها من الأوثان هبوا للدفاع عن مورد رزقهم، وكادوا يوقعون به أذى جسمياً لولا أن حماه منهم عمه أبو طالب. الذي لم يعتنق الدين الجديد، ولكن إخلاصه لتقاليد العرب القديمة كانت تحتم عليه أن يحمي كل فرد من أفراد قبيلته[1].

عندها اهتزت الأرض من تحت أقدام قريش وكأن ناراً اندلعت فيهم، وأدركوا الخطر الذي يهدد مصير آلهتهم. لذلك أعلنوا من فورهم الحرب على محمد (ﷺ) وأتباعه بشتى الطرق لمنع هذه الحرب على آلهتهم، ومركز سيادتهم ومورد رزقهم.

إنها ثورة دينية تدعو إلى نبذ الوثنية، وعبادة إله واحد لا شريك له، ولكن قريش متمسكة بأصنامها تمسكاً بالهواء الذي تستنشقه، ولم تتقبل الدين الجديد، مما جعل قريشاً هي الأخرى تثور على دين محمد (ﷺ).

يقول هيكل في كتابه (حياة محمد) "بادئهم محمد (ﷺ) بذكر آلهتهم، وكان من قبل لا يذكرها، وعابها، وكان من قبل لا يعيبها. هنالك عظم الأمر على قريش وحز في صدورهم، وبدءوا يفكرون التفكير الجد في أمر هذا الرجل وما هو لاق منهم وما هم لاقون منه"[2].

وفي ظل هذا التناحر بين الوثنيين، والمسلمين كما يقول "ديورانت" كانت قريش تخاف من حدوث فتنة بين الطائفتين. لذلك ظلت تتعامل بحذر مع المسلمين، فلم تستعمل أسلوب القمع، والتعذيب مع الأحرار من أتباع محمد (ﷺ). بينما عبيدهم وخدمهم أنزلت بهم أشد أنواع العذاب، ولأن هؤلاء العبيد يملكونهم ومن ثم سيفعلون

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص28.

(2) محمد حسن هيكل، حياة محمد، مصدر سابق، ص161.

بهم ما يشاءون حتى يردوهم عن الدين الجديد، وهم بذلك لم يخترقوا عرفاً أو تقليداً من تقاليد العرب[1].

ولكن الذي نعرفه بأنه عندما ثارت قريش على دين محمد (ﷺ)، لم تستثنِ أحداً من العذاب سواء كانوا عبيداً أم سادة، لأنها كانت تسعى بكل قوة لإحباط هذه الدعوة، ومع ذلك كانت حريصة على عدم قتل أحد المعذبين لأنها كانت تدرك قوة العصبية القبلية آنذاك، وكانت تخاف من اشتعال الحرب بين القبائل بسبب قتلهم، ولولا ذلك لما أبقت على حياة أحد منهم، وأما من لم يطولهم تعذيب قريش فهم قلة، ولم تكن قادرة على إنزال العذاب بهم، وذلك لأنهم كانوا أقوياء مثل حمزة[2] عم النبي (ﷺ) وغيره.

وليس من اللائق عند قريش أن يتساوى العبد والسيد، وجاء الإسلام ليعصف بهذا المبدأ، لذلك تجد أكثر أتباع محمد (ﷺ) من الضعفاء، وذلك لاضطهاد قريش لهؤلاء، فالإسلام جاء بالعطف عليهم ومساعدتهم، فكان جزائهم العذاب من قريش "فزجوا بعضهم في السجون وعرضوا البعض الآخر ساعات طوالاً إلى وهج الشمس وهم عراة الرؤوس ومنعوا عنهم الماء والطعام"[3].

فبلال الحبشي[4] وضعه مولاه تحت وهج الشمس، ووضع عليه حجراً وتركه ليموت، وكل ذلك العذاب بسبب إسلامه، وكانوا يلبسون عماراً[5] درعاً من الحديد، ويطرح أرضاً تحت لهيب الشمس، وكان جسده يحترق كأنه وضع في مصهره،

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص28.

(2) هو حمزة بن عبدالمطلب بن هاشم يلقب بأسد الرحمن وأسد رسول الله ﷺ وهو عم رسول الله ﷺ وأخوه من الرضاعة ومن السابقين للإسلام استشهد يوم أحد. ينظر: الأعلام للزركلي"، مصدر سابق".

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص28.

(4) هو بلال بن رباح الحبشي أبوعبدالله مؤذن رسول الله ﷺ وخازنه على بيت ماله أعتقه أبوبكر عندما أسلم. ينظر: الأعلام للزركلي"، مصدر سابق.

(5) هو عمار بن ياسر بن عامر بن مالك بن كنانة بن قيس بن الحصين بن الوذيم كان هو وأبواه وياسر من أوائل من أسلموا وكانوا ممن عذبهم أبوجهل. ينظر: "أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير"، مصدر سابق.

وطعن أبوجهل سميه[1] بحربته، وقال لها إن كنت آمنتي بمحمد (ﷺ) إلا لأنك عشقته لجماله[2].

وبينما يشتد تعذيب قريش لأتباع محمد (ﷺ)، وبعض هؤلاء ليس لديهم قبيلة ذات سيادة تحميهم، أو مال حتى يعتقوا أنفسهم من العذاب "كان أبوبكر قد ادخر من تجارته خلال عدة سنين أربعين ألف قطعة من الفضة، فلما رأى ما كان يحدث لأولئك العبيد أنفق خمساً وثلاثين منها في تحرير أكبر عدد من العبيد* المسلمين[3].

وفيما قاله "ديورانت" بأن محمداً (ﷺ) عندما بلغ تعذيب أصحابه الإكراه على الكفر حتى إن الرجل يقولون له من إلهك يقول اللات والعزى، وذلك لشدة العذاب، فيطمئن محمد (ﷺ) أصحابه بأن المرتد المكره لا عقاب له[4]، وتلا عليهم قوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل، الآية106].

كان غضب قريش من ترحيب محمد (ﷺ) بالعبيد أكثر من غضبها من عقيدته الدينية، وظلت تضطهد من دخل الإسلام من الفقراء اضطهاداً بلغ من القسوة مما جعل النبي (ﷺ) يشير إليهم بالهجرة إلى الحبشة حيث رحَّب بهم ملكها وأكرم وفادتهم، وكان ذلك في عام (615م)[5].

ولكن لماذا غضبت قريش من إسلام عبيدها أكثر ممن سواهم؟

---

(1) هي سمية أم عمار بن ياسر بنت خياط كانت من السابقين إلى الإسلام وكانت من يعذب في الله عز وجل أشد العذاب وقد عُذبت برمضاء مكة وقتلها أبوجهل قبل الهجرة. ينظر: الأعلام للزركلي"، مصدر سابق.

(2) أتيين دنييه، سليمان بن إبراهيم، محمد رسول الله، مصدر سابق، ص144.

* الذي ذكر في بعض كتب السيرة أن أبا بكر كان يملك أربعين ألف درهم، وقد أنفق ماله كله في سبيل الله، ولكن دون تخصيص مبلغ محدد في تحرير العبيد كما قال (ديورنت) وحتى أن أبا بكر عندما أنفق ماله كله سألوه ماذا أبقيت لعيالك؟ فقال: ابقيت لهم الله ورسوله. ينظر: محمد شلبي، حياة أبي بكر، ط الثالثة، دار الجيل بيروت، سنة 1309هـ، 1989م، ص12-13.

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص28.

(4) المصدر نفسه، ص28.

(5) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص28.

أولاً: أن هؤلاء الفقراء، والضعفاء من الرجال والنساء كانوا المادة البشرية للدعوة[1]، وعندما ينظر إليهم أمثالهم من العبيد من خارج مكة، والبلدان المجاورة لها، والذين يمارس عليهم ذات الإضطهاد، وقد جاء الإسلام وحرر العبيد وسواهم بغيرهم، فإنهم سيعلنون إسلامهم، وبذلك يكون الخوف من إسلامهم لأنه يهدد مصالح كل الطغاة وعبدة المال.

ثانياً: أن هؤلاء الضعفاء سرعان ما يعتنقون الإسلام لأنهم لا يصعب عليهم أن يكونوا أتباعاً لغيرهم، ومعنى الأتباع هنا ليس أتباع لأوامر ملك ظالم، وإنما أتباع ما أمر به الله ورسوله، وفيما عداها فهم أحرار.

وعندما رأى الرسول (ﷺ) أن العذاب قد وصل إلى حد لا يطاق على أصحابه، ومنهم من قتل تحت وطأة السياط، والتعذيب، أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة عام (615م) فراراً من التعذيب، واستقبالاً من ملك عادل تسر به قلوبهم[2]، فكانت أرض الحبشة لهم أمناً وسلاماً، وكان النجاشي[3] قد استقبلهم استقبالاً جميلاً وأصبحوا لا يخافون أحداً[4].

- إسلام عمر بن الخطاب:

غيّر إسلامه (رضي الله عنه) مسار الدعوة مائة وثمانين درجة كما تغير مساره هو من الشرك إلى الإسلام. يقول "ديورانت": وحدثت بعد عام من ذلك الوقت –يقصد الهجرة

---

(1) عزيز السيد جاسم، محمد الحقيقة العظمى، مصدر سابق، ص98.

(2) أتيين دنييه، سليمان بن إبراهيم، محمد رسول الله، مصدر سابق، ص145.

(3) هو النجاشي الذي كان حاكم الحبشة وملك ملوكها وصفه رسول الله ﷺ بأنه ملك صالح لا يظلم عنده أحد، وكان من التابعين الذين أخفوا إيمانهم وهو الوحيد الذي صلى عليه الرسول ﷺ صلاة الغائب لما علم بوفاته. ينظر: "موقع ويكبيديا".

(4) ابن هشام، السيرة النبوية، مصدر سابق، ص286.

إلى الحبشة– حادثة كان لها من الشأن في تاريخ الإسلام ما كان لإيمان بولس في تاريخ المسيحية. تلك هي اعتناق عمر بن الخطاب للدين الجديد بعد أن كان من ألدّ أعدائه وأشدهم عنفاً في مناهضته وكما عرف عمر أنه كان ذا قوة جسديه، ومكانة عالية، وجرأة أدبية لن تجد لها مثيل[1].

لم يخطر ببال قريش بأن صدى الدعوة سيصل إلى قلب عمر بن الخطاب، الرجل العاشق للخمر واللهو والملذات ألدّ أعداء الإسلام وأشدهم كرهاً لمحمد (ﷺ)[2]، من أجل ذلك فإن "ديورانت" شبه إسلام عمر، بإيمان بولس بالمسيحية إذ يقول عن بولس "وبدأ بمهاجمة المسيحية دفاعاً عن اليهودية، وانتهى بنبذ اليهودية دفاعاً عن المسيح"[3].

أما عمر فقد بدأ بمهاجمة الإسلام دفاعاً عن الوثنية، وانتهى بنبذ الوثنية دفاعاً عن الإسلام، خرج عمر من بيته غاضباً متوشحاً سيفه يريد قتل محمد (ﷺ)، فلم يعد إلى بيته إلا وهو مسلم[4]، لقد كان عمر بالنسبة لأتباع محمد (ﷺ) كابوساً مخيفاً، ولم يكن أحد يجرؤ على مناقشته، والوقوف في وجهه، فمن أولويات ما يحتاج إليه المسلمون في ذلك الوقت هو الشجاعة على إعلان الإسلام، وعرضه على الناس، وكان إسلام عمر باعثاً للثقة في قلوب المؤمنين المضطهدين، وهم في أمس الحاجة إلى هذه الثقة في ذلك الوقت كما كان سبباً في دخول كثير من العرب في الدين الجديد، وانتقل الإسلام من مرحلة السرية في البيوت إلى الجهرية في الشوارع.

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص29.

(2) علاء الدين آل رشد، خلود إسماعيل مصطفى، في ظلال السيرة النبوية، ط الأولى، دار الفكر المعاصر، دمشق، سنة 1422هـ–2001م، ص59.

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص29.

(4) المصدر نفسه، ص29.

- المقاطعة:

في هذه الأثناء وخاصة بعد إسلام عمر عقد حماة الكعبة اجتماعاً ينظرون فيه أمر محمد (ﷺ) وأتباعه، فأجمعوا على مقاطعتهم وكتبوا شروط هذه المقاطعة على صحيفة، غير أن بعض من بني هاشم وبني أمية لم يَرُقْ لهم أمر هذه الصحيفة وما جاء فيها، وأن لهم عادات تملي عليهم الدفاع عن محمد (ﷺ) وأتباعه مهما بلغ الأمر، وهنا قرر محمد (ﷺ) ومن والاه من بني هاشم وبني أمية أن ينعزل هو وأتباعه إلى شعب منعزل بمكة، حتى يتسنى لأبي طالب أن يدفع أذى قريش (615)م وظلت هذه الفرقة منعزلة في مكانها لمدة سنتين كاملتين، ولم يحتمل بعض رجال قريش وبني هاشم ما أنزل بهذه الفرقة من اضطهاد كل هذه الفترة، فأعلنوا نيتهم في عودة محمد (ﷺ) وأتباعه إلى بيوتهم، وتعهدوا ألا يمسوهم بسوء[1].

فعلاً لم يلق هذا القرار قبولاً، وخاصة من بني عبدالمطلب وبني هاشم، فقد حاول أصحاب هذه الدعوة نفي هؤلاء المجموعة في شعب جبل منعزل، وكانت الوثيقة تتضمن من قرارات المقاطعة التي بلغت من القسوة حداً لا يطاق. فقد نصت على منع الطعام، والحرمان والعزل الاجتماعي، والحصار، وكذلك تحريم التبادل التجاري، وكل ذلك لعدة أغراض الأول: تشديد الخناق على محمد (ﷺ) لعله يرجع عن أمر دعوته رأفة بأهله، والأمر الثاني: من الممكن حدوث اضطرابات وردود فعل بسبب إصرار محمد (ﷺ) على دعوته مما يجعل عشيرته تجبره بسبب هذه المقاطعة على ترك دعوته، والأمر الثالث: محاصرة محمد (ﷺ) في هذا المكان ومنعه من نشر دعوته.

من هنا كانت الجماعة المعارضة لأمر الصحيفة منذ البداية ينظرون لمحمد (ﷺ) وأتباعه، وقد ملأ نفوسهم الغضب من أمر هذه الصحيفة وما آلت إليه من عزل أهلهم وتجويعهم، حتى ثار زهير بن أبي أمية بن المغيرة، وصرح بعدم رضاه

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص29.

بها وهبت معه هذه الجماعة المعارضة لشقها، وكان قد عارضهم في أمرهم أبوجهل، ولكنهم لم يصغوا إليه، وذهبوا من فورهم لشقها، وعندما أقدم (المُطعم بن عديّ) إلى الصحيفة لشقها وجد أن الأرضة قد أكلتها ولم تبق منها سوى (باسمك اللهم) [1].

إن المتتبع لتاريخ محمد (ﷺ) يجد أنه قد دفع الغالي والرخيص من أجل هذه الرسالة، وقد عرضت عليه حياة المتاع والسلطة والهناء من المتاعب أكثر من مرة في سبيل نبذ دعوته، فاختار حياة العذاب والاضطهاد، ولكنها حياة مقرونة بنشر رسالته[2]، وهذا يوحي إليك بأن محمداً (ﷺ) مؤمن بقيمة رسالته وصدقها، ولو كان يلهث وراء الدنيا كما يزعم بعض المتعصبين لاختار العرض الأول، وترك العرض الثاني الذي جرّ عليه المتاعب، لأنه في هذه الحالة يتحقق له ما يسعى إليه في نظر أولئك المتعصبين، ولكنه خالف شبهاتهم المزعومة وعض على رسالته بالنواجد، حتى يؤكد بأنه لم يجعل من الدين ذريعة لأهدافه.

وما لبثت هذه القلة المسلمة تبتهج بفك حصار قريش عليها حتى تعقبتها عائقين عوائق كانت ذات ثقل كبير على الرسول (ﷺ) ففي عام (619) توفيت خديجة، وهي أوفى الناس له وأكثرهم تأييداً لدعوته، ومن بعدها توفي أبوطالب الذي كان ينصره ويدافع عنه، وعندها شعر محمد(ﷺ) بالخطر عليه وعلى أصحابه في مكة وكان متألماً لبطء انتشار الدعوة في مكة فهاجر إلى الطائف[3].

ويمكن أن تعد هذه المرحلة من أشد المراحل التي مر بها النبي فالمقاطعة وأن نقضت صحيفتها إلا أن نيران قريش تزيد مرة بعد أخرى في الاشتغال وتنتظر الوقت المناسب للكيد لمحمد (ﷺ)، وقد صاحب هذا الكيد بطءٌ في انتشار الدعوة التي كاد قلب النبي يحترق لعدم سرعة انتشارها، وفي هذه الأثناء تفارق خديجة

---

(1) عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، مرجع سابق، ص98.

(2) حسن حسني معدي، الرسول (ﷺ) في عيون غربية منصفة، مصدر سابق، ص133.

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص29.

صدره الحنون، ويفارقه عمه الحامي الأول عنه من الأعداء، غير أن محمداً (ﷺ) استطاع أن يخرج بنفسه وأصحابه من هذه المآسي، وحينما أدرك أن أهل مكة لن يتركوه وشأنه رأى أن يذهب إلى الطائف، بغية تبليغهم رسالته والحصول على مسلمين جدد يبتهج بهم قلبه.

- الهجرة إلى الطائف (620):

الطائف بلدة طريفه بعيدة عن مكة بنحو ستين ميلاً إلى جهة الشرق، غير أن الطائف لم تقبل دعوة محمد (ﷺ)، فبعد أن أخذت منه المنية عمه أبو طالب ازدادت الإساءات من قريش لمحمد (ﷺ) حتى ضاق بهم ذرعاً يقول (محمد هيكل) "فخرج إلى الطائف وحيداً منفرداً لا يعلم بأمره أحد، يلتمس من ثقيف النصرة والمنعة بهم من قومه، ويرجو إسلامهم، ولكنه رجع منهم بشر جواب... فأغروا به سفهاءهم يسبونه، ويصيحون به"[1].

وذلك لأن زعماءها ليس من مصلحتهم أني يقطعوا علاقتهم بأشراف مكة التجار، ولأن العامة فزعوا من الدين الجديد فأخذوا يهزءون بمحمد (ﷺ) في الشوارع فقذفوه بالحجارة، حتى تورمت قدماه وسال الدم منها، وعندها قرر العودة إلى مكة[2].

وقد يتساءل بعضهم لماذا خرج محمد (ﷺ) إلى الطائف ولم يذهب إلى الحبشة، مع أنه كان واثقاً باستقبال طيب على غرار الهجرة الأولى إليها، وربما لن يتعرض لكل هذا الأذى الذي لقاه من أهل الطائف؟

نقول لعله فكر ملياً قبل الخروج إلى الطائف وقد استقر أمره على الخروج إليها، وأغلب الظن أنه رأى في أهل الطائف المنعة لأن فيها ثقيفاً، وفيها بعض أخواله، وقد بدا له أنهم الأقرب لحمايته، ومن جهة أخرى كانت الطائف بلدة زراعية،

(1) محمد حسن هيكل، حياة محمد، مصدر سابق، ص200.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص29.

كثيرة الخيرات، ولو استولت عليها الدعوة الإسلامية، لتحولت إلى طاقة في نشر الدعوة، وبذلك تكون قوة تقابل اضطهاد قريش وقوتها، وكذلك فإن موقعها الجبلي يكون ملاذاً آمناً يُحتمي به من الأعداء[1].

إن بعض القراء للسيرة النبوية سيقولون ما الذي حمل محمد (ﷺ) على تحمل كل هذا الأذى والتعذيب وكان بإمكانه الخلاص متى أراد وسيحصل على كل ما يسعى إليه من ملك ومال، وشرف، وستجد أن أذى قريش له طالما قابلته مفاوضات تعرض عليه كل ما يُريد في سبيل ترك دعوته، ومن ثم فإن الرسالة المحمدية لا يمكن الطعن فيها، والزعم بأنها كانت مسيسة لمساعي سلطة ومال، ولولا طغيان المال والسلطة لكان أجدر أن يستجيب لدعوة محمد (ﷺ) أقاربه مثل أبي لهب، غير أن طغيان المال والسلطة الذي رفضه محمد (ﷺ) مقابل تخليه عن دعوته هو الذي منع هؤلاء من أتباع محمد (ﷺ).

وبعد خروج محمد (ﷺ) إلى الطائف، يذكر لنا "ديورانت" زواجه من سودة[2]، وما تم له من خطبة عائشة بنت أبي بكر قد ذكر بأن عائشة كانت فتاة حسنة أو حسناء في السابعة من العمر[3]. وسأذكر بالتفصيل مقاصد الرسول (ﷺ) من هذه الزيجات، وأُفند ما ذهب إليه "ديورانت" وغيره من محاولة المساس بمقاصد الرسول (ﷺ) في ذلك وغيره.

وبعد الذي لاقاه الرسول (ﷺ) على أثر وفاة خديجة، وعمه، وما فعلته به قبيلة ثقيف ازداد حزنه، وقد رأى ذلك الصحابة ونساؤهم فأخذوا ينظرون لعلهم

---

(1) محمد رواس قلعه جي، قراءة سياسية للسيرة النبوية، ط الأولى، دار النفائس سنة 1416هـ-1996م، ص71-72.

(2) هي سودة بنت زمعة بنت قيس بنت عبد شمس إحدى زوجات النبي ﷺ تزوجها بعد وفاة خديجة توفيت بالمدينة. ينظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، مصدر سابق.

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص29، 30.

يجدون شيئاً ينسيه ما هو فيه، وفي هذه الأثناء ما كان من خولة بنت الحكيم[1] التي عرضت عليه الزواج من سودة بنت زمعة، التي فارقها زوجها، والتي كانت حالتها مشابهة لحالة الرسول (ﷺ) غير أن الرسول (ﷺ) لم يرق له أمر الزواج بعد خديجة في بداية الأمر، ولكنه رأى في زواجه هذا رعاية أبنائه من خديجة التي توفيت عنهم وقد ذكرت لنا "بنت الشاطبي" مقاصد هذه الزيجة فقالت عن سودة "أرملة مسنة غير ذات جمال، ثقيلة الجسم، كانت تحس أن حظها من قلب الرسول (ﷺ) هو الرحمة وليس الحب"[2]، وكل ما كان يراد من هذا الزواج بالنسبة لمحمد (ﷺ) هو رعاية الأبناء، ومن جانب آخر إخراج سودة من حالة البؤس والكآبة بعدما فارقها زوجها، كل ما ذكر عنها في هذا الزواج أنها لم تقصر يوماً في حق رسول الله (ﷺ) [3].

أما زواجه من عائشة ليس فيه ما يدعو إلى العجب فقد عرف عن العرب مثل هذا الزواج "فقد تزوج عبد المطلب الشيخ من هالة بنت عم آمنة في اليوم الذي تزوج فيه عبدالله أصغر أبنائه من ترب هالة آمنة بنت وهب، وسيتزوج عمر بن الخطاب من بنت علي بن أبي طالب، وهو في سن فوق سن أبيها"[4].

ومما يلاحظ هنا أن "ديورانت" حينما ذكر هذا الزواج قال عن عائشة: "كانت فتاة حسناء في السابعة من العمر" وما ذكره سابقاً عن زواجه من خديجة وسوده لم يذكر عنهما أنهما قد تزوجتا قبل ذلك. لقد كانت عائشة الطاهرة مدار حديث عند المستشرقين الذين يرمون بحقدهم على الرسول والإسلام، ولعل ما أشار إليه "ديورانت" قبل قليل يدور في ذات السياق، هذا وقد حاول بعضهم أن يصف النبي بأنه شهواني، وحسبك أن إسقاطهم هذا يحسبه الضمآن ماء. ولو كان الرسول (ﷺ) مشغولاً بالنساء لفعل ذلك أيام شبابه، وحينما أُطلق العنان للرجل أن يتزوج بالعدد

---

(1) هي خولة بنت الحكيم بنت أمية السلمية، ويقال لها أم شريك صحابية مشهورة كانت تخدم النبي ﷺ وهي من خطب له سودة بنت زمعة بنت أبي بكر (ينظر: الموسوعة العربية العالمية، مصدر سابق).

(2) عبدالحليم خفاجي، كواكب حول الرسول (ﷺ) وقضية التعدد، ط الثانية، سنة 1413هـ، 1993م، ص78.

(3) المصدر نفسه، ص79.

(4) أمين محمود مهدي، السنة النبوية في مواجهة التحديات والشبهات المعاصرة، ط الأولى، سنة 1426هـ-2005م، ص101.

الذي أراده وقد وصل التعدد في الزوجات حينها إلى عشرة أو أكثر، وفي تلك الفترة بالتحديد لم يتزوج محمد (ﷺ) سوى خديجة التي تكبره بخمسة عشر عاماً[1]. يقول (مراد هوفمان)[2] "والشائع لدى عامة الناس حب محمد (ﷺ) لصغرى زوجاته، الثاقبة الذكاء، عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما، أما الحقيقة الأقل شيوعاً بينهم، فإيثاره لزوجته الأولى السيدة خديجة رضي الله عنها والتي تكبره بخمسة عشر عاماً"[3].

وكذلك كان مثل هذا الزواج لدى النصارى وقد جاء في الموسوعة الكاثوليكية "أن يوسف النجار حينما أراد الزواج من السيدة مريم العذراء قبل أن تلد المسيح كان عمرها ما بين اثنى عشر إلى أربعة عشر عاماً بينما كان عمره تسعون سنة"[4].

ومن جانب آخر إذا ما أخذنا باعتبارنا تلك الفترة التي تزوج فيها محمد (ﷺ) بعائشة، سنجد أن قريشاً كانت تتعرض فيها لمحمد (ﷺ) بشتى الوسائل وتلقى عليه الشبهات من كل جانب، وقد علمت بهذا الزواج ولو كان الأمر غير مألوف لديهم لما سكتت عن هذا الأمر، وبخاصة أنها كانت بأمس الحاجة إلى شبهات تؤلب من خلالها أتباعه كي يرتدوا عن الإسلام.

- الإسراء والمعراج:-

بعد الذي عاناه الرسول (ﷺ) من أذى قريش له وأحزانه التي لم تفارقه بعد وفاة زوجته، وعمه، أراد الله أن يكرم نبيه بآيه من كبرى الآيات يبلغه الله من خلالها بمواساته له، فأرسل إليه جبريل فأصطحبه إلى بيت المقدس على ظهر البُراق. وهو

---

(1) أيمن محمود مهدي، السنة النبوية في مواجهة التحديات والشبهات المعاصرة، مصدر سابق، ص104.

(2) هو مراد هوفمان كان سفير ألمانيا في عدة دول عربية متحصل على شهادة الدكتوراة في القانون من جامعة هارفرد اعتنق الإسلام سنة 1980 في الجزائر عندما شاهد صمود وصلابة الجزائريين، ولم يعرف من أين يأتيهم ذلك الصمود الخفي حتى قرأ القرآن له العديد من المؤلفات منها طريق فلسفي، ينظر: الإسلام كبديل، مراد هوفمان.

(3) مراد هوفمان، الإسلام كبديل، مصدر سابق، ص169.

(4) أيمن محمود مهدي، السنة النبوية في مواجهة التحديات والشبهات المعاصرة، مصدر سابق، ص100.

ركوب الأنبياء ليرى آيات ربه الكبرى، ما بين السماء والأرض، فكانت له بمثابة رحلة سماوية يسرّ بها قلبه ويزلزل بها كيد أعدائه.

ونحن كمسلمين يجب ألا نستغرب من إنكار بعض مستشرقي الغرب لهذه الحادثة. خاصة بعدما أنكرتها قريش، حتى أن بعض الذين أسلموا ارتدوا عن دينهم بعد حدوث الإسراء والمعراج. لذلك فلا نعجب عندما يقول عنها "ديورانت": ضرب من الخيال "وخيل إليه في ذات ليلة أنه انتقل من نومه إلى بيت المقدس، حيث رأى في انتظاره عند المبكى من أنقاض هيكل البُراق، وهو جواد مجنح فطار إلى السماء، ثم عاد به منها، ثم وجد نفسه بمعجزة أخرى آمناً في فراشه بمكة"[1].

وقال عنها (بوش) [2] مجرد حكاية تافهة تناقلها الرواة إنها مجرد ادعاء باطل أراد به محمد (ﷺ) تحقيق الشهرة لنفسه[3].

إن الخيال الذي يزعمه "ديورانت" لايمكن أن يأتي بوصف دقيق للأحداث. وإذا افترضنا أن إنساناً يتخيل أو يحلم أحلاماً في منامه. فلن يطلعك على تفاصيل الأشياء وستجد هناك ضياعاً لبعض ما رآه، ولكن محمد (ﷺ) وضع كل شيء بحسب ترتيبه منذ خروجه من مكانه، ووصف البُراق بقوله "أتيت بالبراق وهو دابه أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه"[4]، وستجد أن إصرار قريش على تكذيبه قابله وصف لبيت المقدس[5]، وقد أشار في طريقه إلى هناك عن العير التي مر بها، فظلت دابة منها فدلهم عليها، وزادهم أبو بكر يقيناً

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص30.

(2) هو جورج بوش الجد الأكبر للحفيد الذي تولى منصب الرئيس للولايات المتحدة الأمريكية، كان واعظاً بارعاً في الجدال والمناظرة وأستاذاً في اللغة العبرية والآداب الشرقية في جامعة نيويورك له العديد من المؤلفات من أهمها (محمد(ﷺ) مؤسس الدين الإسلامي ومؤسس إمبراطورية المسلمين) وقد وصف هذا الكتاب بأشنع ما كتب عن العرب ونبيهم في الغرب، توفي سنة 1859. ينظر: حاشية الكتاب، مصدر سابق، ص11.

(3) جورج بوش، محمد (ﷺ) مؤسس الدين الإسلامي ومرسي إمبراطورية المسلمين، مصدر سابق، ص237.

(4) أخرجه مسلم، باب الإسراء، رقم [356].

(5) أخرجه البخاري، باب حديث الإسراء، رقم [3799].

بقوله لقريش عند تكذيبهم "والله لئن قاله لقد صدق" والبرهان الأكبر يأتي من الله تعالى ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى﴾ [الإسراء، الآية 1].

يقول محمد عابد الجابري[1] "الذي يفهم من القرآن بأكمله أنه معجزة خاصة بالنبي محمد (ﷺ) فالقرآن يكفي ذاته بذاته في هذا الشأن"[2].

وإذا كان (بوش) اعتبرها قصة تافهة، وكون المعراج بذاته هذا عبارة عن بدعة ابتدعها المدعي المكي. فإننا نقول: له إن المعراج قد أصبح اليوم مع التقدم العلمي شيئاً شبه ملموس، وقد شُبه من قبل العلماء لتقريب الفهم للأذهان بالطائرات النفاذة التي هي أسرع من الضوء، أو كالصواريخ التي تحمل الإنسان إلى القمر ثم ترجع به إلى الأرض[3].

إن المشكلة عند هؤلاء المستشرقين تكمن في كونهم برجماتيين لا يؤمنون إلا بالمادة (التجربة) فضلاً عن تعصبهم المذهبي وحقدهم الأعمى، فلا يمكن أن تلين قلوبهم إلى جادة الصواب مهما بلغت الأدلة والحجج فسوف تفشل في اقتناعهم.

- بيعة العقبة الأولى:-

كان لابد لهذه الرسالة الخالدة، مهما تواطأ عليها أولئك الحاقدون وظنوا أنهم أهبطوا من عزيمة رسولها، وبدا لهم ما بدا فيها، فلن يضيّع الله رسوله، وسيأتي لها بمناصرين جدد، وها هو محمد (ﷺ) يستعيد عافيته الدعوية، ويعرض دعوته على بعض التجار فيستجيبوا له يقول "ول ديورانت" وفي عام (620)م بدأ محمد(ﷺ)

(1) هو محمد عابد الجابري الفيلسوف المغربي له العديد من المؤلفات منها (مدخل إلى فلسفة العلوم) (تكوين العقل العربي) توفي الجابري 2010/5/3م. ينظر: "مدخل إلى القرآن الكريم، محمد عابد الجابري"، مدخل إلى القرآن الكريم في التعريف بالقرآن، ط الثالثة، الناشر مركز دراسات الوحدة العربية، سنة 2010، ص9.

(2) محمد عابد الجابري، المصدر نفسه، ص187.

(3) محمد الطيب النجار، دراسات في السيرة النبوية، (د.ت)، ص89.

يعرض دعوته على التجار الوافدين على مكة، قاصدين الحج إلى الكعبة، ولاقت هذه الدعوة قبولاً من هؤلاء التجار لأسباب منها. أن عقيدة التوحيد، والرسول المبعوث من عند الله ويوم الحساب كانت من صلب عقيدتهم أخذوها من يهود المدينة، ولما عاد هؤلاء الوافدون إلى بلدهم أخذوا يدعون أصدقاءهم إلى هذا الدين الجديد القريب من عقيدتهم، فرحبوا بهذا الدين لتقارب الأفكار، والمعتقدات بين الديانتين[1].

ولم يقارب الصواب "ديورانت" حينما رجح إسلام بعض التجار وهم (الخزرج) إلى الإشتراك في العقيدة (التوحيد) وإنما السبب الرئيسي والذي ذكره أيضاً فكرة الرسول المبعوث. فقد كان اليهود يتوعدون الخزرج بهذا النبي الذي قرب زمانه. وأنهم سيناصرونه عليهم. وذلك لأن اليهود أخذوا هذه العقيدة من كتبهم السماوية[2].

وأما السبب الأكثر أهمية بالنسبة للأوس والخزرج، وهم الأنصار هو معاناتهم الحروب التي دارت بينهم حتى أنهم كانوا لا يلقون أسلحتهم حتى في الليل[3]. وقد أوشكوا أن يتفقوا على (عبدالله بن أبي) أن يتوجوه ملكاً عليهم، أي أنهم كانوا في أمس الحاجة إلى قائد يوحد كلمتهم أو كما قال (رودنسون) [4] "أنهم كانوا يبحثون عن سلطة عليا تحفظ الأمن، أي إلى دولة في نهاية المطاف"[5].

- بيعة العقبة الثانية:-

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص30.

(2) عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، مرجع سابق، ص115.

(3) حاتم إسماعيل، محاضرات في التاريخ الإسلامي، ط الأولى، دار المحجة البيضاء، بيروت، سنة 1426هـ-2007م، ص66.

(4) هو ماكسيم رودنسون أحد أساتذة الدراسات العليا بباريس له العديد من الدراسات منها (دانتي والإسلام) (حياة محمد والمشكلة الاجتماعية المتعلقة بعيوب الإسلام). ينظر: "المكتبة الالكترونية"، مصدر سابق.

(5) نبيل فازيو، محمد (ﷺ) الرسول المتخيل قراءة نقدية في صورة النبي في الاستشراق، (مونتجمروات ومكسيم رودنسن)، ط الأولى، دار منتدى المعارف، سنة 2011، ص151.

كانت هذه البيعة امتداداً للبيعة الأولى فالأنصار الذين وفدوا على النبي وقبلوا دعوته يعودون له بعد مرور عام أو عامين بحلفاء ومناصرين يصل عددهم إلى سبعين ونيف.

كانت هذه البيعة في موسم الحج سنة ثلاثة عشر للبعثة عام (622)م أقبل فيها على محمد (ﷺ) في مكة ثلاثة وسبعون رجلاً وكانوا قد التقوا به سراً، وكانوا من أهل المدينة، وعرضوا عليه الهجرة إلى بلادهم واتخاذها مواطناً له. فسألهم هل يدافعون عنه كما يدافعون عن أبنائهم، فاقسموا له أن يفعلوا، ولكنهم سألوه عن جزائهم إذا قتلوا دفاعاً عنه، فقال لهم إن جزاءهم هو الجنة[1].

لقد كانت الأجواء التي تمت فيها هذه البيعة تتسم بالهدوء والخفاء خشية إفسادها من قريش، وكان عدد المقبلين لمبايعة الرسول (ﷺ) ثلاثة وسبعون رجلاً، وكان ميعاد ومكان الاتفاق مع الرسول (ﷺ) أوسط أيام التشريق في الشعب الذي عند العقبة، وكانت هذه المجموعة المبايعة للرسول تخفي نفسها بين قومها في الرحال، وما انقضى ثلث الليل، حتى خرجت تلك المجموعة لميعادها المرتقب، تتسلل في صمت تام حتى أدركت مكان البيعة[2]، وسط هذه الأجواء تمت البيعة بدون علم قريش بها، ولولا الحرص الشديد من قبل الأنصار على حدوثها وكتمانها لما تسنى لها أن تكتمل، وقد نصت المعاهدة على ما يلي:

1- أن يبايعوه على أن يمنعوه وأهله مما يمنعون منه أنفسهم وأهلهم وأولادهم وتوفير الحماية الشديدة له ولأصحابه في كل الأحوال.

2- أن ينصروه ويؤيدوه على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر.

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص30.

(2) عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، مرجع سابق، ص117.

3- أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، وقول الحق في الله ولا يخشون فيها لومة لائم، ويبشرهم بأن العجم ستدين لهم، ويكونوا ملوكاً[1].

فهذا المؤتمر السري الذي عقد ليلاً كان مبنياً على الحماية من الأعداء للطرفين فالأوس والخزرج كانوا مهددين من قبل اليهود، وقد جاءت البيعة ووحدتهم تحت لواء واحد، ومحمد (ﷺ) وأصحابه كانوا مهددين من قبل قريش فالعصبية القريشية ضد النبي لابد من وجود عصبية تقابلها لنصرته عليهم، وبذلك تكون بيعة العقبة قد مثلت لحظة انبثاق الأمل الحقيقي في الدفع بالدعوة المحمدية بعيداً من جديد[2]، ولاحظ معي أن البيعة الأولى اقتصرت على مبادئ سامية تعبر عن مدى العلاقة التي تربط الإنسان بخالقه وعبادته فكانت عبارة عن أخلاق ومعاملات من ترك: للزنا، وعبادة الأوثان، وأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، والتخلص من كل ما له صلة بالموروث التقليدي، فكل ما تضمنته هذه البيعة عقيدة وأخلاق في حين أن البيعة الثانية نصت على عهود سياسية من حماية ونصرة في الحروب، وطاعة لتعليمات الرسول[3]، وما يمكن الوصول إليه هو أن البيعة الأولى غيرت معتقدات ومبادئ، وتحولت إلى أفعال في البيعة الثانية لنشر الدعوة الإسلامية ونصرتها.

كانت قريش تظن بعد حصارها لمحمد (ﷺ) والأذى الذي ألحقته به أنها أرهقته، وخُيّل إليها بعد وفاة عمه وزوجته أن جناحيه قد كسرا، وعندما أدركت أن بيعة العقبة أصبحت حلفاً موحداً يرأسه محمد (ﷺ) والذي سيكون دولة إسلامية مستقلة، وكانت قد علمت أن محمداً (ﷺ) يعتزم الهجرة وأصحابه إلى يثرب (المدينة) عندها بدأ العمل لمحاولة إحباط الهجرة وتفريق شملها، وعزمت على وضع خطة تقضي بها على محمد (ﷺ) لأن قيام هذه الدولة الإسلامية يعنى الحرب والمواجهة

---

(1) حاتم إسماعيل، محاضرات في التاريخ الإسلامي، مصدر سابق، ص67.

(2) نبيل فازيو، محمد (ﷺ) الرسول المتخيل، مصدر سابق، ص159.

(3) حاتم إسماعيل، محاضرات في التاريخ الإسلامي، مصدر سابق، ص67-68.

بالنسبة لقريش[1]، وقد تنا"ول ديورانت" هذه المؤامرة ضد محمد (ﷺ) وأتباعه فقال: "وفي ذلك الوقت أصبح أبوسفيان[2] حفيد أمية زعيم قريش في مكة، وكان قد نشأ في جو من الكراهية لبني هاشم، فعاد إلى اضطهاد أتباع محمد (ﷺ) ولعله قد سمع أن محمداً (ﷺ) يعتزم الهجرة من مكة، وخشي أنه إذا استقر له الأمر في المدينة قد يشن الحرب على مكة وعلى آلهة الكعبة"[3].

ويأتي (بوش) بتحليل متعصب لهذه الحادثة غير أنه لم يستطع أن يغير من مجرى أحداثها فيقول: وكان أبوسفيان قد تولى رئاسة مكة بعد أبي طالب، فوجد فيه محمد (ﷺ) عدواً لدوداً له ولدينه، ولعشيرته، وما تولى هذا المنصب (رئاسة مكة) حتى أخذ قراراً ينص على إبادة النبي وهرطقته الجديدة، وقد عقد مؤتمراً بهذا الشأن يقضي بقتل المدعي محمد (ﷺ)، وكان القرار يتضمن خطة ينتخب فيها فرد من كل قبيلة من القبائل المتحالفة، ويحمل كل فرد منهم سيفه، ويضربونه ضربة رجل واحد، وبذلك يكون قد تفرق دمه بين القبائل، فلا يستطيع أنصاره الأخذ بثأره من كل هذه القبائل فينتهي أمره[4].

وانظر معي إلى اختلاف الرأيين السابقين "فديورانت" عالج الإشكالية بشئ من الموضوعية فكان سبب الخلاف في نظره نتيجة للتوتر الحاصل بين القبيلتين بني أمية وبني هاشم، وهذا الصراع له جذور في التاريخ، بالإضافة إلى أن محمداً (ﷺ) كان من بني هاشم فالأول لم يذهب بعيداً عن آراء بعض المنصفين، في حين أن الأخير يصور لنا الرسول كمذنب وعلى الدولة ملاحقته وتنفيذ حكم الموت فيه، وقد جاء ببعض العبارات التي تؤكد ما يرمي إليه مثل هرطقة محمد (ﷺ) والمدعي في

---

(1) عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، مرجع سابق، ص125.

(2) هو أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس كان من أشد أعداء الرسول ﷺ والإسلام، أسلم يوم الفتح وتوفي بالمدينة. ينظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، مصدر سابق.

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص30-31.

(4) جورج بوش، محمد (ﷺ)، مؤسس الدين الإسلامي ومؤسس إمبراطورية المسلمين، مصدر سابق، ص259.

حين أنه لم يذكر شيئاً من التعذيب والإضطهاد الذي لاقاه محمد (ﷺ) وأتباعه على يد القرشيين وكأن محمداً (ﷺ) ليس لديه أي حق في أن يفعل ضدهم أي فعل دفاعي ودعنا نذهب إلى ما قاله (وات) عن قراءة قريش لنبأ الهجرة إذ يقول: كان من الطبيعي أن تقرأ قريشاً نبأ الهجرة قراءة سياسية صرفة ملئها الاستفزاز، وقد أدرك النبي أن هذا الأمر سيؤدي عاجلاً أم آجلاً إلى صدام بين الطائفتين[1]. غير أنه ينفي أن تكون قريش قد عزمت ملاحقة محمد (ﷺ) وأتباعه، ويكاد (رودنسون) يتبنى الموقف ذاته إذ يقول: "إن المهاجرين الذين هاجروا إلى المدينة لم تواجههم صعوبة جمة في الخروج من الحي المكي، مؤكداً على تضخيم كتب السيرة لهذه الحادثة من باب تلميع صورة المهاجرين أمام الرأي العام[2].

وربما لن نذهب بعيداً كي ندفع هذه الفرية الباطلة. لأن المتعارف عليه بين العرب قديماً كانت تنشب الحروب بينهم لأسباب تافهة، كسبق حصان أو قتل ناقة، وكانت تستمر هذه الحروب لسنين، فهل يمكن لقريش أن تغض عينها عن إيواء قبيلتين لرجل شتم ألهتها، وعاب دينها، وسفه أحلامها، كيف يحصل ذلك وقريش حينها تتولى زعامة أديان العرب في مكة وسيادتهم؟[3].

- الهجرة النبوية:-

لم تكن الهجرة يوماً من الأيام وسيلة للراحة أو للهروب من خطر، وإنما هي وسيلة الأنبياء لنشر دعوتهم، وصيانتها من الضياع من المترصدين لها، ولهذا كان الأنبياء السابقون يرتادون فيها الأرض الخصبة الصالحة لنشر الدعوة. ويبذرون حبها في تلك الأرض. فإبراهيم بعدما يئس من دعوة قومه إلى التوحيد تركهم وهاجر إلى

---

(1) نبيل فازيو، محمد (ﷺ) الرسول المتخيل، مصدر سابق، ص159.

(2) المصدر نفسه، ص160.

(3) محمد فريد وجدي، السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، جمعها وراجعها وقدم لها، محمد رجب البيومي، الناشر مكتبة الأسرة، سنة 1999، ص150.

أرض غيرها، وكذلك لوط بعد ما رأى أن النار لم تحرق إبراهيم آمن له وصدقه وخرج معه مهاجراً، وموسى عندما ضايقه فرعون أمره، الله أن يترك أرضه[1].

إذن لم يكن الرسول (ﷺ) أول من هاجر من الرسل بينما كان آخرهم هجرة، والأسلوب الهجري في الدعوة حقق نجاحاً لكل الأنبياء.

ومن هنا لا يأتِ أحد ويتقول بأن الهجرة التي قام بها الرسول (ﷺ) تخرج عن إطار المألوف أو كانت بسبب خوفه من ملاحقة قريش له، ومن خلال تجارب الأنبياء السابقين لهذه التجربة الدعوية التي طالما غيرت مسار دعوتهم وأحدثت فيها نقلة، وعادوا بعدها إلى أوطانهم التي تركوها فلم يصمد أمامهم طاغٍ ولا متجبر، ولم يكن قوم محمد (ﷺ) في بداية الأمر بأحسن من أقوام الأنبياء السابقين، لذلك أذِنَ له الله في الهجرة من مكة فيترك النبي أحب مكان إلى قلبه، ويهاجر ليعود بعدها ويحررها من عبادة الأوثان لتكون مركزاً لعبادة الواحد القهار إلى الأبد.

وبناءً على ما سبق ذكره فإنه لا مناص من إعطاء الأمر من الرسول (ﷺ) إلى أصحابه بالهجرة إلى يثرب والتي ستكون منذ تلك اللحظة مدينة النبي، وسيخرج المسلمون من مكة في طوائف متفرقة ليلتحقوا بالمدينة التي ستكون بانتظارهم ويتخلف النبي (ﷺ) عمن سبقوه في مكة حتى يتأكد من عدم بقاء أحد من أتباعه أو كما قال (وات) سيبقى هناك حرصاً منه على ألا يرتد أحد من أتباعه عن دينه إذا ما غاب عنهم صاحب الدعوة ودافعها الروحي[2]. خاصة وهم حديثو العهد بهذا الدين.

وكانت قريش حينها تعمل على تحريض رجالها للقبض على محمد (ﷺ) وقد أغرتهم بالمال على أن يأتوا به أو يقتلوه، وقد علم محمد (ﷺ) بنبأ ملاحقته وقتله. فأخذ بيد أبي بكر وفرا إلى غار ثور على بعد فرسخ من مكة، وظل البحث

---

(1) محمد السيد الوكيل، السيرة النبوية دراسة وتحليل، ط الأولى، الناشر الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، سنة 1400هـ، ص173.

(2) نبيل فازيو، محمد (ﷺ) الرسول المتخيل، مصدر سابق، ص160.

المتواصل عليهما ليلاً نهاراً لمدة ثلاثة أيام، ولكن دون جدوى، وعندها جاءهما ابنا أبوبكر بجملين(*) فركباهما أثناء الليل واتجها شمالاً[1].

وحينما أدركت قريش أن محمداً (ﷺ) قد يكون أفلت من قبضتها، وضعت مئة ناقة من الإبل لمن يأتي به، لقد لجأ محمد (ﷺ) وصديقه إلى غار يغص بالهوام والحشرات، وكانت رسل قريش قد وقفت على فتحة الغار، ولو أنها أمعنت النظر قليلاً لرأتهما، إن حماية الغار لهما ليتجاوز حدود المنطق العقلي وأن دخوله فوق مقدور الآدميين[2].

لقد حمي محمد (ﷺ) وصاحبه من قريش بفضل قدرة إلهية لا يدركها إلا من وقف على باب الغار وعاد منه ولم يرَ بداخله أحداً لقد هزمت رسل قريش من قبل عنكبوت وشجرة وحمامة، وكان هؤلاء الثلاثة أكثر رفقاً بصاحب الرسالة من قومه المرسل إليهم[3].

أما (بوش) الذي عُرف بعدائه الظاهر للإسلام والنبي فقد قال: عن هذه الحادثة الجليلة "إن القتلة وصلوا بالفعل إلى فتحة الغار فانخدعوا بعش إقامته حمامة ونسيج عنكبوت عند مدخله، وكان هذا لحسن حظ محمد (ﷺ) وصاحبه إذ استخلص القتلة من هذا أن أحداً لايوجد داخل الغار"[4].

(*) لم يذكر في السيرة أن ابنى أبي بكر قدما الراحلتين، ولكن ما جاء في سيرة ابن هشام أن النبي لم يركب الناقة حتى اشترها من أبي بكر، أنظر تهذيب سيرة ابن هشام، مرجع سابق، ص131.

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص31.

(2) محمد فريد وجدي، السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، مصدر سابق، ص113.

(3) عزيز السيد جاسم، محمد الحقيقة العظمى، مصدر سابق، ص118.

(4) جورج بوش، محمد (ﷺ)، مؤسس الدين الإسلامي ومؤسس إمبراطورية المسلمين، مصدر سابق، ص260.

وبعدما عم الهدوء خرجا وجاءهما الدليل بالراحلتين، واتجهوا بهما نحو الساحل، وكان أهل المدينة عل علم بقدومهما إليهم فكانوا يترقبون كل يوم مجيء الرسول وصاحبه حتى أقبل عليهم فاخذتهم فرحة غامرة[1].

يقول "ديورانت" "وبعد أن ظلا سائرين عدة أيام قطعا فيها نحو مائتي ميل وصلا أخيراً إلى المدينة في 24 سبتمبر من عام 622 وكان قد سبقهم إليها مائتان من المسلمين بدعوى أنهم حجاج عائدون من مكة ووقفوا عند أبواب المدينة ومعهم من أسلم من أهلها ليستقبلوا النبي"[2].

وبعد كل العناء الذي لقاه الرسول (ﷺ) وصاحبه وصلا إلى المدينة، وكان الوصول يوم الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول والرابع والعشرين أيلول سبتمبر (622م) فكان ذلك التاريخ هو المحور للبداية التاريخية للمسلمين. فبعد أن تولى الخليفة عمر الدولة الإسلامية جعل منه بداية للتاريخ الإسلامي[3]، وقد تم اعتبار هذه الحادثة بداية للتاريخ الإسلامي لما لها من تأثير في الدعوة، وما أتيح للنبي من سلطة في المدينة كان بمثابة العمود الفقري للدعوة إذن كان يوم الهجرة نقطة الإنطلاق لنشر الإسلام حتى طرق أبواب مكة أفلا يستحق منا هذا اليوم كل هذا التكريم.

مما سبق نستخلص أن دراسة "ديورانت" للسيرة النبوية هي في ظاهرها دراسة أشبه ما تكون بالدراسة الموضوعية غير أن المتمعن في طيات أقواله يلاحظ أن الأسلوب الذي اعتمد عليه بعيد كل البعد عن الموضوعية ففي بداية هذا الفصل تلاحظ ذكره لمولد الرسول (ﷺ) ومرحلة بداية حياته يوشك أن يكون سرد الرواة المسلمين، ولكن سرعان ما تلاحظ بعض الإضافات الجزئية التي يحاول إلصاقها

---

(1) محمد فريد وجدي، السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، مصدر سابق، ص154.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص31.

(3) نبيل فازيو، محمد (ﷺ) الرسول المتخيل، مصدر سابق، ص161.

مثل الزواج بخديجة لثرائها، وأخذ الدين "الإسلام" عن بعض الكهان أثناء رحلتي الشام، ومن جهة أخرى يحاول أن يُسقط عن الرسول (ﷺ) بعض الصفات مثل صفة النبوءة، وبلورة بعض الأدلة على بعثته في قالب إنساني مجرد من الإلهيات، ويبدوا ذلك جلياً في زعمه بأن هذه الأدلة ما هي إلا مجرد تنبؤات مجموعة من الناس.

ولم يختلف الرأي في المبحث الثاني من هذا الفصل من حيث السرد والترتيب التاريخي لمجريات السيرة انطلاقاً من البعثة، ونزول الوحي الذي جعل منه مجرد إصابة بداء الصرع، وتارة أخرى ينفي أن يكون هذا الصرع هو وراء هذا الوحي مؤكداً على قوة الرسول (ﷺ) الجسدية والعقلية أثناء نزول الوحي ثم انتقل إلى مراحل الدعوة ابتداءً من المرحلة السرية العسيرة مروراً بالصراعات الدينية والقبلية والمادية عند مرحلة الجهر بالدعوة، وإسلام بعض الشخصيات القوية مثل عمر بن الخطاب الذي شبه إسلامه بإسلام "بولس" لما أحدثه من تغيير بعد إسلامه الأمر الذي جعل عدداً كبيراً من قريش يدخلون في دين محمد (ﷺ) مما جعل قريش تقاطع محمداً (ﷺ) وأتباعه لشدة خوفها على معبوداتها ومورد رزقها كما يقول "ديورانت": ولعدم إيمان الأخير بالرسل والوحي الإلهي جعل حادثة الإسراء والمعراج مجرد تخيلات نومية.

وكانت المرحلة الأخيرة في مكة بعد حادثة الإسراء آخر مراحل الدعوة المكية وهي التي كان يعرض فيها الرسول (ﷺ) دعوته على التجار الوافدين على الكعبة، فيرى أن إيمانهم به كان لمجرد التآلف بين العقائد التوحيدية، والبعث مما يجعلهم يقبلون عليه ليبايعوه على مرحلتين في السر فكانوا حماةً له من أعدائه مما جعل منه (ﷺ) يعقد الهجرة إليهم في المدينة هو ومن معه من أتباعه ليبني الدعوة والدولة هناك في آنٍ واحدٍ.

الفصل الثاني

التأثير والتغيير الدعوى الذي أحدثه النبي بعد الهجرة

المبحث الأول: بداية عهد محمد (ﷺ) في المدينة (622) (630)م.

المبحث الثاني: السرايا والغزوات.

تمهيد:

كانت الحياة العربية قبل الإسلام تقوم أساساً على نمطية خاصة، فالقبلية هي التنظيم الاجتماعي والسياسي، فكان انتماء العربي الجاهلي انتماء قبلياً، وليس هناك أي رابطة عملية توحد القبائل وتجمعها.

ومن هنا فإن المرحلة المدنية بعد الهجرة النبوية تُعد هي بداية المرحلة الإسلامية الاجتماعية التي تتجاوز الانتماءات والعصبيات واحترام مختلف العقائد، فقد جمع النبي (ﷺ) في المدينة بين العرب، وعدة طوائف أخرى لأول مرة من خلال المؤاخاة بينهم ليجعل منهم نسيجاً اجتماعياً واحداً فأستطاع التأليف بين اليهود والمسلمين في ميثاق واحد ينص على احترام العقائد والديانات تحت لواء دولة واحدة.

ومع هذا الدور الاجتماعي الذي سعي الرسول (ﷺ) لإقامته في المدينة لخلق نسيج اجتماعي مترابط فإن بعض اليهود وإن قبلوا بهذا الأمر في البداية إلا أنهم أدبروا عن ذلك الأمر عندما رأوه مخالفاً لمصالحهم الشخصية فبعد غزوة بدر أظهروا هذا العداء والغدر بشكل واضح، وظل الصراع بينهم وبين المسلمين مستمراً إلى أن قضى عليهم الرسول (ﷺ) وشتت شملهم.

ومن جانب آخر بدأ ظهور القوة العسكرية للمسلمين بقيادة الرسول (ﷺ) فحققوا الإنتصارات في العديد من المعارك والغزوات. فأصبحت القوة الإسلامية مناهضة للقبلية.

لقد وضع محمد (ﷺ) النواة الاجتماعية للعالم العربي والغربي، وهذا ما أدلى به "ديورانت" فقال: "أخذ على نفسه رفع المستويين الروحي والأخلاقي لشعب ألقت به الجاهلية في دياجير الهمجية، لقد استطاع توحيد بلاد العرب التي كان سكانها مشتتين في صحرائها يعبدون الأوثان، وما توفى عنها حتى كانت أمه واحدة بعيدة عن التعصب والخرافات"[1].

المبحث الأول

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص47.

بداية عهد محمد (ﷺ) في المدينة (622) (630)م

تحتل يثرب التي سُميت فيما بعد (مدينة النبي) موقعاً جغرافياً استراتيجياً، حيث تقع على الحافة الغربية من الهضبة العربية الوسطى، وإذا ما قارنا بينها، وبين مكة سنجد اختلافاً كبيراً، فالمدينة تحيط بها الحدائق والواحات من النخيل، وقد شبهها "ديورانت" مقارنة بمكة كأنها جنة عدن[1].

وبعد الهجرة النبوية تغير اسمها لأن اسم يثرب يعني التغيير، والعنف واللوم، والتضييق، والعقوبة، والجزاء، وقد استبدل بأسماء تدل على معاني الخير، والبركة مثل المدينة المنورة، وطابة، وطيبة[2]، وقد وصل بها العلماء إلى خمسة وتسعين اسماً[3].

تتميز المدينة بموقعها الحصين وما به من الخير الوفير فضلاً عن موقعها في ملتقى طرق الجزيرة العربية مما يجعلها مركزاً يمر به الناس من كل حدب وصوب، كما أنها محصنة بحواجر حجرية إذ تقع (حرة) واقم في الشرق، وحرة الوبرة في الغرب، ومن شمالها جبل ثور وأحد، ومن جنوبها جبل عبر الجنوب، وكانت مليئة بالزروع، والثمار، والنخيل لذلك يقول عنها النبي (ﷺ) "أني رأيت دار هجرتكم، ذات نخل بين لابتين" فدل النخيل والثمر على الزراعة، واللابتان على المنعة والتحصين[4].

وعندما وقع اختيار النبي (ﷺ) على المدينة المنورة كمقر للدعوة لم يكن عبثاً، وإنما كان مبنياً على الأمور التي تسهل عملية نشر وحماية الدعوة الإسلامية. فأهلها سرعان ما استجابوا للدعوة الإسلامية، وموقعها الجغرافي الحصين الذي يجعل

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص32.

(2) أخرجه البخاري، كتاب الحج، باب المدينة طابه، رقم [1872].

(3) أحمد علوش، السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني، ط الأولى، الناشر مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، سنة 1424هـ، 2004م، ص20.

(4) المصدر نفسه، ص27، 28.

منها درعاً يُحتمي به، من الأعداء فضلاً عن كونها مركزاً تجارياً تمر به القوافل التجارية من كل جانب ناهيك عن الثروة الزراعية الموجودة بها. إذن لقد جُمعت فيها القوة الدينية، والإقتصادية والجغرافية، وتولى فيها القيادة الرسول (ﷺ) فوظفها خير توظيف لخدمة الدعوة بشتى الطرق.

وما إن وصل محمد (ﷺ) المدينة حتى أقبلت عليه طوائف المؤمنين يعترضون طريق نافته كلٌ منهم يرغب في إقامة النبي عنده، وأمسك بعضهم بزمام ناقته ليوقف سيرها، وأصرت على ذلك إصراراً تمليه عليها تقاليدها العربية، ولكن جواب محمد (ﷺ) كان غاية في حسن السياسة فكان يقول لهم "خلوا سبيلها فإنها مأمورة" وبذلك لا يكون للرسول (ﷺ) شأن في مكان إقامته، ولن يعترض أحد عن حكم الله لأنه هو من يسير الناقة ويهديها إلى الطريق[1].

إن التفاف المسلمين حول الرسول ﷺ وطلبهم منه النزول عند كل دار يمر بها إبان دخول المدينة كان من شأنه أن يؤجج نار الغيرة بينهم غير أن الرسول (ﷺ) علق أمره بأمر الناقة الملهمة من ربها بمكان نزله يقول (رودنسون) إن محمداً (ﷺ) منذ أن دخل المدينة عرف كيف يجيد إدارة التوازنات بين المهاجرين والأنصار، ويبدو ذلك واضحاً منذ أن ترك أمر إقامته لله في اختيار ذلك المكان لإقامة أول مسجد في المكان الذي تبرك فيه الناقة المأمورة، وبذلك يكون النبي قد خرج من مأزق صراع بين الطائفتين المسلمتين فور دخوله المدينة[2]، ولو رجع اختيار مكان الإقامة إلى الرسول (ﷺ) لربما تسللت الغيرة إلى قلوب الآخرين ولاسيما أن المدينة فيها عدة طوائف وسبق أن نشبت بينها الحروب مثل الأوس، والخزرج، واليهود، ولو افترضنا أن الرسول (ﷺ) نزل عند أحد بيوت من إحدى القبائل وهي لم

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص32.

(2) نبيل فازيو، محمد (ﷺ) الرسول المتخيل، مصدر سابق، ص166.

تأنس بعضها بعد لربما حدث بينها انشقاق وسترى بمنظارها أن الرسول (ﷺ) فضل أحداً على أحد، غير أن هذا الإختيار كان إلهياً ولا دخل للرسول (ﷺ) فيه.

وبعد حرارة الاستقبال والإصرار من الأنصار على اعتراض ناقة النبي وإيقافها، لم يسمح الرسول (ﷺ) بإيقافها، وعند مكان بروك الناقة أسس مسجداً، وبيتين متجاورين أحدهما لسودة والآخر لعائشة، وأحاط بهما مساكن أخرى لزوجاته الأخريات[1].

لقد كان النبي منذ اللحظة الأولى حريصاً على بناء المسجد وذلك لشيء لايصعب علينا إدراكه، فالمسجد هو النواة الأولى لإقامة الدولة الإسلامية ذلك لما له من تأثير ففيه تؤدى الشعائر الدينية، وتمارس الشؤون السياسية، والعسكرية والقضائية، وغيرها من شؤون الدين، والدولة[2].

أما البيوت التي كان يسكنها (ﷺ) يأتي دورها بعد المسجد من حيث الأهمية والبناء والقرب منه، وقد بنى أولاً بيت لسودة بنت زمعة ثم بيت لعائشة بنت أبي بكر، وكانتا زوجتيه حين الهجرة، وبعد ذلك كان (ﷺ) كلما أحدث أهلاً بنى بيتاً حتى بنى كل بيوته وعددها تسعة[3].

- المواخاة بين المهاجرين والأنصار:-

بعدما انتهى الرسول (ﷺ) من تأسيس مسجده، وبيوته كان عليه أن يؤسس العلاقات الاجتماعية بين الفئات المختلفة القاطنة بالمدينة، والمهاجرين إليها، ويجب علينا أن ندرك أن المؤاخاة التي قام بها الرسول (ﷺ) ليس الغاية منها "التآخي بين طرفين مهاجرين وأنصار) وإنما كان التآخي أبعد من كل هذه التصورات الجهوية،

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص32.

(2) هاشم عبدالراضي محمد عيسى، جمال فوزي محمد، صفحات من السيرة النبوية، ج/2، دار الهاني للطباعة والنشر، سنة 1430هـ، 2009م، ص81.

(3) أحمد أحمد غلوش، السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني، مصدر سابق، ص97.

والقبلية فالأنصار فيما بينهم في حاجة إلى التآخي، وكذلك المهاجرين، فليس القضية بين مهاجرين وأنصار.

وسنجد أن "ديورانت" تقتصر عنده قصة المواخاة فيما بين الطائفتين فقط، حيث جعل كل مهاجر يؤاخي أنصاري ويزعم أن محمداً (ﷺ) بعد مغادرته مكة قطع كثيراً من صلات القرابة، ولما جاء إلى المدينة قرر استبدال صلات الدم بصلات الأخوة الدينية في الدولة الجديدة – كما أراد القضاء على أسباب الغيرة بين المهاجرين القادمين من مكة، والأنصار المسلمين أهل المدينة، وكانت بوادر هذه الغيرة قد بدأت في ذلك الوقت، فآخى بين كل اثنين من المهاجرين والأنصار[1].

وإذا ما بحثنا في أسباب الموآخاة بين المهاجرين والأنصار لن نجد ذكراً لسبب واحد من أسباب الغيرة التي يزعمها "ديورانت" وستجد أن من أسباب المواخاة مثلاً مواساة الأنصار للمهاجرين لأنهم هاجروا وتركوا أزواجهم، وأولادهم، وأموالهم، فآخى بينهم حتى لا يشعر الأنصار بوحشة الغربة[2]، ومن جهة أخرى بنُى هذا التآخي على قاعدة دينية تجاوزت كل أنواع الأخوة الفردية، والأهلية، والقبلية ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات، الآية 10].

وكما أن المؤاخاة لم تتم بين مهاجر وأنصاري فقط كما يزعم "ديورانت" "فقد آخى النبي (ﷺ) بينه وبين علي بن أبي طالب، وآخى بين عبدالله بن الزبير[3]

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص32.

(2) حاشية تهذيب سيرة ابن هشام، مصدر سابق، ص80.

(3) هو عبدالله بن الزبير بن العوام بن قصي بن كلاب بن مرة القرشي الأسدي صحابي جليل وأول مولود ولد للمسلمين بالمدينة بعد الهجرة وكان رجل جهاد وعبادة وكان يسمى حمام المسجد له في كتب الحديث ثلاث وثلاثين حديثاً. ينظر: الموسوعة العربية العالمية، مصدر سابق.

وعبدالله بن مسعود[1]، وآخى بين عمه حمزة، وبين زيد بن حارثة، وكل هؤلاء مهاجرون"[2].

هل يمكن أن تتسلل الغيرة إلى قلوب أناس تركوا أموالهم وأولادهم وأزواجهم طمعاً في مرضاة الله ورسوله (ﷺ) أن بشراً تحمل مثل هذه القلوب في جوف صدورها لايمكن أن تحمل بداخلها ولو شيئاً من غل أو غيره لأحد، وإذا كانت قد تسللت إليها الغيرة من باب أولى يصعب على هؤلاء مفارقة الأولاد، والأموال لأنهم أحب الأشياء إلى العبد، فالأخيرة أقرب إلى الحدوث من الأولى وقد تركوها وهجروها فالغاية القصوى لهؤلاء المهاجرين مرضاة الله ورسوله (ﷺ) لذلك فقد قال عنهم ﴿لِلْفُقَرَاءِ المُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر، الآية 8].

أما الأنصار فكان دورهم النصر، والمنعة، والإيواء لرسول (ﷺ) والمهاجرين ولأن اليثربيين لم يخرجوا من ديارهم وأموالهم، وإنما تقاسموها مع من هاجرا إليهم، وصل الأمر بهم إلى حد من كان يملك شيئين أعطى شيئاً لمهاجر من بيت، وزوجة[3]، ولو كان بين الطائفتين شيء من غِيرة كما يدعي "ديورانت" ولذا هاجر المكيون إليهم، بل شاركهم المدنيون أموالهم وأزواجهم، حتى نزل فيهم أي المدنيين قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾ [الحشر، الآية9].

---

(1) هو عبدالله بن مسعود هُذلى النسب مكي من السابقين إلى الإسلام، ومن أكابر الصحابة وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة، قال رسول الله ﷺ: "خذوا القرآن عن أربعة" وذكر أولهم عبدالله بن مسعود، روي رضى اله عنه (848) حديثاً توفي سنة 32هـ (ينظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، مصدر سابق).

(2) أحمد أحمد علوش، السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني، مصدر سابق، ص110.

(3) المصدر نفسه، ص109.

لقد أشار "ديورانت" إلى مؤاخاة الرسول (ﷺ) بين المهاجرين، والأنصار، ولم يذكر نص هذه المؤاخاة كما جاء في كتب السيرة وإنما اكتفى بالإشارة إليها، ولكنه يفاجئنا بكلام يدعي بأن الرسول (ﷺ) ساقه بعدما انتهى من أمر المؤاخاة حيث يقول "ديورانت" وبعد ما آخى الرسول (ﷺ) بين الطائفتين طلب منهما أن أداء الصلاة معاً في المسجد وفي أول احتفال أقيم في المدينة صعد المنبر وقال بصوت عال (الله أكبر) وردد المجتمعون النداء بأعلى صوتهم وسجد لله وهو لا يزال متجهاً بظهره إليهم، ثم نزل عن المنبر بظهره فلما وصل إلى آخره سجد لله ثلاثة مرات وكان هذا السجود رمزاً للخضوع إلى الله والإستسلام له ومنه سمي الدين الجديد بالإسلام أي (الاستسلام) [1] و(السلم) وسمي أتباعه بالمسلمين"[2].

إن ما ذكره "ديورانت" آنفا لم نعرف من أين جاء به وذلك لعدم ذكره في كتب السنة وعن أهل السير، حيث ذكرت المؤاخاة بنصها عند كتب السيرة مثل سيرة ابن هشام وغيرها ولم ياتِ فيها شيء مما ذكره "ديورانت" ولو كان مستنداً إلى دليل يؤكد ما قاله لجاء بنص المؤاخاة الذي استند عليه أو ذكر المرجع أو قائل الحديث، وقد سبق له، وإن استدل بأهل السيرة فعندما بدأ بذكر بدء نزول الوحي. علي الرسول (ﷺ) قال: ينسب القول إلى قائله "ويقول محمد ابن إسحاق أشهر من كتب سيرة النبي... الخ"[3]، فكان هذا الدليل كافياً كما أن النص الذي أتبعه كان موافقاً لبعض ما جاء في كتب السير، أما ما ذكره في قصة المؤاخاة فهذه قصة ملتبسة وشبهة لم نجد لها أي أثر في السيرة النبوية وكتب السنة.

---

(1) الاستسلام عند ول ديورات هو السجود والخضوع لله والاستسلام له دون سواه، ولذلك أطلق على أتباعه اسم (المسلمين لأنهم استسلموا لله وحده، "أن هذا التعريف يكاد يتطابق مع أقوال وتعريفات علماء المسلمين، ومع ذلك فإن ديورانت لا يؤمن بمصداقية هذا المفهوم للمصطلح مع توضيحه وهذا شأنه. (الباحث).

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص32، 33.

(3) المصدر نفسه، ص25.

- مفهوم الإسلام عند "ول ديورانت":-

إن المعنى العام لهذا المصطلح عند المسلمين الإسلام يعني (الاستسلام) والإنقياد، والخضوع للخالق –جل وعلا– وهو مقترن بالسنة التي بعث بها الأنبياء في جميع الأديان وتصدر جميعها من نبع إلهي واحد فهذا نوح يشد على قومه لدخولهم معه في زمرة المسلمين مصداقاً لقوله تعالى ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المُسْلِمِينَ﴾ [يونس، الآية 72]. وكان يعقوب قد أوصى أولاده باتباع عقيدة أبائهم من الأنبياء السابقين وعدم الموت على غير الإسلام: قال تعالى ﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ المَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة، الآية 132–133].

وموسى يعظ قومه بتفويض أمرهم إلى الله إن أسلموا: فقال تعالى: ﴿ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس، الآية 84].

والمعنى الخاص لكلمة الإسلام يعني الشريعة التي جاء بها سيدنا محمد (ﷺ) خاتم الأنبياء، والمرسلين إلى البشر كافة ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ، الآية 28] وهي الشريعة الناسخة المأخوذة من القاعدة الإلهية للأنبياء السابقين فلم يأتِ محمد (ﷺ) بشيء غريب أو جديد بقدر ما جاء يؤكد على ما جاء به الأنبياء السابقون ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ﴾ [آل عمران، الآية 19].

ومثلما أوصى الأنبياء السابقون أقوامهم المبعوثين إليهم بعدم ترك الإسلام كما أشرنا سابقاً. جاء محمد (ﷺ) ليؤكد هذه القاعدة الدينية المتفق عليها الأنبياء في رسالاتهم ومنذ أن بعث الله أول نبي إلى النبي الخاتم محمد (ﷺ) مصداقاً لقوله تعالى ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران، الآية 85].

- الرسول الزعيم الديني والحاكم السياسي:-

الزعيم الديني[1] عند "ول ديورانت" هو الرجل السياسي والقائد في الدولة والذي إليه ترجع كل أمورها سواء كانت الدينية أو السياسية أو الاجتماعية.

يقصد "ديورانت" بالزعيم الديني اليهودي (الحاخام) والذي يصدر تعاليماً لايمكن نقضها ولا تغييرها[2]، وهذا الحاخام يصل إلى درجة من التقديس عند اليهود تجعل من كلامه فوق كلام الله (تعالى الله عما يقولون) أي أن الله عندهم يمكن أن يخطئ والحاخام لا يخطئ، والله عندهم يعتذر، ويعترف بالخطأ للحاخام. لقد جاء في كتاب (حاجيجا) "أن تعاليم الحاخامات لا يمكن نقضها ولا تغييرها ولو أمر الله بتغييرها، وأنه قد وقع يوماً الاختلاف بين الله وبين علماء اليهود في مسألة ما، وبعد أن طال الجدل تقررت إحالة المشكلة إلى أحد الحاخامات، وأخيراً اضطر الله إلى أن يعترف بخطيئة"[3].

إن الحاخامات يضعون دستوراً لكي يحموا به أنفسهم، وحتى يكون كلامهم مسموعاً دون نقاش، ولذلك كان لابد من التجرؤ على الذات الإلهية حتى يصلوا إلى مبتغاهم.

وعندما تلقى نظرة على ما جاء في القرآن الكريم والسيرة النبوية فالأحكام تصدر من ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر، الآية 7] أي أن محمداً (ﷺ) بشر ودوره تبليغ الرسالة ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الكهف، الآية 105].

---

(1) الزعيم الديني عند ول ديورانت هو رجل الدين والدولة، والقائد والذي إليه تؤكل أمورها سواء الدينية والسياسية، والاجتماعية.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص33.

(3) محمود محمد سيد علي، العقيدة اليهودية بين الحقيقة والأسطورة، مصدر الكتاب، المكتبة الالكترونية، ص210.

ومن هنا فإن رجوع الشؤون الدينية والدنيوية في يد محمد (ﷺ) لم تكن صادرة عن ذاته البشرية، وإنما صادرة عن الله وما عليه إلا البلاغ، في حين أن الزعيم الديني عند اليهود يملي أوامر يزعم أنها لا يمكن أن تكون خاطئة، وعندما تتعارض مع كلام الله يؤخذ بكلام الزعيم الديني، وهذا ما يتعارض مع العقل، والمنطق وأي تشابه بين محمد (ﷺ) وبين الحاخامات اليهودية التي تخضع لمنظمات صهيونية.

حارب الغرب نظام الحكم الإسلامي منذ أن وطئت قدما الرسول (ﷺ) المدينة؛ لأن علاقة الغرب، والإسلام في الحكم هي اصطراع نظريتين، من حيث الطبيعة والبيئة والتصميم والغاية، لذلك فالحرب قائمة بينهما فالطابع العلماني أو علمانية السياسة، والتي تقصى الدين وسلطته هي السائدة عند أوروبا، وقد أدى هذا النظام العلماني إلى صراع بين دول أوروبا نفسها مثل الولايات المتحدة الأمريكية، وبريطانيا، وألمانيا مثلاً في تدريس الدين بالمدارس وأداء الصلوات في المدارس، ويزعمون أن نظام فصل الدين عن الدولة فصلاً تاماً لا يقوم نظاماً ديمقراطياً إلا عن طريق هذا النظام، وكان الرسول (ﷺ) قد جمع بين الأمرين وفقاً لمبدئ الشورى ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى، الآية 35] فالنظام الإسلامي قام بمحو الفواصل بين الدين والدولة، ونظامه قائم على الديمقراطية. فالمسلمون يؤمنون بعدم إقامة دولة أو نظام حاكم بدون عقيدة حيث إن العلمانية تحارب الدين داخل النظام السياسي.

لذلك فإن فكرة (الرسول الديني أو الحاكم السياسي) التي نوه عليها "ديورانت" تنبع من هذه الفكرة العلمانية، وما قاله بعدم وجود حد فاصل بين الشؤون الدينية، والدنيوية أكبر دليل على انبثاق هذه الفكرة عنده من مبدأ العلمانية.

بعدما أخذنا بالتحليل، والنقد بعض مزاعم "ديورانت" التي ذكرناها آنفاً نراه يعود من جديد لبعض الشبهات وعن علاقة الرسول (ﷺ) بالعرب وبعض اليهود إذ قال: إن العرب لم ترض بهذا الوضع ولم يرق لها ما يقوم به الرسول (ﷺ) في المدينة، وبدأت العرب تنظر بعين الريبة إلى الدين الجديد، وشعائره، وترى أن محمداً (ﷺ) يقضي على تقاليد وحرية العرب، ويزج بهم في الحروب، وكان من بين هؤلاء

المناهضين لدين محمد (ﷺ) يهود المدينة الذين ظلوا متمسكين بدينهم، ولم ينقطعوا عن الاتجار مع قريش[1].

وإن عدواة العرب واليهود لمحمد (ﷺ) لم يكن ورائها الدين الإسلامي بقدر ما كان هذا العداء اقتصادياً مرتبطاً بمصالح بين يهود المدينة، وبين تجار وأهل مكة الذين هاجر أبناؤهم، ولم يعد بإمكانهم رؤيتهم.

فعندما هاجر الرسول (ﷺ) إلى المدينة هاجر معه الكثيرون من أهل مكة، وكان من بينهم عناصر ذات قيمة كبيرة في الحياة الاجتماعية والإقتصادية، وأغلقت بمكة دور هؤلاء المهاجرين مما سبب ألماً وحزناً كبيراً للمكيين الذين لم يهاجروا، ولم يبق من أهل مكة إلا القليل الذين لم يصل إليهم ألم هذه الهجرة، ومن بين هؤلاء المتألمين لم يبقَ أسرة إلا وفيها أب أو ابن أو أخ قد هاجر، وخاصة أن مكة كانت مترابطة بوحدة قبلية، ويبدو أن السبب الرئيسي والأكثر أهمية، ومن أجله كان الصراع دائر بين مكة، والمدينة خوف مكة على سلامة قوافلها التجارية والتي كانت عادة ما تتجه نحو الشمال، والتي كانت يثرب بدورها تتصدى لهذه القوافل، فكان لهذا الأمر تأثير كبير على النشاط الاقتصادي المكي[2].

أما اليهود وهم الأشد خطراً لم يكونوا الأوفر حظاً من المكيين في الجانب الاقتصادي الأمر الذي جعلهم يترقبون بشدة بيعة العقبة الكبرى ولم يتوقعوا بأن الحوادث ستؤول إلى تيار معاكس لما يشتهون ولو أنهم أدركوا أن في هذه البيعة تيار مضاد لمصالحهم لأعلنوا الحرب منضمين إلى حلفائهم من البطون اليثربية والقرشية.

كما كانوا في البداية يتشوقون لرؤية النبي الذي يتفق جوهر دعوته مع عقيدتهم التوحيد فيما يظنون، وكانوا يسعون إلى التأثير فيه وجعله يدخل في دينهم

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص33.

(2) أحمد إبراهيم الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول (ﷺ)، مصدر سابق، ص340-341.

فيتعاونوا معه على محو عبادة الأصنام لأنهم كانوا يعتقدون أنه لو تم لهم ذلك لأصبحت يثرب أعظم مركز للتجارة في الجزيرة العربية، ولتمكن أهلها من السيطرة على تجارة مكة وغيرها[1].

عندما تبين لهم أن الأمور لا تسير في خدمة مصالحهم، وأدركوا الاختلاف بين عقيدة التوحيد التي يؤمن بها محمد (ﷺ) وعقيدتهم التي كانوا يظنون في بداية الأمر أنها نفس العقيدة، وقد جعلت عقيدة الإسلام من الناس سواسية لاختلاف بينهم وكان اليهود يسعون إلى التميُّز على سائر البشر ويرون أنهم الأفضلية المطلقة، ولن يقبلوا بهذه المساواة بين الناس كافة.

كان "ديورانت" قد ذكر في كتابه (قصة الحضارة) سبباً آخر للنزاع غير أن هذا السبب كان اقتصادياً حيث يقول: إن كراهية اليهود للأمم وأصحاب الديانات الأخرى كان ورائها العامل الاقتصادي كسبب رئيسي للنزاع، في حين أن الأسباب الدينية كانت على الدوام سبباً في زيادة هذه المنافسات الاقتصادية وستاراً محركاً لهذه النزاعات[2].

من هنا فإن الدين لم يكن هو السبب الرئيس لتأجيج عداوة المكيين ويهود المدينة كما يزعم "ديورانت" غير أن الأخير قد أصاب حينما أرجع ذلك إلى الأسباب الإقتصادية التي جعلت من اليهود يتخذون الدين كذريعة للمنافسات الاقتصادية، في حين كان موقف المكيين ظاهراً للجميع منذ بداية الدعوة.

- كتاب الرسول (ﷺ) في موادعة اليهود:

يبدو أن كتاب محمد (ﷺ) بين المهاجرين والأنصار والذي وادع فيه اليهود، وعاهدهم قد اختصر "ديورانت" عقد هذا الكتاب بين محمد (ﷺ) واليهود دون

---

(1) إسرائيل ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، مطبعة الاعتماد شارع حسن الأكبر بمصر، سنة 1345هـ-1927م، ص110، 111.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج14، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص79.

المهاجرين والأنصار والذي اقتصر دوره على الجانب السياسي المحض حيث يقول: "عقد محمد (ﷺ) مع أولئك اليهود عهداً ينم عن مهارة سياسية كبيرة"[1].

لقد أكدت كتب السيرة النبوية، وغيرها أن توقيع هذا الكتاب كان بين المهاجرين والأنصار ثم عاهد فيه اليهود وأقرهم على ذمتهم وأموالهم.

وقد جاء نص الكتاب في سيرة ابن هشام، وفيه بسم الله الرحمن الرحيم "هذا كتاب محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم. إنهم أمة واحدة من دون الناس. المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عاينها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو ساعد على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين... الخ"، وهكذا بدأ الكتاب بالمهاجرين والأنصار ثم وادع فيه اليهود وجاء في كتابهم أن اليهود ماداموا محاربين مع المؤمنين عليهم أن ينفقوا معهم، وليهود بني عوف دينهم. وللمسلمين دينهم وهم أمة واحدة مع المسلمين، ومواليهم وأنفسهم إلا من اعتدى، أو ظلم فيهلك هو وأهل بيته، وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وكذلك ما هو ليهود بني الحارث مثله ليهود بني عوف، وما لبني ساعده مثله ليهود بني عوف وما ليهود بني جشم مثله ليهود بني عوف، وما ليهود بني الأوس مثله ليهود بني عوف، وما ليهود بني ثعلبة مثله ليهود بني عوف، إلا من ظلم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم، وأن لبني الشطيبة مثله ليهود بني عوف، وأن البر والوفاء يسبق الإثم، وأن موالي ثعلبة كأنفسهم، وأن بطانة يهود كأنفسهم لايمكن لأحد منهم أن يخرج إلا بإذن من محمد (ﷺ)... وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين كذلك نفقتهم، ويكون

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص33.

النصر بينهم على من حارب هذه الصحيفة وما فيها، وكذلك بينهم النصح والنصيحة والبردون الأثم.... وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يثرب يحرم جوفها لجميع أهل هذه الصحيفة.... وما يحدث من فساد واستئجار يخل ببنود هذه الصحيفة فإن مرده إلى الله ورسوله (ﷺ) وأن الله على أبر وأتقى ما في هذه الصحيفة وأبره، وأن قريشاً ومن نصرها لايجار، وأن النصر بينهم على من داهم يثرب، وإذا كان هناك صلح دعوا إليه فإنهم يصالحونه ويلبسونه،... وأن ليهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة.... وأنه هذا لا يحول دون ظالم أو آثم، وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم وأن الله جار لمن بر واتقى ومحمد رسول الله ﷺ [1].

وعن اليهود وقبولهم السريع لهذه الوثيقة يقول "ديورانت" "سرعان ما قبلت جميع قبائل اليهود في المدينة وما حولها هذه الوثيقة بنو النصير وبنو قريضة وبنو قينقاع"[2].

إن هذه الوثيقة لم يكن المقصود منها ضم اليهود تحت سلطة المدينة حتى يأمن محمد (ﷺ) شرهم كما توهم البعض وكما أن محمد (ﷺ) ليس مضطراً لقبولهم كفئة ضمن الدولة، وكان بإمكانه طردهم إن أراد ذلك، ومن جهة أخرى لم يشترط عليهم محمد (ﷺ) قبول هذه الوثيقة عنوة غير أن الهدف من هذه الوثيقة ضمنت الحقوق والواجبات، وعدم الإعتداء والغدر من كل الأفراد التي تعيش بالمدينة، وتضمن كذلك احترام الأديان المختلفة الموجودة بالمدينة واحترام ما تعبد كل طائفة من هذه الطوائف بالإضافة إلى وجود حماية لكل من اعتدى عليه أي طرف من

(1) عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، مرجع سابق، ص140-143.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص34.

الأطراف بطريقة تخالف ما جاءت به الوثيقة يتم الرجوع إلى الله والرسول (ﷺ) في اتخاذ الحق أو الدم المهدور[1].

من جانب آخر فإن اليهود لا يقبلون التوقيع على أي صحيفة بمثل هذه السهولة لأن ما جاء في هذه الصحيفة يضمن لهم مصالحهم الاجتماعية، والدينية، والمادية، بالإضافة إلى موادعتهم، ومناصرتهم على من يحاربهم وأذنت بوجودهم ككيان في الدولة وبذلك تتجاوز هذه الصحيفة الأفق الديني، إلى الرابطة الاجتماعية السياسية، والتي تتجاوز الاختلاف الديني بعد أن تسلم به ابتداءً[2].

وبعد ما آخى الرسول (ﷺ) بين المهاجرين والأنصار، وكتب الصحيفة بينهم، وبين اليهود كانت هناك بعض المشاكل المادية التي واجهت المهاجرين الذين سُلبت أموالهم، وصودرت من قبل قريش قبل وأثناء الهجرة إلى المدينة. فمن الطبيعي أن يسترد المهاجرون ما سُلب منهم إما عنوة أو سلماً، ومع تأكيدنا على أنه لم يكن هذا هو السبب الرئيسي لتلك الإغارة حيث أن "ديورانت" اكتفى بذكر مشكلة الحصول على الطعام كسبب رئيسي لهذه الإغارة في المدينة بعد الهجرة إذ قال: "وهاجرت إلى المدينة مائتا أسرة من مكة فنشأت فيها من جراء هذه الهجرة مشكلة الحصول على ما يكفي أهلها من الطعام. وحل محمد (ﷺ) هذه المشكلة كما يحلها كل الأقوام الجياع بالحصول على الطعام أني وجد ومن ذلك أنه أمر أتباعه بالإغارة على القوافل المارة بالمدينة، متبعاً في ذلك ما كانت تتبعه معظم القبائل العربية في ذلك الوقت"[3].

---

(1) حاتم إسماعيل، محاضرات في التاريخ الإسلامي، مصدر سابق، ص84.

(2) نبيل فازيو، محمد (ﷺ) الرسول المتخيل، مصدر سابق، ص171.

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص34.

إذا كان "ديورانت" قد وصف النبي (ﷺ) وأتباعه بقطاع الطرق لأعتدائهم على القوافل المارة فإن السؤال الذي يطرح نفسه. لماذا كانت الإغارة على قوافل قريش دونما سواها من القوافل الأخرى؟

ولذلك لم يذكر "ديورانت" هذا التخصيص في الإغارة على القوافل وإنما أشار إلى القوافل ككل. ومما يؤكد على عدم صحة ما ادعاه "ديورانت" ما ذهب إليه كلٌّ من (رودنسون، وأندريه[1]) إذ يتفقان على أن هذا الأسلوب في الإغارة على القوافل لم يتخذ صورة لقطع الطريق لأنه لم يشمل كل القوافل المارة من غير قوافل قريش[2].

وكما أن الهدف الرئيسي كما ذكرنا سابقاً ليس الإغارة من أجل القوافل واسترداد الممتلكات، وإنما كان الهدف إعلاء كلمة الله، وحماية نشر الدين الإسلامي من تربص قريش بالمسلمين بعدما فلتوا من قبضتهم بمكة، وأصبحوا ينشرون الدعوة الإسلامية بحرية، لذلك كانت قريش تنتهز الفرصة للإيقاع بهم في موطنهم الجديد بالمدينة إذ أرسلت إليهم قريش تتوعدهم وتهددهم بالمدينة[3]. "لا يغرنكم أنكم أفلتم إلى يثرب سنأتيكم فنستأصلكم ونبيد خضراءكم في عقر داركم"[4]. وذكر "ديورانت" في كتابه (دروس التاريخ) "إذا وجب علينا أن نتبع المجرى المألوف للتاريخ فيجب أن نشن الحرب عليكم خوفاً من أن تشنوها علينا بعد جيل"[5].

---

(1) هو طور أندريه المستشرق السويدي سمي أستاذ للعلوم الدينية في جامعة استوكهام من آثاره "النصرانية" "الدين الكامل" "أنا أؤمن بالله" "محمد حياته وعقيدته" توفي سنة 1447هـ "ينظر: موقع وكيبيديا الحرة".

(2) نبيل فازيو، محمد (ﷺ) الرسول المتخيل، مصدر سابق، ص183-384.

(3) محمود شيت خطاب، الرسول القائد، ط السادسة، دار الفكر بيروت، سنة 1422هـ، ص84.

(4) رحمه للعالمين، 116/1، نقلاً عن محمد محمود عبدالعليم، محمد رسول الله (ﷺ)، ط الثانية، دار شركة الشمرلي، القاهرة، سنة 2004، ص169.

(5) ول ديورانت، دروس التاريخ، تقديم وترجمة علي شلش، ط الأولى، دار سما الصباح، سنة 1993، ص162.

وعندما عادت هذه الغارات بالفائدة أعطى محمد (ﷺ) المغيرين أخماس الغنائم، والباقي احتفظ به للأعمال الدينية والخيرية، وأما من استشهد في هذه الغزوات فإن نصيبه من حق أرملته، وأما الشهيد فجزاؤه الجنة[1].

أن تقسيم هذه الغنائم لم يتبع فيه النبي (ﷺ) أسلوباً تُمليه عليه نفسه أو عاداته أو قبيلته، وعندما اختلف المسلمين على الغنائم فكل طرف في الغزوة يرى في نفسه الأحقية في الغنيمة بدلاً من الآخر، حتى أنزل الله قوله تعالى ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: الآية 41]

كما أن أمر الاختلاف في الغنائم وتقسيمها لم يأتِ ذكرها في كتب السيرة عند بداية الغزوات بشكل كبير إلا عند غزوة بدر إذ أن الغنائم في بداية الغزوات كانت ضئيلة وقد ذكرها "ديورانت" عند بداية الغزوات ليجعل الغنائم ملازمة للإغارة في الأهمية عند المهاجرين الباحثين عن الطعام وينحى بذلك منحى السطو حتى ينطبق عليهم أي المسلمين قطاع الطرق الذي يزعمه.

وحتى نؤكد ما يدعيه "ديورانت" نذكر ما جاء في تقسيم الغنائم حتى نبّين أن الرسول (ﷺ) لم يتبع أي طريقة في ذلك، وقد ذكرا البغوي[2] في تفسيره، أن الغنيمة هي "تقسيم خمس أخماس، أربع أخماس لمن قاتل عليها، خمس لخمس أصناف كما ذكر الله عز وجل، وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل" وما يقصد به "ديورانت" خمس الأعمال الدينية والخيرية هو خمس الرسول (ﷺ) وهذا الخمس يعود لمصالح المسلمين عامة ويبّين ما لهم، وهو ما فيه قوة الإسلام"[3].

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص34.

(2) هو الحافظ البغوي إمام حافظ فقيه ومجتهد وهو أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد البغوي ويلقب أيضاً بركن من آثاره شرح السنة للبغوي، (ينظر: الموسوعة العربية العالمية، مصدر سابق).

(3) تفسير البغوي، تحقيق عبدالرزاق المهدي، ط الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، سنة 1420هـ، ص292.

وأما نصيب الأرملة التي استشهد زوجها لم يأتِ ذكره من ضمن الاصناف المذكورة في الآية التي جاء خمس فيها لكل صنف، وكما أنني لم أجد له ذكراً فيما وقع تحت يدي من كتب السيرة وأهل السنة غير أن (محمد هيكل) قد أشار إلى إن نصيب الشهيد يكون من حق الورثة[1] وربما هو الأقرب بحكم دخولهم في صنف اليتامى بعد استشهاد الأب.

وقد جعل "ديورانت" الجنة كمرتبة أو جزاء من يستشهد كبديل للغنائم، فالبون شاسع بين الجنة والغنائم عند الصحابة رضوان الله عنهم، لأنهم كانوا يطلبون هذه المرتبة من الجهاد بأنفسهم.

ستجد أن "ديورانت" لم يعترف برسول ولا بكتاب مقدس وعنده كل ما يأتي به الأنبياء والرسل من صنيع أنفسهم فلا يمكن أن يقر بوجود جنة أو نار ذكرت في كتبهم المقدسة كجزاء لما يقوم به الفرد من أعمال.

ومن جهة أخرى إن الصحابة تركوا أموالهم وأزواجهم وأولادهم في مكة وهاجروا إلى المدينة، وذلك لعدم أهمية المال والغنائم عندهم لأنها لو كانت محببة لما تركوها في المدينة وخاضوا الحروب واستشهدوا في سبيل الله، وكان بإمكانهم البقاء مع أولادهم وما يملكون في المدينة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة، الآية 216].

وقوله ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء، الآية 73].

وعندما كثرت الغزوات وتضاعف عدد المشتركين فيها، وارتاع لها أهل مكة الذين كانت حياتهم الإقتصادية معلقة بنجاة قوافلهم لذلك لابد من الانتقام لأنفسهم من محمد (ﷺ) والمسلمين[2].

---

(1) محمد حسن هيكل، حياة محمد، مصدر سابق، ص281.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص34.

إن الذي جاء في سيرة ابن هشام لم يذكر فيه اصطدام بين المسلمين وقريش في هذا الوقت الذي يذكر فيه "ديورانت" حدوث غزوات وإنما لم تخرج تلك العمليات العسكرية في ذلك الوقت عن نطاق الاستطلاع[1] فمن غزوة ودان إلى سرية عبدالله بن جحش[2] والتي كانت الشرارة الأولى لاشتعال رحى الحرب بالإضافة إلى كونها أول غنيمة يغنمها المسلمون[3]، لم يحدث إلا اصطدامات بسيطة قد لا تذكر، كما أن فكرة الانتقام من محمد (ﷺ) لم تكن بالفكرة الجديدة وقد ذكر "ديورانت" ذاته عدواناً سابقاً لقريش ضد محمد (ﷺ) ولو تسنى لهم قتله لفعلوا ذلك فمنذ أن هاجر إلى المدينة أغاروا عليه في فراشه يدبرون أمر قتله إلا أنهم وجدوا عليا قد نام في فراشه.

(1) نبيل فازيو، محمد (ﷺ) الرسول المتخيل، مصدر سابق، ص18.

(2) هو عبدالله بن جحش بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كثير بن غنم أسلم قبل دخول الرسول (ﷺ) دار الأرقم وأمره الرسول (ﷺ) على سرية وهو أول سرية وأول غنيمة توفي في معركة أحد. (ينظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، مصدر سابق).

(3) ابن هشام، السيرة النبوية، مصدر سابق، ج/1، ص355.

المبحث الثاني
السرايـــــا والغـــزوات

- سرية عبد الله بن جحش:-

كانت سرية "عبدالله بن جحش" الشرارة الأولى التي اندلعت عقبها العديد من الغزوات، غير أن هذه السرية كثير ما اتخذها المستشرقون مطية إلى شبهاتهم كما اتخذتها قريش فرصة لتشويه صورة النبي (ﷺ) حيث قالت: "قد استحل محمد (ﷺ) وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال"[1].

وكسابقه "ديورانت" يتخذ من تاريخها انطلاقاً لشبهته إذ يقول: كانت هذه الغارة في آخر يوم من شهر رجب، وهو من الأشهر الحرم التي يمتنع فيها العرب عن القتال بجميع أنواعه، وقتل فيها رحل. وأساءت بذلك إلى سمعة أهل مكة والمدينة على السواء، وإلى تقاليد العرب التي كانت محفوظة منذ القدم[2].

فعندما أرسل الرسول (ﷺ) هذه السرية لم يعط لها الأمر بالقتال وإنما طلب منها ترصد أخبار قريش غير أن الهدف الذي دفع هذه السرية لمحاربة تلك القافلة هو منعها لدخول الحرم قبل تحصنها به، لذلك كان هناك من هو لا يرغب في القتال لحرمة هذا الشهر. وكانوا في حيرة من أمرهم حتى انشرحت صدورهم للقتال: فقاتلوهم وقتلوا منهم من قتلوا وأسروا منهم من أسروا.

كانت قريش تنتظر مثل هذه الفرصة لتشهّر بمحمد (ﷺ) والمسلمين، وقالوا بأن محمداً (ﷺ) انتهك حرمة الأشهر الحرم، ونظراً لأثر هذا الشهر حتى في المدينة، فقد أنكروا على رجال السرية قتالهم في هذا الشهر وقال: لهم النبي ألم أنهكم عن قتال في الشهر الحرام فوقف العير والأسيرين وعندما وصل الجدال ذروته أجاب القرآن على تسأل قريش عن سبب هذا القتال وأكد لهم بأن هذا الأمر كبير، ولكن ما فعلتموه أنتم يا قريش أكبر منه بكثير عند الله ألا وهو الصد عن سبيل الله والكفر به،

---

(1) عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، مرجع سابق، ص151.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص34-35.

وإخـــراج المســـلمين مـــن المســـجد الحـــرام أكبـــر ممـــا تظنـــون[1] قال تعالى:﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ القَتْلِ وَلاَيَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ [البقرة، الآية217].

غزوة بدر الكبرى:

من ضمن الغزوات التي ذكرها "ديورانت" غزوة بدر الكبرى وهي التي تلي سرية (عبدالله بن حجش) عام (623م) حيث كان عدد المسلمين فيها حوالي ثلاثمائة مقاتل، كانت تقصد اعتراض قافلة قريش القادمة من الشام إلى مكة يرأسها (أبو سفيان)، وعندما علم بأمر اعتراض المسلمين له ساحل بقافلته، وأرسل إلى مكة يطلب الاستعانة فأرسلت قريش لحماية قافلتها تسعمائة مقاتل، والتقى الجيشان الصغيران عند وادي بدر على بعد عشرين ميلاً جنوب المدينة يقول "ديورانت" "ولو أن محمداً (ﷺ) هُزم في هذه المعركة لقضي عليه وعلى الإسلام"[2].

وبقى (أبو سفيان) يتحسس الأخبار عن المسلمين واستطاع النجاة بقافلته من قبضتهم، فأرسل إلى قريش يبشرهم بنجاة القافلة، وأنه لا داعي من قدومهم وعليهم أن يرجعوا غير أن قائد جيش المشركين (أبو الحكم) أبى إلا النزول عند بدر والمواجهة[3].

فوصل نبأ نجاة القافلة إلى المسلمين، وأن عليهم مواجهة جيش قريش عندها تبادر إلى بعضهم عدم رغبة في القتال ويئس من الغنيمة فأنزل الله قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الكَافِرِينَ ﴾ [الأنفال، الآية7].

---

(1) عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، مرجع سابق، ص150-151.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص35.

(3) عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، مرجع سابق، ص160.

إذا ما عقدنا مقارنة بين الجيشين من حيث العتاد، والعدد فالفرق شاسع لا محالة، وأن المواجهة قد تكون نتيجتها معلومة وفقاً للمعايير التقليدية، غير أنه إذا ما بحثنا في العقيدة القتالية للجيشين فالبون شاسع كذلك فقريش والتي جيشها يقارب التسعمائة ونيف قد خرجت بعقيدة الدفاع عن أموالهم حتى لا تقع غنيمة في يد المسلمين.

بينما خرج المسلمين وعددهم يتراوح ما بين ثلاثمائة ونيف، بعقيدة إعلاء كلمة الله، والشهادة في سبيله، ورد بعض من الحقوق المادية والأضرار المعنوية التي لحقت بهم على يد قريش طيلة خمسة عشرة عاماً[1].

لذلك جاءت النتيجة لتخرق كل النواميس المنطقية للقتال العسكري، ولعل هذا ما جعل "ديورانت" يقول: (ولو أن محمداً (ﷺ) هزم في هذه المعركة لقضي عليه وعلى الإسلام) غير أن محمد (ﷺ) كان يقول "اللهم إن تهلك هذه العصبة اليوم لا تعبد"[2]، وعندما نشب القتال دفع الرسول (ﷺ) بأهل بيته دون سواهم من المهاجرين فأمر "علي" و"الحمزة" و"عبيدة بن الحارث"[3] إلى ساحة القتال، وبذلك وضع أهل بيته في الجبهة الأمامية؛ ليؤكد لهم مدى مصداقيته (ﷺ) في التعامل مع الأحداث[4].

يقول "ديورانت" قاد محمد (ﷺ) رجاله بنفسه وانتصر على قريش وقويت شوكة محمد (ﷺ)بهذا النصر، وعاد المسلمين إلى المدينة ومعهم كثير من الأسرى والغنائم يناير عام (624)م.

---

(1) هاشم عبدالراضي محمد عيسى، جمال فوزي محمد، صفحات من السيرة النبوية، ج/2، مصدر سابق، ص177 إلى 179.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص35.

(3) هو عبيد بن الحارث بن عبدالمطلب بن عبد مناف أبو الحارث، من أبطال قريش في الجاهلية والإسلام، أسلم قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم شهد بدراً وقتل فيها توفي سنة 12هـ. (ينظر: الأعلام للزركلي"، مصدر سابق).

(4) حاتم إسماعيل، محاضرات في التاريخ الإسلامي، مصدر سابق، ص94.

بعد ما انتصر الثلاثة من المسلمين الذين دفع بهم النبي (ﷺ) كان ذلك دافعاً ليزداد به قوة المسلمين ثم عدَّل الرسول (ﷺ) صفوف مقاتليه، ورجع إلى عريشه ثم بشر (أبا بكر) بنصرة من الله يحمله جبريل بعنان فرس يقوده، على ثنايا النقع، وخرج إلى أصحابه ليزيد من همتهم فقال: لهم "لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً، مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة"[1].

كما أن فقدان قريش لبعض جنودها في بداية المبارزة كان له انعكاس على نفسيتها بالإضافة إلى عدد غير قليل ليس لديه رغبة في المواجهة منذ البداية إلا أنه استكره خوفاً من عتاب (أبي جهل)، واتهامه لهم بالجبن، وآخرون رأوا بأنه لم يعد هناك حاجة للقتال بعد نجاة القافلة[2] فكانت هذه من ضمن الأسباب التي جعلت قريش تخسر المعركة بالإضافة إلى إرسال المدد من الله ليقاتل إلى جانب المسلمين قال تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ المَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال، الآية 9].

انجلت المعركة عن هزيمة ساحقة لقريش التي قتل فيها سبعون رجلاً من عتاة قريش وكبارئها، وفيهم (أبو جهل)، قتل نصفهم أمير المؤمنين (عليّ) وشارك المسلمون في النصف الآخر بينما استشهد من المسلمين أربعة عشر رجلاً[3].

وعندما عاد المسلمون إلى المدينة كان معهم غنائم كثيرة بالإضافة إلى عدد من الأسرى، وقتل من هؤلاء الأسرى من أشتد عداؤه واضطهاده للمسلمين في مكة، وأطلق سراح الباقين نظير فدية كبيرة ونجا أبو سفيان، وانذر المسلمين بالانتقام[4]،

(1) عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، مرجع سابق، ص165.

(2) محمد حسن هيكل، حياة محمد، مصدر سابق، ص273.

(3) حاتم إسماعيل، محاضرات في التاريخ الإسلامي، مصدر سابق، ص95.

(4) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص35.

وأما من أطلق سراحه طلب المسلمون فدية مقابل ذلك، وجعلوا لهم مبلغ قدره أربع آلاف درهم للرجل إلى ألف درهم، إلا من لا شيء له فمنَّ رسول الله (ﷺ) عليه[1].

إن هذا الانتصار مكّن المسلمين من تقوية موقفهم وتعزيز مكانتهم في المنطقة كما أعطى الرسول (ﷺ) للكافرين من خلال هذه المعركة درساً مفاده أن الإسلام أصبح يملك القوة الكافية لمعاقبة خصومه، وأصبح بمقدور النبي أن يخاطب الكافرين من منطق القوة، وليس من منطق الدعوة كما كان في السابق[2].

فعندما عاد أبو سفيان إلى مكة بدأ بمواساة أسر القتلى وحثهم وتشجيعهم، وطلب إليهم عدم البكاء على قتلاهم، وقال لهم "إن الحرب سجال وإنهم سيأخذون بثأرهم ثم أقسم ألا يقرب زوجته إلا بعد أن يخرج مرة أخرى لقتال محمد (ﷺ)"[3].

إن مُصاب قريش في بدر اهتزت له مكة وجبالها فارتفعت أصوات النواح بينها، ولكن قريش سرعان ما كتمت هذا النواح مخافة شماتة محمد (ﷺ) وأصحابه، وزاد من قوة صبرهم "أبو سفيان" الذي أخذ يشد الهمم على تقبل ما حصل والتفكير كل التفكير فيما سيأتي لكي يأخذ بثأره من محمد (ﷺ) وأصحابه، وقطع لنفسه عهداً أن لا يمس ماء من جنابة ولا امرأة حتى يغزو محمد (ﷺ)[4].

بعد الانتصار الذي حققه محمد (ﷺ) أصبح له قوة وهيبة داخل الجزيرة العربية ولكن هذا الأسلوب في الحرب جعل العرب يتأثرون به وعلى حد زعم "ديورانت" أن محمداً (ﷺ) بعد غزوة بدر استطاع أن يقضي على بعض أعداءه مثل "عصماء"[5] الشاعرة التي هاجمته بشعرها فتسلل إليها (عمير)[6] فطعنها وهي نائمة

---

(1) عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، مرجع سابق، ص172-168.

(2) نبيل فازيو، محمد ﷺ الرسول المتخيل، مصدر سابق، ص193.

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص35.

(4) محمد حسن هيكل، حياة محمد، مصدر سابق، ص288.

(5) هي عصماء بنت مروان من بني أمية بن زيد، كانت تحت يزيد بن زيد وكانت تؤذي الرسول ﷺ وتعيب الإسلام وقالت فيه شعراً. (ينظر: موقع وكيبيديا الحرة).

بسيفه في صدرها طعنة قاتلة نفذ سيفه من خلالها إلى تحت فراشها، وعندما سأل محمدٌ "عمير" فأجابه يا رسول الله أني قتلتها، فقال: نصرت الله ورسوله يا عمير فقال عمير هل على شيء من شأنها يا رسول الله، فأجابه بقوله إن هذا الأمر "لا ينطح فيه عنزان"[1].

إن عصماء كانت تؤذي النبي (ﷺ) وتُحرض وتُعيب على الإسلام، والمسلمين لذلك كان لابد من قتلها، وقد نذر (عمير) هذا رسول الله (ﷺ) بقتلها بعد عودته من بدر وعندما رجع من بدر جاءها ليلاً حتى دخل بيتها وحولها نفر من ولدها ينام منهم من ترضعه في صدرها فجسها بيده، وكان ضرير البصر ونحيّ الصبي عنها ووضع سيفه على صدرها فأنفذه من ظهرها حتى إذا جاء الصبح سأله رسول الله (ﷺ) أقتلت ابنة مروان قال نعم يا رسول الله "قال نصرت الله ورسوله يا عمير" ثم إن رسول الله (ﷺ) قال لأصحابه "إذا أحببتم أن تنظروا إلى رجل نصر الله ورسوله بالغيب فانظروا إلى "عمير بن عدىّ""[2].

وأمر الرسول (ﷺ) بقتل (أبا عفك) وكان ممن اعتنقوا الدين اليهودي، والذي كان يناهز من العمر مائة عام، وكان قد هجا النبي فقتله بعضهم وهو نائم في فناء بيته[3].

إن الذي قتل (أبا عفك) "سالم ابن عمير" وذلك في شوال على رأس أحد عشرة شهراً، وقد بلغ من العمر مائة وستة، وكان يُحرض على عداوة النبي (ﷺ) وقد نذر سالم بقتله أو الموت دونه، وفي ذات ليلة صائفة نام "أبو عفك" بالفناء في بني

---

(6) هو عمير بن عدي الخطمي الصحابي وهو أحد سرايا الرسول ﷺ لقتل عصماء بنت مروان. (ينظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، مصدر سابق).

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص35.

(2) تقي الدين المقريزي، أمتاع الاسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والمتاع، ج/1، تحقيق محمد عبدالحميد النسفي، دار العلمية بيروت، سنة 1999، ص120.

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص35.

عمر بن عوف، فأقبل عليه سالم بن عمير بن ثابت فوضع السيف على يده فقتله[1].

وقتل في المدينة أيضاً كعب بن الأشراف[2]، الذي كانت أمه يهودية، وارتد بعد ما انقلب محمد (ﷺ) على اليهود وكتب قصائد يحرض فيها قريش للثأر من محمد (ﷺ) وأصحابه، وقد غضب النبي (ﷺ) والمسلمين بتشبيبه بنسائهم، قال النبي (ﷺ) من لي (بابن الإشراق) ولم يمض أخر النهار حتى جاؤوه برأسه، وكان المسلمون يرون أن هذه الأعمال وأمثالها إن هي إلا دفاعٌ مشروعٌ عن أنفسهم من الخونة، فمحمد (ﷺ) رئيس دولة ومن حقه أن يصدر الإحكام[3].

لقد ظهر عداء كعب بصورة علنية وبخاصة بعد انتصار المسلمين ببدر حتى إنه تمني لو بلعته الأرض خير له من أن يسمع بانتصار المسلمين، ولم يقف الأمر عن هذا الحد، وإنما ذهب يبكي قتلى قريش، ويحثهم على الانتقام بشعره وازداد أذاه حتى هجا المسلمين بشعره، وكل ما فعله كعب كان خرقاً مباشراً لأحدى بنود الوثيقة، وخاصة البند الذي يقول: "إن قريشاً لا تجار ولا من نصرها وأن بينهم النصر على من دهم يثرب من طرف من أطراف هذه الصحيفة" وضمن شروط الوثيقة أن كعب يستحق ذلك الجزاء، ومن أجل ذلك كان الرسول (ﷺ) حريصاً على قتله، فقال: من لي بابن الأشراف فقد أذاني فذهب في طلبه خمسة من شباب الأوس، وقتلوه بعد أن دبروا له مكيدة[4].

---

(1) تقي الدين المقريزي، أمتاع الإسماع بما للنبي من الأحوال والأموال المتاع، ج/ 1/ مصدر سابق، ص121-122.

(2) هو كعب بن الأشراف رجل من طئ وأمه يهودية من يهود بني النظير كان من أشد اليهود حقداً على الإسلام والمسلمين وإيذاء الرسول ﷺ قتل بعد غزوة بدر. (ينظر: موقع ويكيبيديا الحرة).

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص36.

(4) محمود شاكر، موسوعة تاريخ اليهود، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، ص174.

أما قصة إسلامه، وارتداده لم نجد لها ذكراً في كتب السيرة وغيرها ثم إنه لو ارتد فعلاً بعد إسلامه لكان قتله فرضاً من هذه الناحية، وقد قُتل دفاعاً عن الدين، وأهله خاصة وهم وسط تربص الأعداء بهم من كل جانب والجبهة الداخلية أخطر من الجبهة الخارجية على المسلمين ويبدو أن "ديورانت" يوافق اليهود في رأيهم في هذا الدين إذا يقول: ولم يعد يروق دين محمد (ﷺ) هذا لليهود وكان بالنسبة إليهم ذا نزعة حربية، وكان في بداية الأمر قريب كثيراً من دينهم، وبدأت سخريتهم من تفسير محمد (ﷺ) لكتابهم المقدس وقوله أنه هو الذي بشر به آباءهم، وكان جوابه أن قال "كما أوحي إليه أنهم حرفوا كتابهم، وقتلوا أنبياءهم، وأبوا أن يصدقوا المسيح"[1].

وكما سبق وذكرنا فإن "ديورانت" قد جعل من ضمن الأسباب الرئيسية الباعثة على كراهية اليهود الأسباب الاقتصادية في حين كان الدين سبباً زائداً في زيادة المنافسات"[2]، ونجده هنا يحاول إخفاء العامل الاقتصادي كسبب في هذا العداء، ومع هذا فإننا لا نستبعد الدين كسبب مهم في العداوة بالنسبة إليهم، ولكن ليس من المنطلق الذي أشار إليه "ديورانت" وبدأت عداوتهم عندما لم يحصل ذلك التشابه بين دينهم، ودين محمد (ﷺ) وخاصة عندما خالفهم الرسول (ﷺ) في كثير من التشريعات، وذلك بأمر من الله سبحانه وتعالى، ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر قوله (ﷺ) "خالفوا اليهود فإنهم لا يصلون في نعالهم ولا خفافهم"[3] وقوله (ﷺ) "إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم"[4] ومن ذلك مخالفتهم صوم

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص36.

(2) المصدر نفسه، ص 36.

(3) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب الصلاة في النعال، ج1/ ص176، رقم (652) والحاكم في المستدرك ج1/ ص391، رقم (756) وقال صحيح الاسناد، ووافقه الذهبي.

(4) أخرجه البخاري (شرح فتح الباري) كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ج6/ ص572 رقم 3462، ومسلم (شرح النووي، كتاب اللباس والزينة، باب مخالفة اليهود في الصبغ، ج/7، ص330، رقم 2103، من حديث أبي هريرة).

عاشوراء وغيره كثير كمخالفة يوم السبت بهدينا إلى الجمعة، وقد أمر الرسول (ﷺ) بمخالفتهم في النكاح في المحيض الثابت المنهى عنه بنص القرآن ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ المَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي المَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة، الآية 220]. حتى إنه قال (اصنعوا كل شيء إلا النكاح) فبلغ ذلك اليهود فقالوا "ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه"[1].

لذا فإن هذه المخالفة أمر إلهي وشرعي اتبعه الرسول (ﷺ) وبلغه أمته، ولا يقع في مضمون التسفيه، وإن عدّه اليهود كذلك، لأنه أنقص من شأن معتقداتهم وإبطالها مخالفاً لها، فهو أمر رباني ولم يختلقه.

ومن شأن كل هذه الأسباب التي ذكرناها أن تجعلهم يسخرون من تفسير محمد (ﷺ) لكتابهم المقدس، ويقصد بهذه السخرية ما جاءت به التوراة، والإنجيل من بشرى بهذا الرسول (ﷺ) وما يجعلنا نسخر من اليهود في هذا الموضع ذكر أمر بعثه وتأكيدهم على ذلك بتوعدهم وإنذارهم به للعرب وخاصة الأوس والخزرج لعداء بينهم، وقولهم لهم بأنهم سيناصرونه عليهم، وبعد ما بعثه الله أنكروه وكفروا به، ومصدر تأكيدهم هذا كتابهم المقدس (التوراة والإنجيل) وكما هو معروف للجميع أن الكتب المقدسة عند اليهود والنصارى سابقة كثيراً على الكتاب المقدس (القرآن) قال تعالى: ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الكَافِرِينَ ﴾ [البقرة، الآية 89] وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران، الآية 81].

---

(1) أخرجه مسلم (بشرح النووي) كتاب الحيض، باب جواز غسل الحائض رأس زوجها، ج/ 2، ص214، ورقم 302.

واما تكذيبهم للمسيح فيما يذكره "ديورانت" عنده فقال الله تعالى فيهم: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصف، الآية 6].

وفي عام (624م) إتخذ محمد (ﷺ) من مكة قبلة له بعدما كانت قبلتة إلى بيت المقدس[1]. وهناك من رأى أن اتخاذ بيت الله قبلة بعد ما كان بيت المقدس هو قبله محمد (ﷺ) والمسلمين كان هو بداية الخلاف، ولكن يمكن اعتبار هذا المحور من ضمن المسائل التي خالف فيها الرسول (ﷺ) اليهود في مسائل التشريعات، وقد ارتبط محمد (ﷺ) بهذه القبلة لأنها كانت قبلة أبيه إبراهيم عليه السلام، ولأنه كره موافقة اليهود، فقال لجبريل (وددت أن الله صرفني عن قبلة اليهود إلى غيرها) فقال جبريل (إنما أنا عبد مثلك، وأنت كريم على ربك فادع ربك وسله) وظل الرسول (ﷺ) ينظر إلى عنان السماء راجياً أن يأتيه جبريل بالذي سأل عنه ربه، فأنزل الله قوله: ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة الآية144].

ولما حوّلت القبلة قالت اليهود يا محمد ما أمرت بهذا وإنما هو شيء من عندك تبتدعه من تلقاء نفسك[2]، فنزل قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾ [البقرة، الآية 145].

غزوة يهود بني قينقاع:

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص36.

(2) النيسباوري، الوسط في تفسير القرآن، تحقيق وتعليق، عادل أحمد علي الموجود، علي محمد معوض، أحمد محمد جبره، عبدالمغني الجمل عبدالرحمن عويس، تقديم وقرظه عبد الحي الفرماوي، ط الأولى، دار الكتب العلمية بيروت، سنة 1415هـ، 1999م، ج1/ ص130.

إن يهود بني قينقاع هم أول من نقض العهد مع الرسول (ﷺ) خاصة بعد انتصار المسلمين في غزوة بدر واتخادهم المسجد الحرام قبلة لهم انفجرت نار الحقد والغدر والنفاق عند اليهود وسيبحثون لما حَالة عن وسيلة لنقض هذه الصحيفة التي لم تتوافق بما تهوى انفسهم.

بينما زارت فتاة مسلمة سوق بني قينقاع، وإذا بيهودي خبيث شبك قميصها من وراء ظهرها وعندما عرفت الفتاة بفعلته تلك بكت جراء ما لحق بها من عار، فانقض أحد المسلمين على اليهودي الأثيم فقتله[1].

لقد ذكر ابن هشام في سيرته أن اليهود طلبوا من الفتاة نزع الغطاء عن وجهها، وكشف عورتها، وعندما رفضت الفتاة ذلك عمد الصائغ إلى طرف ثوبها فقدَّه إلى ظهرها [2].

بذلك يكون بنو قينقاع قد نقضوا الصحيفة نقضاً صريحاً وقد عملت قريش على نقض هذه الصحيفة، بعد الهزيمة الساحقة في بدر، وقد استجاب لهم بنو قينقاع لأنهم هم أنفسهم لم يتحملوا هذه الهزيمة التي قويت بفضلها شوكة محمد (ﷺ) والمسلمون، فبينوا غدرهم المعهود فيهم والمجبولون[3] عليه حتى أنهم قالوا: لمحمد (ﷺ) "لا يغرنك انك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة إنا والله لئن حاربناك لتعلمن إنا نحن الناس"[4].

بذلك النقض والخيانة ردَّ عليهم الرسول (ﷺ) بحصار لمدة خمسة عشر يوماً حتى نزلوا على حكمه، وكان "عبدالله بن أبيّ[5] وعبادة بن الصامت"[6] حليفاً لبنو

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص36-37.

(2) عبدالسلام، هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، مرجع سابق، ص175.

(3) حاتم إسماعيل، محاضرات في التاريخ الإسلامي، مصدر سابق، ص151.

(4) محمود شاكر، موسوعة تاريخ اليهود، مصدر سابق، ص170.

(5) هو عبدالله بن أبي سلول القحطاني الخزرجي رأس المنافقين، كان أبوه سيد الخزرج، وكانت قبيلة الخزرج قد اجتمعت على أن يتوجوه ملكاً عليهم. (ينظر: موقع وكيبيديا الحرة).

قينقاع، فألحوا على الرسول (ﷺ) لكي يعفو عنهم حتى غضب منهم الرسول (ﷺ) لموقفهم منهم مما جعل أبن أبي يظهر سبب هذا الإصرار في العفو حتى أن الرسول (ﷺ) أمر بتركهم وإجلائهم، وقال عنهم لعنهم الله ولعن معهم ابن أبي[1].

لقد تحولت شجاعتهم المزعومة إلى ذعر وتوسل إلى النبي (ﷺ) ليتركهم وشأنهم، وكان هذا أقل ما يستحقه أولئك الغادرون قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ﴾ [الأنفال، الآية 58].

ويقول "ديورانت" عن حصارهم "بعد ما جمع النبي أتباعه حاصرهم خمسة عشر يوماً، حتى استسلموا فقبل استسلامهم وأمرهم أن يخرجوا بقضهم وقضيضهم من المدينة ويتركوا وراءهم جميع ممتلكاتهم، وكان عددهم في ذلك الوقت نحو سبعمائة"[2].

لقد كان سبب هذا الاعتداء على الفتاة هو انتصار الرسول (ﷺ) في غزوة بدر لأنها تُعد نقطة تحول القوة الإسلامية التي ستقضي على ما كانوا يسعون ورائه من سلطة ومال، ناهيك عن اختلاف العقائد بين دينهم والإسلام حيث إن الرسول (ﷺ) أتباعه في ازدياد متواصل، وأتباع اليهود في إنكماش وعنصرية متقوقعة عليهم لا يريدون لها منازع.

غزوة أحد:

يرجع بنا "ديورانت" إلى قريش وغزوة أُحد، ومدى إعجابه الشديد بأبي سفيان لأنه استطاع أن يكظم غيظه وينتصر بعد يمينه لمدة عام كامل ويقاتل محمداً (ﷺ)[3] من المعلوم بأن قريشاً منذ غزوة بدر وهي تعد العدة لثأرها من محمد (ﷺ) وأصحابه، واستعادة مكانتهم بين العرب، ولكن "أبا سفيان" هذا من أشدهم تحمساً

---

(6) هو عبادة بن الصامت قيسي الأنصاري الخزرجي أبو الوليد كان من سادات الصحابة توفي سنة 34هـ. (ينظر: الأعلام للزركلي"، مصدر سابق).

(1) عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، مرجع سابق، ص74-75.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص37.

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق ، ص37.

للثأر هو وزوجته هند بنت عتبه[1]، وكان أول من استجاب بما له من قافلة بدر لمعونة حرب المسلمين[2].

في بداية عام (625)م قاد أبو سفيان جيشه الذي يبلغ عدده ثلاثة آلاف مقاتل إلى جبل أحد على بعد ثلاثة أميال شمال المدينة، واصطحب الجيش معه خمس عشرة من النساء من بينهم زوجات أبي سفيان، ليزداد الجند حماسة بأغانيهن الحربية، وتحريضهن إياهم على القتال وإذا رجعنا إلى كتب السيرة لن نجد ذكر لهذا العدد من النساء اللواتي خرجنا لمعركة أحد، وكانت من بينهم زوجة أبي سفيان هند بنت عتبة لا زوجاته، وقد خرج غيرها من النساء كل من أم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة[3]، وفاطمة بنت الوليد بن المغيرة[4]، و"برزه بنت مسعود"، و"بريطه" بنت منبه" كان هذا مجمل عدد النساء اللواتي اصطحبهم أزواجهم لمعركة أحد، ولم يصطحبوهم لكي يثيرون بهم حماسة مقاتليهم كما ادعى "ديورانت" وإنما اصطحبوهم حتى لا يفرون من المعركة ويتركوهن[5].

كان جيش المسلمين في هذه المعركة لا يزيد على ألف مقاتل وهزم المسلمون في هذه المعركة وحارب فيها محمد (ﷺ) بشجاعة وأصيب فيها بعدة جروح وتم حمله من ميدان المعركة[6].

---

(1) هي هند بنت عتبة بن ربيعة العمشية القرشية الكتانية إحدى نساء قريش اللاتي كان لهن شهرة عالية زوجة أبي سفيان وأم معاوية بنت أبي سفيان أسلمت يوم الفتح وماتت يوم وفاة أبي بكر الصديق. (ينظر: الموسوعة العربية العالمية، مصدر سابق).

(2) محمود شيت خطاب، الرسول القائد، ط السادسة، دار الفكر، بيروت، سنة 1422هـ، ص173.

(3) هي أم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومية بنت أخي أبي جهل عمرو بن هشام عدو الله ورسوله. (ينظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، مصدر سابق).

(4) هي فاطمة بنت الوليد بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم أخت خالد بن الوليد أسلمت يوم الفتح. (ينظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، مصدر سابق).

(5) عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، مرجع سابق، ص177.

(6) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص37.

لقد كان جيش المسلمين يقارب ألف مقاتل قبل بداية المعركة غير أن عبدالله بن أبي بن سلول المنافق انخذل عن المسلمين في الطريق إلى أُحد ومعه ثلاث مائة من المنافقين، ودخل المسلمين هذه المعركة وعددهم سبعمائة مقاتل.

وبدأت المعركة وقتل المسلمين عدداً لا بأس به من أعدائهم فولوا الأدبار وكاد المسلمون ينتصرون في هذه المعركة لولا مخالفة فرقة "عبدالله بن جبير"[1] وصية الرسول (ﷺ) والذي كان شديد الحرص على ملازمة هذه الفرقة مكانها وعدم مغادرتها إلا بعد إعطاء الأمر منه (ﷺ) بذلك فقال لهم "إن رأيتمونا تتخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم وأن رأيتمونا هزمنا القوم أو ظاهرناهم وهم قتلى فلا تبرحوا مكانكم حتى أرسل إليكم"[2] ولكن هذه الفرقة لم تستطع تملك نفسها عندما رأت انغماس المسلمين في أخذ الغنائم بعد ما أدبرت قريش، فضنوا أن المعركة حُسمت لصالحهم، ولما رأي قائدهم ذلك ذكر لهم وصية الرسول (ﷺ) وإلى هذه اللحظة والمسلمون منتصرون ولما نزلت الفرقة عن مكانها الذي أمرها به الرسول (ﷺ) وأقبلت حينها على أخذ الغنائم، ولم يبق من هذه الفرقة سوى "عبدالله" قائدها ومعه عشرة آخرون انفتحت أما خالد بن الوليد الثغرة التي كان النبي (ﷺ) حريصاً على سدها لحماية ظهر المسلمين لتضع خالد ومن معه بسيوفهم خلف المسلمين ليضعوا تلك السيوف في رقاب المسلمين لتفرقهم وتتسبب هذه المخالفة لأمر الرسول (ﷺ) في هزيمة المسلمين.

"وكان ممن قتل في هذه المعركة حمزة عم النبي (ﷺ) ومضغت كبده "هند" أشهر زوجات "أبي سفيان"، وكان أبوها وعمها وأخوها قد قتلوا جميعاً في غزوة بدر،

---

(1) مصطفى بن حسن السباعي، السيرة النبوية دروس وعبر، ط الثالثة، الناشر المكتب الإسلامي، سنة 1405هـ، 1985م، ص84.

(2) نقلاً عن المصدر نفسه، ص84.

وكان حمزة هو من قتل أباها، ولم تكتفٍ بهذا بل صنعت لنفسها من جلده وأظافره خلاخيل وأساور"[1].

إن الفاجعة التي تلقتها "هند" في غزوة بدر جعلتها تنذر بعدم ملامسة طيباً، ولا حتى فراش أبي سفيان وقامت بتحريض الناس حتى جاءت واقعة أُحد[2]، وقد جاء في (البداية والنهاية) لابن كثير "أن النسوة أخذن يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله (ﷺ) يجدعن الأذان والأنوف حتى اتخذت هند من أذان الرجال وأنوفهم خدما وقلائد وأعطت خدمها قلائدها وقرطها وحشياً وبقرت عن كبد حمزة فأكلتها فلم تستطع أن تستسيغها فلفضتها"[3].

إن هذه الأفعال من "هند" لم تكن بالأمر الغريب لأن عداءها كان شديد الأمر الذي جعلها تخرج إلى معركة أحد وتشد الهمم حتى فعلت ما فعلت، ولكن الأمر الذي لم يأتٍ بذكره "ديورانت" هو عفو الرسول (ﷺ) عليها وزوجها يوم الفتح مع القدرة على الأخذ بالثأر لعمه الذي قتل ومثل بجسده.

غزوة يهود بني النضير:

بعد انقضاء ستة أشهر على غزوة بدر شفي النبي (ﷺ) واستطاع أن يهاجم بني النضير لأنهم أعانوا قريشاً على المسلمين وكانوا يدبرون لمقتل محمد (ﷺ) وبعد حصاره لهم ثلاثة أسابيع سمح لهم بالخروج من المدينة شريطة أن تأخذ كل أسرة معها حمل بعير، واستولى النبي (ﷺ) على ممتلكاتهم من بساتين النخيل[4].

عندما هاجم النبي (ﷺ) بني النضير لم يمضِ على غزوة أُحد أكثر من خمسة أشهر، وليس ستة أشهر وكان ذلك في أربع للهجرة (625)م.

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص 37.

(2) محمد حسن هيكل، حياة محمد، مصدر سابق، ص113.

(3) ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق عبدالله عبدالمحسن التركي، ط الأولى، دار هجر للطباعة والنشر، الجيزة، سنة 1997م، ص37.

(4) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج/13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص38.

وقد هاجمهم النبي (ﷺ) لأنهم غدروا به وحاولوا قتله عندما استعان بهم في دية قتيلين مجاهدين للمسلمين قتلهما (عمرو بن أُمية الضمري)[1] خطأ دون علم بعهدهما، فأرسل إليهم الرسول (ﷺ) محمد بن مسلمة[2] وقال له "أذهب إلى يهود بني النضير وقل لهم إن رسول الله أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلادي لقد نقضتم العهد الذي جعلت لكم بما همتم به من الغدر بي لقد أجلتكم عشراً فمن رأي بعد ذلك ضربت عنقه[3]" أدرك اليهود أنه لا مناص من خروجهم فأخذوا يتجهزون للرحيل، إلا أن منافقي المدينة وعلى رأسهم (عبدالله بن أبي سلول) أرسل إليهم أن تحصنوا وتمنعوا ونحن سننصركم على محمد وصحبه وعند ذلك قرر اليهود عدم الرحيل ومواجهة النبي (ﷺ) وأرسلوا إلى النبي (ﷺ) من يقول له (لن نخرج فافعل ما بدا لك) فاحتموا بحصونهم ونقلوا الحجارة وأقاموا منها متاريس وخنادق يحتمون خلفها أثناء القتال[4].

وعندما علم الرسول (ﷺ) بذلك تحرك من فوره بجيشه إلى ديارهم وحاصرهم عشرين ليلة، ولما رأى عزم اليهود على القتال ممتنعين بحصونهم أمر جيشه بقطع نخيلهم وحرقه كي يتراجعوا عن القتال بغية المحافظة على ممتلكاتهم مما جعل القبائل المعادية للرسول (ﷺ) تتحرك من فورها لنجدتهم، وكعادته "عبدالله بن أبى سلول" المنافق يعود إلى لغة المساومات مع الرسول (ﷺ) طالباً لهم منه تأمينهم على الأموال والدماء والأبناء لكي يخرجوا، ووافق الرسول (ﷺ) على ذلك مقابل ترك

---

(1) هو عمرو بن أُمية بن خويلد بن عبدالله بن اياس أبو أمية الضمري صاحب رسول الله ﷺ وأحد شجعان العرب وأكثرهم جرأة. (ينظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة، مصدر سابق).

(2) هو أبو عبدالله محمد بن مسلمة الأنصاري صحابي من الأوس من المسلمين الأوائل شهد بدراً وما بعدها من الغزوات توفي سنة 43هـ. (ينظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة، مصدر سابق).

(3) محمود شيت خطاب، الرسول القائد، مصدر سابق، ص279.

(4) عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، مرجع سابق، ص206.

أموالهم إلا ما حملت الإبل[1]، يقول "ديورانت" وأخذ محمد (ﷺ) لنفسه بعض من هذه الأموال ووزع ما تبقى منها على المهاجرين ويعني "ديورانت" بذلك ان النبي (ﷺ) أخذ من هذه الأموال لنفسه (نصيب الأسد) في حين أن النبي (ﷺ) قام بتوزيع كمية كبيرة من هذه الأموال على الفقراء والمحتاجين فضلاً عن كون هذه الأموال تعد من ضمن الفئ لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب، وقد أتبع النبي (ﷺ) في توزيعها ما جاء به القرآن: قال تعالى: ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر الآية 7].

وفي مقابل ذلك أخذ الرسول ﷺ أرضاً يوزعها ويدخر منها قوت أهله عاماً[2]، ولم يكن أول من أخذ كما ادعى "ديورانت" وإنما قدم عليه وعلى المسلمين من هم أشد حاجة.

وفي نظر "ديورانت" أن ما فعله محمد (ﷺ) مع يهود بني النضير يعد تأمين نفسه من الجماعات المعادية بالمدينة وضواحيها فهذه الجماعات تحارب ضده مع قريش وأهل مكة[3].

نقول "لديورانت": إنما فعله النبي (ﷺ) مع يهود بني النضير كان جزءاً مستحقاً لنقضهم العهد على غرار ما فعل قبلهم بنو جلدتهم من بني قينقاع، ومع ذلك لم يقتل منهم الرسول (ﷺ) إلا من تجابه معه المسلمون أو ما شابه ذلك وضمن لهم حياتهم مقابل خروجهم من المدينة، وكان في مقدوره ان يفعل بهم ما يحلو له.

معركة الخندق:-

(1) عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، مرجع سابق، ص206.

(2) الشيخ الحضري، نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، مصدر سابق، ص111.

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص38.

عادت قريش وعاد أبو سفيان إلى مهاجمة المسلمين في عام (626م) بجيش يبلغ عدده عشرة آلاف مقاتل بمساعدة يهود بني قريضة، وبدا لمحمد (ﷺ) عدم قدرته على مواجهة هذه القوة الكبيرة في ساحة المعركة، فدافع عن المدينة بحفر خندق حولها، وما كان من قريش إلا ان حاصرتها عشرين يوماً حتى شتتت شملها الأمطار والأعاصير، مما جعلهم يرجعون إلى أوطانهم[1].

كانت قريش متأكدة بأن ما أصاب المسلمين من هزيمة في غزوة أحد جعلهم مرهوبي الجانب، ومع ذلك كانت قريش متأكدة أن كسر شوكتهم والقضاء عليهم ليس بالأمر اليسير، هذا وقد تحالفت مع قريش القبائل المناهضة للرسول (ﷺ) والمسلمين، وكل هذه القبائل كانت تعتقد أن هذه المعركة هي معركة الحسم التي ستقضي على المسلمين وتبيدهم على بكرة أبيهم، لذلك فإن معركة الخندق أظهرت للمسلمين نوايا القبائل التي كانت مناهضة للرسول، والتي كانت مناوءة له، وهذه المعركة أشعل فتيلها بنو النضير من اليهود والذين انتشروا بين القبائل يؤلبونها فكانت قريش تبحث عن تحالف من القبائل تقوده هي يجتمع لقتال محمد (ﷺ) وأتباعه ويقضي عليهم فوجدت مبتغاها الذي تبحث عنه للقضاء عليه لذلك خرجت الأحزاب باتجاه المدينة فعلم رسول الله (ﷺ) بالخبر فأمر المسلمين بحفز خندق حول المدينة، وشارك في حفره بنفسه، ووصلت قريش إلى حدود المدينة بعدما انتهى المسلمون من حفر الخندق[2].

سعى (حُيَيُّ بن أخطب النضري)[3] من جانبه لنقض عهد بني قريضة مع النبي (ﷺ) لدخولهم في المعركة، فأقبل عليه (كعب بن أسد القرضي)[4] صاحب

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص38.

(2) حاتم إسماعيل، محاضرات في التاريخ الإسلامي، مصدر سابق، ص123–124.

(3) هو حيي بن أخطب النضري سيد بني النظير في الإسلام، وهو ولد أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب كان من أعلم اليهود بدينهم وكان من أشد مقاتليهم أمر به النبي ﷺ فضرب عنقه لشدة عدائهم. (ينظر: موقع وكيبيديا الحرة).

عهد بني قريضة وعهدهم، والذي بدأ عليه عدم رغبة منه في نقض هذا العهد، ولكن حُيَيٌّ ما تركه إلا والعهد قد نُقض[1].

يقول (نبيل فازيو) "إن هذا الدور الإدماجي بين القبائل واليهود في هذه الغزوة" ستفقد فيه قريش أخر فرص قضائها على النبي (ﷺ) بعد تفتت تحالفها مع القبائل واليهود الراغبين في استرجاع أرضهم في أقرب وقت ممكن"[2].

ولكن النبي (ﷺ) عرف كيف يقود معركته إلى بر الأمان حيث يعد حفر الخندق من الأساليب الحربية الجديدة التي لم تكن متداولة بين العرب، بالإضافة إلى أسلوب المفاوضات مع بعض القبائل الذي لعب دوراً فعالاً في تفكيك التحالف بين تلك القبائل.

فظّل المشركون يحومون حول المدينة وخندقها دون جدوى تذكر وكانوا في حالة أشبه ما يكون بالدوران حول حفرة عميقة لا يستطيعون عبورها إلى المدينة، ولا الرجوع إلى أوطانهم دون أن يحققوا مبتغاهم، ولا زالوا على هذه الحالة بضعاً وعشرين يوماً حتى أرسل الله على المشركين رياحاً عاصفة في تلك الليالي الشاتية فشتت شملهم وانكفأت قدورهم وطرحت أبنيتهم، وانهزموا في هذه المعركة شر هزيمة[3]. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾ [الأحزاب، الآية 9].

غزوة بني قريضة:-

---

(4) هو كعب بن أسد القرضي من بني قريضة شاعر جاهلي له مناقضات مع قيس بن الخطيب في يوم بعاث. (ينظر: الأعلام للزركلي"، مصدر سابق).

(1) عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، مرجع سابق، ص216.

(2) نبيل فازيوا، محمد (ﷺ) الرسول المتحيل، مصدر سابق، ص200.

(3) عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، مرجع سابق، ص223.

بعد انتهاء معركة الخندق انطلق محمد (ﷺ) ومعه ثلاثة آلاف مقاتل من المسلمين وهاجم يهود بني قريضة فلما استسلموا خيرهم بين الإسلام والموت[1]، وما يكاد المسلمون يضعون أسلحتهم بعد معركة الخندق حتى جاء الأمر من الله إلى الرسول (ﷺ) يأمره بالسير إلى بني قريضة، ويقول: له إن الملائكة لم تضع سلاحها بعد، ومن شدة حرص الرسول (ﷺ) إلى الإستجابة لأمر ربه طلب من الصحابة سرعة التعجل فقال: لهم "لا يصلين أحدكم العصر إلا ببني قريضة"[2].

لم يكن الرسول (ﷺ) ليخيرهم بين الإسلام والموت بعدما نقضوا عهدهم معه فإسلامهم مفروغ منه في هذه الحالة، وذلك يدل على عدم صحة ما أدعاه "ديورانت" بالتخيير بين الإسلام والموت لذلك حاصرهم الرسول (ﷺ) بعدما انظموا إلى الأحزاب وانقلبوا على المسلمين حتى خشي الرسول (ﷺ) انقلاب يهود شمال المدينة عليه هو وجيشه بعد احتمائهم في المدينة وحفر الخندق، فهم (أي اليهود) لا عهد لهم ولا ذمة وإن بعضهم من بعض ولذا فقد حاربهم الرسول (ﷺ) بإذن ربَّه ليتبين لهم أنه الحق من ربهم.

صلح الحديبية:

خرج الرسول (ﷺ) وأصحابه قاصدين بيت الله الحرام عُمرةً، ولم يكونوا قاصدين محاربة قريش، وقد يكون بينهم من اشتد حنينه إلى بيته وأسرته في مكة إذا صح ما يقوله "ديورانت" ولكن لم يقدم حبه هذا على حبه لمكة أو هناك اختلاف كبير بين هذا وذاك، وعندما علمت قريش بقدوم محمد (ﷺ) وأصحابه أقسمت ألا يدخلها عليهم أبداً، وأخذ "خالد بن الوليد" جيشه لأعتراض الرسول (ﷺ) فسلك الرسول (ﷺ) طريقاً غير ذلك الطريق لتجنب هذا الاحتكاك حتى لا يسبق السيف

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص38.
(2) عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، مرجع سابق، ص225.

الرأي لأن الرسول (ﷺ) كان يطمح إلى صلحٍ معهم حتى أنه قال: "لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتم إياها"[1].

يقول "ديورانت" وفي هذه الأثناء أرسل محمد (ﷺ) إلى قريش يعرض عليهم الصلح، ويتعهد لهم بعدم اعتراض قوافلهم التجارية إذا سمحوا له بأداء شعائر الحج في موسمه[2].

لقد أرسل إليهم الرسول (ﷺ) "عثمان بن عفان" ليبلغهم بان محمداً (ﷺ) ما جاء لحربهم، وإنما جاء ليتم عُمرته وينصرف، ورفضت قريش ذلك من محمد (ﷺ) عندها دعا محمد (ﷺ) قومه للمبايعة المعروفة ببيعة الرضوان، وعند سماع قريش بذلك أرسلت وفودها إلى محمد (ﷺ) تطالب المصالحة معه، وكان ذلك ما يتمناه النبي (ﷺ) وقد حصل، وكانت من ضمن ما اشترطته قريش على محمد (ﷺ) أن يرجع وأتباعه هذا العام عن مكة ثم يعودوا إليها العام المقبل ويقيمون فيها ثلاثة أيام والسيوف في أغمادها، وكذلك وقفاً للحرب بين الطرفين لمدة عشر سنين[3].

يقول "ديورانت" وأدهش محمد (ﷺ) أتباعه بقبول هذا الصلح[4] ولعل "عمر بن الخطاب" كان على رأس المتسائلين وربما لم يستطع تفهم موقف النبي (ﷺ) من هذا الصلح الذي سيقلب مجرى الأحداث على قريش، وربما كلام عمر من الجانب العقلي المنطقي ممكن رفض هذا الصلح إذا ما نضرنا إلى تاريخ العلاقات بينهم، وبين قريش، لذلك قال: للنبي "ألست برسول الله قال: بلى" قال: ألسنا بالمسلمين وهم المشركون قال: بلى، قال: على ما نعطي الدنيَّة في ديننا، وبعد ما جعله الرسول (ﷺ) يسأل عما يدور في خلده أجابه الرسول (ﷺ) بجواب لا يمكن أن يسأل بعده

---

(1) الشيخ الخضري، خاتم النبيين، مصدر سابق، ص743-745.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص39.

(3) حاتم إسماعيل، محاضرات في التاريخ الإسلامي، مصدر سابق، ص135.

(4) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص39.

عمر مرة ثانية، إذ قال: له النبي (ﷺ) "أنا عبد الله ورسوله ولن أخالف أمره" فكان عمر يقول: مغبة فعلته هذه "ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة لكلامي الذي تكلمت به، حتى رجوت أن يكون خيراً"[1] وكان معنى جواب النبي (ﷺ) لعمر رضي الله عنه أن هذه المعاهدة تمت بأمر من الله تعالى، وأن فيها الكثير والكثير، ويكفيك اعتراف قريش بالدين الإسلامي من الناحية الميدانية، وتعهدها بترك مكة لهم في العام القادم، وأقرّت لهم بحقهم في الدخول والحج.

غزوة يهود خيبر:-

بعد صلح الرسول (ﷺ) مع قريش أغار الرسول (ﷺ) على يهود خيبر في مساكنهم الواقعة في الشمال الشرقي من المدينة على مسيرة ستة أيام منها، ودافع اليهود عن أنفسهم بشراسة لم يسبق لها مثيل، وقتل منهم في هذه الغارة ثلاثة وتسعون رجلاً تم سلم الباقون آخر الأمر[2].

فبعد ما أمن الرسول (ﷺ) شرّ قريش بصلحه معهم كان لابد له من مطاردة بقايا جيوب الكفر والنفاق من اليهود الذين تجمعوا في خيبر بعد ما طردهم الرسول (ﷺ) وعقب صلح الحديبية أخذوا في تجميع أنفسهم، وإعداد العدة للقضاء على المسلمين، وقد بادر يهود خيبر وبعثوا إلى بني عمهم في تيماء وفدك ووادي القرى يدعونهم للمشاركة في هذه المعركة[3].

فخرج إليهم الرسول (ﷺ) في ألف وستمائة رجل من المسلمين، واتخذ اليهود قرار المواجهة بعد مشاورات دارت بينهم، لقد اتسم قتال المسلمين ضد حصون خيبر المتبقية بالشدة والاستبسال حتى تمكَّن المسلمون من احتلالها الواحدة بعد الأخرى

---

(1) عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، مرجع سابق، ص256.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص39.

(3) حاتم إسماعيل، محاضرات في التاريخ الإسلامي، مصدر سابق، ص140.

وقد استمر القتال لمدة شهر تقريباً اضطر اليهود في نهاية الأمر إلى طلب الصلح فوافق الرسول (ﷺ) على ذلك بعد أن تكبدوا من الخسائر في الأرواح ثلاثة وتسعين قتيلاً أما خسائر المسلمين فاقتصرت على خمسة عشر شهيداً[1].

بعد هذا الصراع الذي أنهك اليهود وكاد يقضي عليهم جميعاً، لم يبق أمامهم خيار سوى طلب المصالحة يقول: "ديورانت" فسمح لهم الرسول (ﷺ) بالبقاء في أراضيهم على أن يسلموا له ممتلكاتهم، ونصف محصولاتهم[2].

وترك لهم الرسول (ﷺ) أرضهم لأنهم قالوا له نحن أعلم بها منك وأعمر لها فصالحهم على النصف، وكذلك اشترط عليهم إذا أردنا إخراجكم منها أخرجناكم[3].

ويذكر (وات) بأن سقوط خيبر والمستعمرات اليهودية الأخرى كان نهاية المسألة اليهودية بالنسبة للرسول (ﷺ) وعلى الرغم من بقاء بعض اليهود في المدينة بعد سقوط خيبر لكنهم أصبحوا عاجزين سياسياً[4].

أخيراً بعد الكثير الذي قدمه محمد (ﷺ) لليهود من معاهدات، واحترام لحقوقهم، وحرية العبادة لدينهم الذي يدينون به، أبوا إلا اتباع طريق أجدادهم في الغدر وقتل الأنبياء بالاعتداء عليه، وقد جاء في كتاب المؤلفين (ديورانت، وزوجته) (دروس التاريخ) اعترافاً فحواه أن اليهود قدموا لمحمد (ﷺ) الشيء الكثير والكثير، وخاصة مما اشتمل عليه القرآن[5]، ولو كان هذا صحيحاً لما حاربوه كما هو

---

(1) محمود شاكر، الموسوعة اليهودية، مصدر سابق، ص207.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص39.

(3) عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، مرجع سابق، ص265.

(4) هاشم عبدالراضي محمد عيسى، جمال فوزي محمد، صفحات من السيرة النبوية، ج/ 2، مصدر سابق، ص247.

(5) ول ديورانت، دروس التاريخ، ترجمة وتقديم، على شلش، ط الأولى، دار الجميل القاهرة، سنة 1999، ص27-28.

معروف، وظل الخلاف قائماً بينهم حتى وفاته (ﷺ) وعلى الرغم من أن بعضهم أسلم وتمرد على اليهود فالتاريخ قد شهد بمؤامراتهم منذ عهد الرسول (ﷺ) إلى وقتنا الحاضر.

عُمرة القضاء:-

في عام 629م، 7هـ وفي نفس الموعد الذي صد فيه كفار قريش محمداً (ﷺ) من دخول مكة، وحين جاء وقت قضاء العهد الذي عقده معهم محمد (ﷺ) في الصلح فسمحوا له بدخولها، وكان عددهم ألفين مسالمين، وكانت قريش قد انسحبت إلى شعب التلال لتجنب الاحتكاك بالمسلمين[1].

إن انسحاب قريش من مكة حين دخلها محمد (ﷺ) وأتباعه لم يكن بقصد تجنب الإحتكاك كما يدعى "ديورانت"، وإنما خروجهم كان من ضمن الشروط المتصالح عليها الطرفان.

وقد أعلن "ديورانت" إعجابه الشديد بنظام المسلمين فقال وطاف محمد (ﷺ) وأتباعه بالكعبة سبع مرات ومس محمد (ﷺ) الحجر الأسود بعصاه مظهراً له دلائل الإجلال[2]، وهذا الطواف بالبيت واللمس للحجر الأسود، لا يُعد سوى عمل من أعمال الحج والعمرة، روى عن "ابن عباس"[3] رضي الله عنهما قال: "طاف النبي ﷺ بالبيت على بعير كلما أتى الركن أشار إليه بشيء كان عنده وكبر"[4].

فهذا الحديث يؤكد على الإشارة إلى الحجر والتي يُكتفَي به عند الإزدحام عليه، ولا يحمل هذا الحجر أي مظهر من مظاهر الإجلال التي زعمها "ديورانت"

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص 40.

(2) المصدر نفسه، ص40

(3) هو ابن عباس عبدالله بن عبدالمطلب القرشي الهاشمي أبو العباس، لازم رسول الله ﷺ وروي عنه الأحاديث الصحيحة، وشهد مع علي الجمل وصفين لقب ترجمان القرآن، وحبر الأمة، والبحر، وينسب إليه كتاب في تفسير القرآن، توفي سنة 68هـ. (ينظر: الأعلام للزركلي"، مصدر سابق).

(4) أخرجه البخاري، كتاب الحج، باب من أشار إلى الركن إذا أتى عليه رقم (1612).

فعن ابن عمر[1] أن عمر، قبل الحجر وقال: "أنني لأقبلك وأني لأعلم أنك حجر، ولكني رأيت رسول الله (ﷺ) يقبلك"[2] وما كاد النبي (ﷺ) ينتهي من الطواف واستلام الركن حتى نادى ونادى بعده المسلمون (لا إله إلا الله)[3].

لقد ردد النبي (ﷺ) هذا الدعاء يوم عرفة ووصف النبي (ﷺ) هذا الدعاء بأنه خير ما قلت أنا والنبيين من قبلي – أي يوم (عرفه) – لا إله إلا الله وحده لا شريك له – له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير.

يقول: "ديورانت" إن المسلك النظامي الذي اتبعه المسلمون، ووطنيتهم، والتقوى التي يتحلون بها كان له الأثر الكبير في نفوس أهل مكة مما جعل عدداً من ذوي المكانة العالية في قريش يدخلون في دين الإسلام، ومن بينهم "خالد بن الوليد" و"عمرو" الذين صاروا من أعظم قواد المسلمين[4]، وإلى جانب هذا النظام كان يتحتم على "ديورانت" أن يذكر الجانب الأهم ألا وهو التأثير الروحي والمعنوي الذي يسري في دم المسلمين، والذي أوتي ثماره فاسلم خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة، فتعززت جبهة الإسلام وتعاظمت بهم نفوذه، فتلاحق ورائهم عددٌ كثيرٌ من أهل مكة إلى الإسلام.

فتح مكة:-

لقد كانت عمرة القضاء قضاءً تاماً على روح العناد، والمقاومة في قريش، وسدد من خلالها محمد (ﷺ) ضربة قوية إلى عقلاء قريش حتى انضموا إلى دينه والذي جعل الثلاثة الذين ذكرناهم آنفا يدخلون في هذا الدين، ومن تبعهم، وأصبحت

---

(1) هو عبدالله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي شهد الخندق وما بعدها، كان من المكثرين بالرواية عن الرسول ﷺ وكان يقتدي به في كل أمر. (ينظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة، مصدر سابق).

(2) أخرجه البخاري،كتاب الحج، باب تقبيل الحجر الأسود والطواف، رقم (1270).

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص 40.

(4) المصدر نفسه، ص40.

مكة في حكم البلد الذي فتح أبوابه ليستقبل بكل حفاوة دخول المسلمين إليه، ويمكن اعتبار عمرة القضاء هي التي فتحت القلوب، بينما تركت الأبواب مغلقة حتى فتحتها غزوة الفتح.

كل هذه المجريات لم تثني "ديورانت" عن موقفه، وما زال يدعي بأن محمداً (ﷺ) قرر الإستيلاء على مكة عنوة لأمتلاكه القوة الكافية لذلك ويخبرنا من جهة أخرى بأن قريشاً وإحدى قبائلها المناوءة لها بعد عامٍ من صلحها مع محمد (ﷺ) عملت على نقض عهدها معه[1].

من حقنا أن نطرح سؤالاً "لديورانت" لماذا لم يستولِ محمد (ﷺ) على مكة عنوة كما يدعي قبل ان تخل قريش بعهدها معه مع تعلق قلب الرسول (ﷺ) بمكة وانتظاره لهذه اللحظة بفارغ الصبر؟

لقد بادرت قريش لنقض هذا العهد لأنها تدرك أمانة وصدق محمد (ﷺ) وتدرك بأن محمد (ﷺ) لن يقوم بنقضه مهما حصل، ولن يتعرض لقريش طيلة المدة المتصالح عليها.

على ما يبدو أن قريشاً لم يعد يروق لها الصلح حيث لم يخدم مصالحها بالشكل الذي أرادته وتوقعته فرأت أن نقضهُ سيحرك رحى الحرب من جديد علّها تستغل هذه الفرصة وتستطيع هي ومن تحالفت معه من القبائل القضاء عليه، واتباعه لذلك تجد قريشاً ارتضت أن تمد السلاح لحلفائها من بني بكر والذين دخلوا في عهدها[2].

فاعتدى بنو بكر على بني خزاعة التي دخلت في عهد محمد (ﷺ) فقتلت منها حوالي عشرين رجلاً أخذت بثأر لها من هذه القبيلة[3]، يقول: "ديورانت"فجمع

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص40.

(2) عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، مرجع سابق، ص277.

(3) مصطفى السباعي، السيرة النبوية دروس وعبر، مصدر سابق، ص100.

محمد عشرة آلاف رجل وزحف بهم على مكة وأدرك أبو سفيان قوة المسلمين فسمح لهم بأن يدخلوا مكة بلا مقاومة[1].

يخبرنا هذا المشهد الذي ذكره (يدورانت) آنفاً بأن محمداً (ﷺ) مقبلاً على مكة بعشرة آلاف مقاتل دون أي رحمة منه حتى يُبيد كل من بداخلها، غير أن ما حصل في تلك الحادثة يجرنا بعيداً عن هذا العنف الذي يصوره لنا.

من المؤكد أن دخول محمد (ﷺ) إلى مكة بجيش قوامه عشرة آلاف مقاتل يمكن اعتباره قوة ساحقة لا تبقى على أحد، ومع هذه القوة دخلها وهو يعطي الأمان والعفو لا الفزع وما قاله: يومها (ﷺ) هو خير دليل على ذلك "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن إلى ان قال ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن" ومما ينفي مزاعم "ديورانت" عدم إعطاء النبي الأمر بالقتال للمسلمين إلا لمن قاتلهم، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل وصل إلى حد العفو المطلق، ومن بين الذين عفي عنهم أشد أعدائه "أبا سفيان"، و"هند" التي مثلت بجثمان حمزة عم الرسول (ﷺ) بعد قتله، وأكدا "ديورانت" ذاته على هذا العفو الكريم بقوله وكان جواب محمد (ﷺ) جواباً كريما فقد أعلن عفواً عاماً عن جميع أهل "مكة عدا اثنين أو ثلاثة من أعدائه"[2] وكان قوله لهم (ﷺ) يومها ما ترون أني فاعل فيكم؟ قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم قال اذهبوا فأنتم الطلقاء"[3].

لم يمنع محمداً (ﷺ) شيء من الأخذ بثأره وثار عمه ومن مات من المسلمين إلا لأنه لم يبعثه الله لهذا الشيء، وإنما بعثه ليقضي على كل هذه الآثار من قتل وانتهاك حرمات، لذلك نجده يقول لهم (ﷺ)، اليوم أقول لكم ما قال أخي يوسف من قبل: ﴿ قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف، الآية 92].

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص40.

(2) المصدر نفسه، ص40.

(3) عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، مرجع سابق، 288 إلى 293.

أما الذين استثناهم رسول (ﷺ) حين أمن الناس فهم عبدالعزي بن خطل، فقد أسلم وبعثه النبي (ﷺ) جامعاً للزكاة، وبعث معه رجلاً من المسلمين فقتله وارتد ولحق بالمشركين بمكة فوجد يوم الفتح متعلقاً بستار الكعبة، وكذلك عبدالله بن سعد بن أبي سرح، وكان كاتباً للرسول (ﷺ) ثم ارتد ولحق بمكة فاستأمن له عثمان بن عفان من رسول الله (ﷺ) فاسلم وحسن إسلامه وقتل علي بن أبي طالب (الحويرت بن تفيذ) الذي كان يؤذي رسول الله (ﷺ) وكذلك قينتا ابن خطل فقتلت إحداهما وأستؤمن رسول الله (ﷺ) للأخرى.

قد أمر محمد (ﷺ) بكسر كل الصور والتماثيل التي كانت داخل الكعبة وحولها، وجميع الأصنام التي بمكة ولكنه ترك الحجر الأسود في مكانه وأجاز تقبيله[1].

كان محمد (ﷺ) كلما أشار إلى صنم بقضيب في يده سقط الصنم لوجهه، وكان يقول "جاء الحق وزهق الباطل أن الباطل كان زهوقاً"[2]، وعدم إزالة محمد (ﷺ) للحجر الأسود، وإجازة تقبيله يبدوا أنه جعل "ديورانت" يصنفه (أي الحجر) من ضمن الأصنام، وذلك لاشتراكه في المادة الحجرية التي صنعت منها الأصنام، مع اختلاف مادة الحجر الأسود أو ربما لوجوده أي (الحجر الأسود) داخل الكعبة وأُزيلت كل الأصنام التي بجانبه واستثنى من بينهم، وكل هذه الأشياء التي ادعاها "ديورانت" تعد تخمينات لا تحتمل أي شيء من الصواب.

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص40.

(2) الحافظ يوسف بن البر، الدورر في اختصار المغازي والسير، تحقيق شوقي ضيف، ط الثانية، سنة 1403هـ، ص219-220.

إن ما يدركه كل مسلم أن هذا الحجر لا ينفع ولا يضر، وكل ما في الأمر شعيرة من شعائر الحج، عن عابس بن ربيعة قال: رأيت عمر يقبل الحجر ويقول: "إني لأقبلك وأعلم أنك حجر، ولولا أني رأيت رسول الله (ﷺ) يقبلك لم أقبلك"[1].

انتصار النبي (ﷺ):

بعد ما فتح الله على رسوله (ﷺ) بفتح مكة كان لابد من فتح ما تبقي من المدن التي لم يصل إليها نور الإسلام إما سلماً أو حرباً، يقول: "ديورانت" وكان ينتقل فيها من نصر إلى نصر، فقد خضعت فيها بلاد العرب كلها بعد فتن قليلة إلى سلطان محمد (ﷺ) ودخل في دين الإسلام طوائف متعددة[2].

لاحظنا أن الرسول (ﷺ) بعد فتح مكة انطلقت انتصاراته في نشر الدعوة الإسلامية بداية بغزوة حنين سنة ثمانية بعد الفتح مروراً بعام الوفود وصولاً إلى آخر البعوث بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة، وكل هذه الانتصارات أطلق عليها "ديورانت" انتصار النبي (ﷺ) والحقيقة ما بعث الله بهذا الرسول (ﷺ) ليحقق انتصاراً لنفسه حتى يتولى قيادة الدولة عن طريقه وما بعثه الله إلا مبشراً ونذيرا ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ [الفرقان، الآية56].

وبهذا الفتح خرجت الدولة الإسلامية من نطاق المدينة (الدولة اليثربية) إلى نظام الدولة الكبيرة الموحدة فأصبحت تتكون هذه الدولة من ثلاثة محاور المدينة ومكة، والطائف، وما حولها من قبائل، وأصبح الهدف الذي يسعى إليه النبي توحيد العرب، ومما ساعده على تحقيق هذا الهدف أي توحيد العرب هو إصداره في نهاية العام التاسع لبيان يسمى بيان براءة، وسنذكر دور هذا البيان فيما بعد.

---

(1) أخرجه مسلم، كتاب الحج، باب استحباب تقبيل الحجر الأسود، رقم (1270).

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص41.

يبدو ان قصة الشعراء مع الرسول (ﷺ) لم تنتهِ بعد ويذكرنا "ديورانت" بالشاعر الذي رجع إلى مكة بقلب سليم، وهو كعب بن زهير[1]، أعظم شعراء العرب في ذلك الوقت، وكان قد هجا النبي (ﷺ) في بعض قصائده، وأسلم نفسه إليه، واعتنق الإسلام فعفا عنه النبي (ﷺ) وأنشأ الشاعر قصيدة عصماء في مديح النبي أجازه عليها ببردته"[2].

كان وراء هذه القصيدة التي هاجم فيها كعب المسلمين، كان يعاتب من خلالها أخيه (بجيرا) والذي طلب من أخيه كعب الذهاب إلى محمد (ﷺ) وتعلم علمه والاطلاع على دينه، ومن ثم سيعود إلى أخوة كعب، وعندما يئس كعب من عودته، وتأكد من أن أخاه دخل في دين محمد (ﷺ) أرسل إليه رسالة يؤنبه فيها على فعلته ويقول فيها:

ألا أبلغنا عني بجيراً رسالةً ... فهل لك فيما قلت بالخيفِ هل لكا

شربت مع المأمون كأساً رؤيةً ... فانهلك المأمون منها وعلّكا

خالفت أسباب الهدى وتبعتهُ ... على إى شئٍ وَيب غيرك ولكا

على خلقٍ لم تلفِ أخاً ولا أباً ... عليه ولم تدرك عليه أخاً لكا[3]

وصلت رسالته إلى يد أخيه (بجيرى) ومنه إلى الرسول (ﷺ) فاستحل الرسول (ﷺ) دمه لتعرضه للدين وللرسول والمسلمين بالإساءة، وكان كعب هذا من فحول الشعراء، وقد نهج في البداية طريق أسلافه من الشعراء الذين تعرضوا بالإساءة إلى النبي والإسلام وبعد ان علم كعب بأن دمه مهدور لاذ بالفرار كباقي الشعراء الذين

---

(1) هو كعب بن زهير بن أبي سلمة المزني أبو المضرب شاعر مخضرم عاش عصرين مختلفين هما عصر الجاهلية وعصر صدر الإسلام أسلم بعدما هاجم الرسول ﷺ بقصيدة وجاء إلى الرسول ﷺ تائباً فعفا عنه. (ينظر: موقع وكيبيديا الحرة).

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص41.

(3) كعب بن زهير ، ديوان كعب ، البحر الطويل، ص38.

قبله غير أن أخاه بجيرى والذي أصبح على غير ملته كان يعرف جيداً مدى رحمة وعطف النبي (ﷺ) فأرسل إلى أخيه كعب ينصحه بطلب العفو من الرسول (ﷺ) وجاءت رسالته كالتالي، ويقول في مطلعها:

من مبلغ كعباً فهل لك في التي تلوم عليها باطلا وهي أحزم

إلى الله لا العزى ولا اللات واحد فتنجو إذا كان النجاة وتسلم

عند ما عرف كعب بأنه لا مفر من قتله جاء إلى النبي (ﷺ) تائباً على ذنبه، وعندما قدم على النبي (ﷺ) قال له "هذا مقام العائذ بك يا رسول الله أنا كعب بن زهير" وهّم به الأنصار وكادوا يقتلونه فطلب له النبي العفو لتوبته.

وشكر كعب النبي (ﷺ) بقصيدة على عفوه والتي عرفت بقصيدة البردة، وقد أعجب النبي (ﷺ) بهذه القصيدة وخاصة البيت الذي يقول فيه:

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

وقد سُرّ النبي (ﷺ) بأن يكون بجانبه شاعر مجيد، وقد كان من كرم رسوله الله (ﷺ) وتقديره لكعب، أن وهبه بردته الخاصة به فأصبحت تسمى القصيدة باسم قصيدة البرده[1].

لقد كان النبي (ﷺ) حريصاً على قتل الشعراء الذين آذوه وتعرضوا للإسلام، وذلك لخطورتهم وقدرة تأثيرهم على الناس، ولما للشعر من مكانة عند العرب في ذلك الوقت وحرصهم الاستماع إليه أينما وجد، وهذا سيؤثر سلباً على الدعوة، وبالتالي لا يمكن السكوت على هذه الحمم الشعرية التي يقذفها أولئك الشعراء.

لقد عقد النبي (ﷺ) عهداً مع المسيحيين يضمن لهم الحماية وحرية العبادة وممارسة شعائرهم مقابل ضريبة هينة وأمرهم بالابتعاد عن الربا.

---

(1) حسن حسين، ثلاثية البرد بردة، الرسول (ﷺ) ط الأولى، دار الكتب القطرية الدوحة، سنة 1400، ص12-23.

إن هذه العهود تأخذنا إلى ما ذكرنا سابقاً عن البيان الذي ألقاه النبي (ﷺ) في سورة براءة، فالرسول (ﷺ) عاهد قريشاً وأهل الكتاب على تعيين ضريبة لهم مقابل عبادتهم غير أنهم نقضوا العهد مع الرسول (ﷺ) وبعد ما فتح الرسول مكة حررها من الأصنام، وبعد أن استقر له الوضع للدولة الإسلامية بدأ التحرير المكين وهو الإنسان الذي يحيا بجانب البيت الحرام، وفي العام التاسع من الهجرة أنزل الله على رسوله (ﷺ) سورة براءة وهي البيان الذي حرم كل المعبودات ما عدا الله لأنهم ليسوا أهلاً للعهود والوفاء فتبرأ منهم الله ورسوله (ﷺ) قال تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة، الآية 1-2].

كان هذا العهد من الله ورسوله (ﷺ) بالبراءة من المشركين ومن عهودهم مع المسلمين ومنع فيه نقض من تعاهد معهم قبل هذا البيان حتى تنقضي مدته، وأعطى فيه للمشركين مدة أربعة أشهر للتفكير في هذا الأمر فأما أن يدخلوا في الإسلام وأما ان يستعدوا للحرب من الله ورسوله[1].

يقول "ديورانت" إن المؤرخين يقولون إنه بعث الوفود إلى ملك الروم، وملك الفرس، وبنى غسان يدعوهم إلى الدين الجديد، ويلوح ان أحداً منهم لم يرد على رسائله"[2].

كانت هذه الرسائل بعد صلح الحديبية، ومن هؤلاء من كان رده قبيحاً مثل "كسري"، ومنهم من رد رداً جميلاً مثل "قيصر"، وهناك من وعد بالنظر في الأمر مثل المقوقس فمثلاً ملك الروم هرقل، بعد ان سأل رسول الرسول (ﷺ) العديد من الأسئلة التي كان يستقصي بها نبوءة محمد (ﷺ) طرح العديد من هذه الأسئلة على أبي سفيان، وهو أشد أعدائه، وكان أبو سفيان قد أخذته تجارته إلى هناك، وكلما

(1) أحمد الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، مصدر سابق، ص418، إلى421.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص41.

أجابه أبو سفيان عن سؤال ازداد هرقل يقيناً بصدق نبوءة محمد (ﷺ)، حتى تأكد من ذلك، وعندها أمر قومه باتباعه غير أن العزة بالملك والسلطة منعه ومنعت قومه من ذلك بينما كان ملك الفرس أقبحهم رداً فعندما وصل إليه كتاب الرسول (ﷺ) قام بتمزيقه لحظة وصوله إليه، وقد دعا عليه الرسول (ﷺ) فكانت مملكته أول مملكة سقوطاً من بين من أرسل إليهم[1].

ولم يكن رد صاحب دمشق بأحسن حالٍ من سابقه لقد نظر ابن أشعر الغساني هذه الرسالة بعد سماعها وقال منى ينزع من ملكي أنا سائر إليه، قال النبي (ﷺ) "باد ملكه"[2].

رفض رسائل النبي من قبّل الملوك جعل النبي (ﷺ) في حيرة من أمره، حيث لم يستطع ضم هذه الأحياء إلى سلطانه واكتفى بمشاهدة الحروب الدائرة بين فارس وبيزنطة، وما جرته على الدولتين من خراب، ويبدو انه لم يفكر قط في توسيع سلطانه إلى خارج حدود بلاد العرب[3].

لقد كان مغزى النبي (ﷺ) من هذه الرسائل فتح أفاق جديد للدعوة الإسلامية تحقيقاً لعالميتها، وليس توسيع دائرة سلطانه كما يزعم "ديورانت" وكان الرسول (ﷺ) حريصاً على تنفيذ أمر الله عز وجل، حيث يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [العائد، الآية 67].

لقد جاء الأمر بالتبليغ في هذه، الآية مطلقاً لا تحده حدود، ولا تحبسه قيود، ومازال يسري نوره إلى قيام الساعة ثم من قال أن النبي (ﷺ) حينما أرسل بهذه الرسائل كان يُريد بذلك ضم هذه الأحياء إلى الدولة الإسلامية قد أحظي فما يسعى إليه الرسول (ﷺ) دخولهم في الإسلام، وليس في الدولة الإسلامية.

---

(1) الشيخ الحضري، نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، مصدر سابق، ص143-146.

(2) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج/2 /، ط الثانية، دار التراث بيروت، سنة 1387هـ، ص652.

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص41.

كان الرسول (ﷺ) ينتقل في أعماله بين هذه الدولة وحكومتها فلم يغفل من أمرها كبيرة ولا صغيرة في شؤون القضاء والتشريع، والتنظيم الاجتماعي المدني، والديني، والحربي[1].

لم يقتصر دور الرسول (ﷺ) على الجانب السياسي الصرف حتى يعمل على تنظيم حكومته وفق نسق سياسي كما يزعم "ديورانت" وإنما جمع الرسول أمور الدين والدولة، ولم يتبع في ذلك ما تمليه عليه نفسه، وإنما كانت كل أفعاله، وأقواله أمور تشريعية إلهية، قال تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر، الآية7].

ففي مجال الأحكام كانت وسطية الإسلام بارزة في المجال القانوني والاجتماعي، بما فيها المجالات الأسرية والجنائية والدولية، حيث كانت وسطاً في التحليل والتحريم بين اليهودية التي غالت في التحريم، وبين النصرانية التي أطلقت العنان للإباحة حتى خالفت في ذلك الأشياء المنصوص على تحريمها في التوراة، فالإسلام قد أحل وحرم، ولم يجعل التحليل والتحريم يصدر عن بشر، وإنما يصدر من الله وحده كما أنه لم يخترق النصوص بالتحليل والتحريم، فلم يحرم إلا الخبيث ولم يحل إلا الطيب[2] ولهذا كانت أوصاف الرسول عند أهل الكتاب أنه ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[الأعراف 157].

وكما أنه لم يقتصر هذا التنظيم على الجانب التشريعي القضائي بل نراه يعتني حتى بالتقويم السنوي فالعرب كانوا يقسمون السنة كما يقسمها اليهود إلى اثنى

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص42.

(2) محمد سعيد ياقوت، نبي الرحمة الرسالة والإنسان، تقديم فريد عبدالخالق، ط الأولى، دار الزهراء للإعلام العربي سنة 2007م، ص146.

عشر شهراً قمرياً، وكانوا يضيفون إليها شهراً كل ثلاث سنوات حتى تتوافق مع السنة الشمسية[1].

فمند أن خلق الله الخلق جعل السنة اثنى عشر شهراً مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا المُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ المُتَّقِينَ ﴾ [التوبة، الآية36].

وجعل الله من بين الاثنى عشر شهراً أربعة حرماً، وكان المشركون يجردون هذه الحرمة للشهور بتغيير أسمائها وتحليل محرمها حتى أنهم إذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلوه وحرموا مكانة شهرا أخر والله ينهي عن القتال في هذه الشهور، وبهذا السلخ للشهور من التحليل والتحريم من تلقى أنفسهم تجاوز التخصيص الإلهي للأربعة الأشهر المحرمة من عنده تبارك وتعالى، واكتفوا بالعدد دون تحديد، وكانوا يحرمون تحريم المحرم إلى صفر فيحرمون صفر ويستحلون المحرم، وإذا احتاجوا إلى تحريم صفر أخروه إلى ربيع الأول وهكذا حتى استدار التحريم على السنة كلها فجاء الإسلام فرجع المحرم إلى موضعه الذي وضعه الله عز وجل فيه، وذلك بعد دهر طويل فخطب النبي (ﷺ) في حجته [2] "فأمر أن تكون السنة الإسلامية اثنى عشر شهراً على الدوام كل منها ثلاثون يوما أو تسعة وعشرون"[3] فقال النبي (ﷺ) مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الكَافِرِينَ ﴾ [التوبة، الآية 37].

وفي الجانب التشريعي لم يكن محمد (ﷺ) يتعامل مع الظروف وفق دستور معين لأنه كما يقول "ديورانت" لم يضع لأمته كتاباً في القانون أو موجزاً فيه، لذلك

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص42.

(2) تفسير البغوي، تحقيق وتخريج أحاديثه، محمد عبدالله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، ط الرابعة، دار طيبة للنشر والتوزيع، سنة 1417هـ -1997م، ج/ 4، ص45.

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص42.

كانت أوامره تصدر وفقاً لما تتطلبه الظروف، وإذا أدى هذا الأمر إلى شيء من التناقض يحل محمداً (ﷺ) هذه المشكلة فيأتي بجديد ينسخ القديم ويجعله كأن شيئاً لم يكن[1].

من المؤكد أن محمد (ﷺ) لم يضع كتاباً في القانون ولكن القرآن الذي أنزل عليه (ﷺ) لم يغفل صغيرة ولا كبيرة، إلا وحدد لها حكماً شرعياً إما بأية أو حديث قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم، الآية6]. أما النسخ فإن سببه ان التشريعات كانت تأتي من الله بالتدرج رحمة منه تعالى بعباده، وهذا الأمر لا يتم إلا بالنسخ مثل ما جاء في تحريم الخمر على مراحل ففي البداية كانت الإشارة إلى الإثم والنفع الذي في الخمر والميسر وأكد على أن نسبة الإثم أكبر من النفع، فقال تعالى: ﴿ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [البقرة، الآية 217].

في هذه الحالة يكون الموضع موضع ذم وليس موضع تحريم، ونهى في المرحلة الثانية عن قرب الصلاة في حالة السكر ولم ياتِ تحريمه في هذا الموضع كذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء، الآية 34].

ثم جاء تحريمها في المرحلة الثالثة في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة، الآية 92].

ومن جانبه يؤكد (ماكسيم رودنسن) عن صدور هذه التشريعات السماوية من الله، والتي تكملها صورة النبي (ﷺ) في تنفيذها فقال: "لقد اكتملت صورة محمد (ﷺ) الحاكم المتسامح والحكيم والمشرع بظهور عدد من المؤرخين الأوروبين والمستنيرين في القرن الثامن عشر"[2].

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص42.

(2) نقلاً عن حسين حسني معدى، الرسول في عيون غريبة منصفه، مصدر سابق، ص129.

هذه الوسيلة في إصدار الأوامر من تلقي نفسه يسعى محمد (ﷺ) إلى تكييفها بحيث تتفق مع الشؤون الدنيوية، مما جعل أسلوبه يفقد بعض ما كان يتصف به من بلاغة وشاعرية الأمر الذي جعل من كل تشريعاته تصطبغ بالصبغة الدينية الرهيبة[1].

إذا كان "ديورانت" يصف هذا القرآن بالشعر فلأنه عجز عن تحدي أسلوبه كما عجزت قريش ومن حذا حذوها في ذلك الوقت فاستند إلى ما استندت إليه قريش بوصفها للقرآن بالشعر وما هو بشعر فقال تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس، الآية 69].

وربما كان يقصد بذلك ما أمد الله به الرسول من بلاغة الأسلوب، والبيان فلا يستطيع أحد أن يطعن فيما تلفظ به (ﷺ) من أقوال وأحاديث وغيرها، خاصة وأن كلامه ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [النجم، الآية 3-4].

وأضاف "ديورانت" إلى التشريعات التي قام به الرسول (ﷺ) عامل الترهيب لأجل اتباعه (ﷺ) وما ينفي ما يقوله "ديورانت" الإقبال المتزايد على الإسلام بعكس اليهودية، والمسيحية لأن طابع اللين والتسامح وآيات الرحمة مليئة بها نصوص هذا القرآن ففي سياق الرحمة جاء قوله تعالى: ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ [الفاتحة، الآية2] وفي سياق اليسر والتخفيف قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ اليُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ ﴾ [البقرة، الآية 185].

إن المشكلة التي تجعل من "ديورانت" يطلق أحكاماً كالتي ذكرناها سابقاً هي عدم إيمانه بالرسل والأنبياء ككل، ومن منطلقه هذا يضع أفعال الرسول وأقواله في قالب بشري مجرد من الإلهيات لذلك تجده يذكر دائماً الدور السياسي لمحمد (ﷺ)

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص42.

والاجتماعي، والقانوني، والديني الذي لم يرق له ذكره إلا بعد تجريده من مصدره الإلهي.

على الرغم مما قاله "ديورانت" عن الجانب التشريعي من انتقادات إلا أنه أنصف الجانب التعاملي (المعاملات للنبي (ﷺ) وخاصة تواضعه (ﷺ) إذ يقول "ومع انشغال النبي (ﷺ) بكل هذه الشؤون كان جم التواضع إلى درجة تحببه إلى النفوس، وكثيراً ما كان يعترف بأنه ثمة أمور لا يعرفها، ويحتج على الذين يظنونه أكثر من إنسان يجري عليه ما يجري على الناس جميعاً من موت ووقوع في الخطأ"[1].

كان محمد (ﷺ) إنساناً خصه الله برسالته فبلغها، وعاش بين الناس، ومع الناس فلا ثياب فاخرة، ولا كرسي من ذهب أو فضة، وكان الزهد هو ما يغلب عليه حتى في أداء عباداته، "عن أنس بن مالك رضي الله عنه "أن النبي حج على رحل رث وقطيفة كنا نرى ثمنها أربعة دراهم فلما استوى على راحلته قال لبيك بحجه لا سمعه فيها ولا رياء"[2]، وأما وقوعه في الخطأ (ﷺ) فهذا زعم باطل فالأنبياء جميعهم معصومون من الوقوع في الخطأ، لأن الوحي يأتيهم من قبل الله فيردهم عن خطئهم[3].

ولا زال "ديورانت" يؤكد على الجوانب البشرية للرسول (ﷺ) ومنها عدم القدرة على معرفة الغيب، والأتيان بالمعجزات[4].

فالصفة الأولى وهي الاطلاع على الغيب لم يعطِ الله هذه الصفة لأحد من الأنبياء، ولكن كان يخصهم بها في مواضع معينة لحكمة إلهية، وربما لتؤكد على نبوتهم أو لتخبرهم عن عدو يتربص بهم، وأكد الله تعالى على عدم إطلاع غيره عن الغيب في قوله تعالى: ﴿ عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً ﴾ [الجن، الآية26].

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص43.

(2) أخرجه الترمذي، في الشمائل، باب ما جاء في تواضع النبي، رقم 341.

(3) علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي،ج/2، ط الثامنة، دار المعارف، سنة 1388هـ، 1968م، ص149.

(4) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص43.

وكذلك مما يخرج عن المألوف لصفات البشر الإتيان بالمعجزات وهي من ضمن الصفات التي أسقطها "ديورانت" عن النبي (ﷺ) مع أن معجزته (ﷺ) هي المعجزة الوحيدة التي لم يسقط إعجازها إلى اليوم، ولن يسقط إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولا يخفي برهانها، وقد تحدى بها الثقلين من الجن والإنس أن يأتوه بمثله أو بعشر سور أو بسورة قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الإسراء، الآية 88].

وبعد ما أسقط "ديورانت" المعجزة عن الرسول (ﷺ) يدعى بأنه (ﷺ) كان يستعين بالوحي في الأغراض البشرية والشخصية، كما حصل ذلك في زواجه من زوجة زيد[1] متبناه[2].

سبق وقلنا أن زيحات النبي (ﷺ) كانت تهدف إلى تشريعات تزيل ظلام الجاهلية، ومنها كان هذا الزواج بقصد إزالة عادة التبني التي كانت من عادات العرب ذلك بأن الرسول (ﷺ) كان متبني زيداً وكانوا ينسبونه إلى محمد (ﷺ) مما جرت به عاداتهم فأنزل الله قوله تعالى: ﴿ ادْعُوَهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ﴾ [الأحزاب، الآية40].

وبعد هذا الزواج انتفى ما كان يعتقدونه صحيحاً في الجاهلية من تبنى كما عاتب الله رسوله (ﷺ) في زواجه منها لإخفاءه أمر الله قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ ﴾ [الأحزاب، الآية 37].

---

(1) هو زيد بن ثابت من بني نجار أخوال الرسول (ﷺ) بالمدينة أسلم وعمره لم يتجاوز إحدى عشرة سنة، وقد رده رسول الله (ﷺ) عن غزوة بدر لصغر سنه، من الحفاظ الأوائل، وكتاب الوحي، شهد العرضة الأخيرة من القرآن على الرسول (ﷺ) وهو جامع القرآن، توفي سنة 45هـ. ينظر أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، مصدر سابق.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص43.

وما كان النبي (ﷺ) أن يستعين بالوحي لهذا الغرض بمعاتبته نفسه، والأولى له أن يثني على نفسه إذا كان يأتي بهذا الوحي من عنده ويخرج ما في نفسه وما لم يعلم به أحد وكانت الآية صريحة في تعبيرها عن خشية الرسول (ﷺ) من معاتبة الناس له في زواجه من زوجة ابنه المتبنى، والذي أبطل تبنيه بهذا الزواج[1].

وقد تزوج النبي (ﷺ) بعشر نساء وكان من بينهنّ اثنتان من السراري هن مبعث الدهشة والحسد والتعليق والمدح عند الغربيين[2]، وإذا ما أحصينا زوجات النبي (ﷺ) فإنهنّ إحدى عشرة زوجة، وليس عشر كما يزعم "ديورانت" وهن من دخل بهم الرسول (ﷺ).

يقول (ابن كثير)[3] في سيرته لا خلاف أنه عليه السلام توفى عن تسع زوجات، وله اثنتان من السراري هن مارية بنت شمعون القبطية[4] وهي أم ولده إبراهيم عليه السلام، وريحانه[5] بنت شمعون القرضية"[6].

وما يتعلق بالدهشة والتعليق عند الغربيين كما يقول "ديورانت" عن هؤلاء السراري، أن السبب في ذلك الحسد والدهشة والمدح يؤولان إلى مارية القبطية في

---

(1) البيضاوي أنور التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد عبدالرحمن المرعشلي، ط1 الأولى، دار إحياء التراث العربي بيروت، سنة 1418هـ، ص232.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص43.

(3) هو إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضو بن كثير عماد الدين أبو الفداء البصروي الدمشقي له العديد من المؤلفات منها "تفسير القرآن" "قصص الأنبياء" "السيرة النبوية". (ينظر: الموسوعة العربية العالمية، مصدر سابق).

(4) هي مارية بنت شمعون القبطية زوجة رسول الله ﷺ أهداها له المقوقس ملك مصر فتزوجها الرسول ﷺ وأعتقها أنجبت له إبراهيم وتوفيت في خلافة عمر بن الخطاب. (ينظر: الموسوعة العربية العالمية، مصدر سابق).

(5) هي ريحانه بنت شمعون بن زيد بن قثامة من بني قريضة سرية رسول الله ﷺ عرض عليها الرسول ﷺ الزواج والحجاب فقالت له بل تتركني في ملكك ثم أسلمت عن ابن اسحاق أن النبي ﷺ توفي عنها وهي في ملكه. (ينظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة، مصدر سابق).

(6) ابن كثير، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبدالواحد، دار المعرفة بيروت، لبنان، سنة 1395هـ، 1976م، ص579.

كونها كانت من المماليك كما كانت هاجر أم إسماعيل والتي أهداها فرعون مصر إلى إبراهيم عليه السلام وانطلقت هاجر نحو المدينة لتكون من ضمن أمهات المؤمنين، وأخبرنا التاريخ أن سنة إبراهيم سنة جارية استقرت في نهاية المطاف عند النبي الخاتم (ﷺ) فاجتمعت حركة المقدمة مع حركة الخاتمة لأن الملة واحدة انبثقت من إبراهيم عليه السلام، وبعث عليها محمد (ﷺ) خاتم النبيين، وهو ما حمل الغرب على ما قاله "ديورانت" ويبدو أن التعليق عند الغربيين اقتصر على ريحانة بنت زيد بسبب تزوجها من رجل من بني قريضة، وهي من بني النضير فنسبها بعض الرواة إلى قريضة، وقد يعود السبب لأنها كانت مما أفاء الله على رسوله (ﷺ) بعد مقتل زوجها فخيَّرها الرسول (ﷺ) بين الإسلام، وبين دينها فاختارت الإسلام فاعتقها الرسول (ﷺ) وتزوجها[1] ولم نجد من بين الأسباب ما يدعو إلى التعليق وما شابه، وإنما الذي يمكن وقوعه هو الحسد لأنهم هو ما جبلوا عليه وخاصة للنبي (ﷺ) منذ أن اصطفاه الله وجعله خاتماً.

كما يدعى "ديورانت" أن نسبة الوفيات العالية من الذكور بين الساميين في العصر القديم كانت وراء تعدد الزوجات عند هؤلاء الساميين حتى أنها كادت تكون أمراً أخلاقياً وبالتالي فإن هذا الزواج بالنسبة للرسول (ﷺ) أمر عاديا مسلما به[2]، وتعود ظاهرة تعدد الزوجات إلى عادات العرب الجاهلية والتي لم يوضع لها حد حتى جاء الرسول (ﷺ) وضبط هذه الظاهرة بما اوحى إليه الله: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ [النساء، الآية34].

نجد أن الغرب قد استفاق اليوم إلى فائدة تعدد الزوجات لحل العلاج النفسي لمشكلة زيادة النساء أو عندما تكون المرأة بحاجة إلى هذا الزواج، وكما يفيد هذا

---

(1) سعيد أيوب، زوجات النبي، ط الأولى، دار الهادي غبيري بيروت لبنان، سنة 1997م، 1417هـ، ص112 إلى 116.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص43.

التعدد في حالة الحروب، وسقوط غالبية الرجال، ومن هنا فإن اتهام تعدد الزوجات في الإسلام اتهام غير أخلاقي ويدل على عدم البصيرة أو قصر النضر[1].

يقول "ديورانت" ترى النبي (ﷺ) مقبلٌ على هذا الزواج وهو مرتاح البال لا يريد به إشباع الشهوة الجنسية ويستند "ديورانت" في ذلك إلى الحديث الذي روته عائشة[2]، ويقول بأنه مشكوك في صحته، حيث جاء في الحديث "حبب إلى من الدنيا النساء والطيب وجُعل قرة عيني في الصلاة"[3].

لقد كانت زيجات الرسول (ﷺ) كلها تهدف إلى تشريعات كما سبق وذكرنا، غير أن هذه التشريعات منها ما فيه الرحمة مثل زواج الأرملة أو المطلقة، ومنها ما فيه الإيواء مثل المربية أطفالها، لذلك تجد النبي (ﷺ) دائماً حريصاً على العطف بالنساء واحترام حقوقهن، والإحسان إليهم، وخاصة الأم لأنها تتحمل متاعب الإنجاب والتربية، والزوجة والتي عادة ما تكون في موقف ضعيف بضعفها من زوجها، ولكون المرأة خُلقت ضعيفة كان النبي (ﷺ) قد أوصى بالنساء خيراً، وعدم معاملتهنّ بقسوة لأن ذلك يمكن أن يؤذيهنَّ، فعنه (ﷺ) أنه قال: "استوصوا بالنساء خيراً، فأنهن خلقن من ضلع أعوج، وإن أعوج الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وأن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيرا"[4].

وبعض من زيجات الرسول (ﷺ) في نظر "ديورانت" تعد من أعمال الرحمة بالأرامل الفقيرات واللاتي توفى عنهن أتباعه وأصدقاؤه وكان بعضها زيجات دبلوماسية كزواجه "بحفصة بنت عمر"[5] الذي يسعى إلى توثيق الصلة بأبيها، وابنة

---

(1) مراد هوفمان، الإسلام كبديل، مصدر سابق، ص200.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص43.

(3) أخرجه النسائي في السنن، كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، رقم (3939).

(4) أخرجه البخاري، باب النكاح، كتاب الوصاة بالنساء، رقم (5186).

(5) هي حفضه بنت عمر بن الخطاب الصحابية الجليلة الفاضلة الصالحة زوج النبي ﷺ أم المؤمنين حاملة لكتاب الله تزوجها الرسول ﷺ سنة 3 للهجرة وذلك بعد وفاة زوجها توفيت سنة 45هـ. (ينظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، مصدر سابق).

أبي سفيان ليكسب صداقة عدوه[1].

أما زواجه من حفصه بنت عمر بن الخطاب لم يعد سوى مواساة لها بعد وفاة زوجها، ولا يحتاج الرسول (ﷺ) إلى توثيق صلته بعمر من خلال هذا الزواج وليس في حاجة إلى توثيقها أصلاً.

وأما زواجه من أم حبيبه بنت أبي سفيان فلأن زوجها ارتد عن الإسلام، وأراد النبي (ﷺ) أن يتزوج بها ليسكن قلبها، ويطيب خاطرها، وكان مغزى هذا الزواج سداً لأبواب الفتنة[2]، يقول: (مراد هوفمان) (إن الحقيقة التي لا مراء فيها أن الزيجات التي تمت بين الرسول (ﷺ) بصفته ولي أمر الأمة الإسلامية آنذاك... كانت زيجات ذات معان اجتماعية وتشريعية أفيضن أحد بعد هذا ان رجلاً مثل محمد (ﷺ) أراد أن يشوه رسالته السامية بإعطائها طابعاً يتسم بكره النساء واحتقارهن وامتهانهن"[3].

لا زال "ديورانت" يتخبط في عمياه، ويلوح له أن زوجات الرسول (ﷺ) كلهن عقيمات ما عدا خديجة، وهذا هو موضع السخرية بين أعدائه حيث لم يتبق له من خديجة إلا فاطمة، وفي ذات الوقت لم تكن مارية القبطية هي الأخرى، من ضمن العقيمات في نظر "ديورانت" بعدما أكد على عدم عقم خديجة فقط وهذا يدلك على مدى التناقض الذي يتخبط فيه "ديورانت" وما جعله يتراجع عن مبدأه أن مارية القبطية أنجبت للرسول (ﷺ) إبراهيم، والذي اغتبط الرسول (ﷺ) أشد الإغتباط بمولده، غير أن الأجل وافاه[4].

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص44.

(2) سعيد أيوب، زوجات النبي، مصدر سابق، ص79.

(3) مراد هوفمان، الإسلام كبديل، مصدر سابق، ص197.

(4) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص44.

ومن جهة أخرى إذا كانت نساء الرسول (ﷺ) عقيمات لما أنجبن قبل زواج الرسول (ﷺ) بهم، فأم سلمة أنجبت[1] لأبي سلمة ثلاثة أولاد – سلمة، وعمر، وزينب، وأما حبيبة كان اسمها رملة فلما أنجبت لعبد الله بن جحش حبيبة، صارت تكني بها[2].

يبدو أن "ديورانت" وجد الباب الذي طالما أعتاده أصحاب الشبهات، وهو باب نساء النبي (ﷺ) فينتقل بنا من الزيجات إلى النفقة عليهن، حيث يقول و"كثيراً ما ضايقه نساؤه بمنازعتهن، وغيرتهن ومطالبهن، وأبى الرسول (ﷺ) أن يجيبهن إلى مطالبهن الكثيرة، ووعدهن بالجنة، وقضى بعض الوقت يعدل بينهن بقضائه ليلة عند كل واحدة منهن، ولأنه لم يكن يملك بيتا خاصاً به، وقد حظت عائشة بأكبر قدر من عنايته مما أثار غضب نساءه الأخريات حتى نزلت الآية"[3] قال تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلاَ يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً ﴾ [الأحزاب، الآية 51].

لقد ذكر المفسرون سبب نزول هذه الآية "حيث غارت بعض نساء النبيّ (ﷺ) وآذينه بالغيرة فطلبن زيادة النفقة فهجرهن رسول الله (ﷺ) حتى نزلت آية التخيير، وأمره الله تعالى أن يخيرهن بين الدنيا والآخرة، وأن يخلي سبيل من اختارت الدنيا ويمسك منهن من اختارت الله سبحانه ومع أن الله أعطى لرسوله (ﷺ) الأمر في إيواء من يشاء ويرجى من يشاء منهن إليه فرضين به قسم لهن أو لم يقسم لهن

(1) هي أم سلمة أنجبت هند بنت سهيل بنت مغيرة القرشية من زوجات النبي ﷺ تزوجها في السنة الرابعة وكانت من قبل زوجة لابي سلمة هاجرت إلى الحبشة مع زوجها ثم إلى المدينة مع الرسول ﷺ . (ينظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، مصدر سابق).

(2) سعيد أيوب، زوجات النبي، مصدر سابق، ص58–72.

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص44.

أو فضل أو لم يفضل بينهم في النفقة والقسمة والعشرة، ومع ما جعل الله لرسوله (ﷺ) من التوسعة كان يعدل بينهن جميعاً فيما يملك"[1].

ومع أن الرسول (ﷺ) تحت يده بيت المال، وكان يحصل على خمس الغنائم، وكان صديقه أبو بكر صاحب ثراء فاحش، وكذلك عثمان بن عفان، وكان بإمكانه أن ينفق عليهن ما يشاء، ويرضيهنّ، ويفرحهن، ولكنه رفض متاع الدنيا وملذاتها، وكان مستعد لتطليقهن كلهن من أجل ميلهن إلى زينة الدنيا.

والحقيقة التي لا غبار عليها، تفضيل الرسول (ﷺ) لعائشة من بين نسائه، ومن شدة حبه لها (ﷺ) كان إذا أراد أحد أن يقدم له هدية كان يؤخرها حتى إذا كان رسول الله (ﷺ) في بيت عائشة، وهو ما جعل نساءه الأخريات يغرّن منها، وظلت كل منهن تسأله عن ذلك حتى قال لهم (ﷺ) "لا تؤذنني في عائشة فإن الوحي لم يأتيني وأنا في ثوب امرأة إلا عائشة"[2].

من الحياة الزوجية والسلطات ينتقل بنا "ديورانت" إلى جزء آخر من حياة الرسول (ﷺ) ويعترف بأن هذا الجزء من حياته (ﷺ) غاية في البساطة، وأولها مساكنه المكونة من اللبن، والتي لا يزيد اتساعها على أربعة عشر قدماً بينما لا يزيد ارتفاعها على ثمانية أقدام، وسقفها مكون من جريد النخل، وأبوابها من شعر المعز أو وبر الجمال، أما الفراش فلم يكن أكثر من حشية تفرش على الأرض ووسادة[3].

وفيما سبق يذكر "ديورانت" بأن محمداً (ﷺ) وهو سيد بلاد العرب لم يكن يملك بيتاً خاصاً له، فمن أين أتت كل هذه البيوت؟.

---

(1) النيسباوري، أسباب النزول، تحقيق عصام بن عبدالمحسن الحميدان، ط الثانية، دار الإصلاح الدمام، سنة 1412هـ، 1992م، ص375.

(2) أخرجه البخاري، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب من أهدي إلى صاحبه وتحري بعض نسائه دون بعض رقم (2581).

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص45.

لقد بني الرسول (ﷺ) بيوتاً لكل زوجاته، وأول بيوته كانت بعد الهجرة وقد بنيت بجانب مسجده (ﷺ) وهو ما نقلته لنا كتب السيرة، فالرسول (ﷺ) بني بعائشة في البيت الذي بناه لها شرقي، المسجد، كما بني بيتاً لسودة بنت زمعة بجانب بيت عائشة[1]، والغريب في الأمر أن "ديورانت" يذكر بناء هذه البيوت بجوار المسجد، ويقول بعد ما انتهى محمد (ﷺ) من بناء المسجد "بني بيتين متجاورين أحدهما لسودة والآخر لعائشة وأضاف إليها مساكن أخرى لزوجاته الأخريات"[2].

وكان دائماً القدوة للناس وللمسلمين، وهذا ما يؤكد "ديورانت" حيث يقول "ولم يتعاط الخمر التي حرمها على غيره، وكان لطيفاً مع العظماء، بشوشاً في أوجه الضعفاء، عظيماً مهيباً أمام المتعاظمين المتكبرين متسامحاً مع أعوانه"[3].

إن الرسول (ﷺ) لم يتعاطَ الخمر قبل الإسلام فكيف يمكن أن يتعاطاه بعد تحريمها من الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة، الآية 92].

ويتمثل لطف النبي (ﷺ) في صفحه عن (هند بنت عتبة) والتي كانت وراء مقتل عمه (حمزة) والذي حزن عليه حزناً شديداً ونذر بثأره غير أن رحمته (ﷺ) كانت هي الأقرب، وما قام به مع عبدالله بن أبي من دعائه له بالمغفرة[4] مع أنه كان عدوا له (ﷺ)، وما فعله مع أشد أعدائه أبي سفيان حينما دخل مكة خصه بالحماية قبل الجميع بقوله "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن"[5].

---

(1) محمد عبدالوهاب، مختصر سيرة الرسول، ط الأولى، دار وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة، سنة 1418هـ، ص139.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص33.

(3) المصدر نفسه، ص45.

(4) عزيز السيد جاسم، محمد الحقيقة العظمى، مصدر سابق، ص351.

(5) عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، مرجع سابق، ص288.

ومما اشتهر به (ﷺ) قبوله لدعوة الناس إلى الطعام عبيداً أو غير عبيد ولا يطلب من أحد القيام له بعمل يجد لديه من القدرة والوقت ما يمكنه من القيام به[1]، لقد بلغ النبي (ﷺ) مرتبة من التواضع أكبر مما وصفه به "ديورانت" فكان لا يتوانى في ركوب الدابة أي كانت ولا في إجابته دعوة العبد إلى الطعام وذلك لأنه يرى في نفسه مجرد إنسان لا يقيم وزناً للمظاهر ولم تشغفه السلطة، وعظمتها التي اغرت الملوك، والأمراء قبله، وجاء (ﷺ) فأنكر حب الكراسي، والمركوب، واكتفى بأقل الأشياء، وكان في وسعه أن يتخير من بينها فيحضى بها لنفسه[2].

ومع هذا لم يكن ينفق على أسرته إلا القليل، وكان يعطي الجزء الأكبر للصدقات، وكان يهتم كثيراً بمظهره الشخصي ويتعطر ويكتحل ويصبغ شعره[3].

كثيراً ما نادي "ديورانت" بادعاء محمد (ﷺ) للنبوءة من أجل تحقيق أغراضه البشرية ونجده هنا يفاجئنا بزهد النبي (ﷺ) في الإنفاق على أهل بيته مع ما يمتلكه من مال الدولة غير أن محمداً (ﷺ) ترك مع أهله القليل الذي ينفقه عليهم، وأعطى الصدقات القدر الأكبر مما يؤكد لنا عدم رؤية "ديورانت" إلى الأمور بعين الموضوعية وانجراره وراء أهوائه، ومن بين الأشياء التي اهتم به الرسول (ﷺ) مظهره وطيب ريحه، فكان يستاك، ويتعطر، ويكتحل، وكل ما قام به الرسول (ﷺ) فإن لم يكن تشريعاً كان ذا فائدة طبية ومن ذلك العطر عن ابن عمر قال، قال رسول الله: "ثلاث لا ترد الوسائد والدهن والطيب"[4].

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص45.

(2) عزيز السيد جاسم، محمد الحقيقة العظمى، مصدر سابق، ص354.

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص54.

(4) أخرجه الترمذي، في الشمائل، باب ما جاء في تعطر رسول الله، رقم (219).

ولما تحتوي عليه مادة الكحل من فوائد للنظر أوصى الرسول (ﷺ) بالاكتحال – عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي قال: "اكتحلوا الإثمد فإنه يجلو البصر وينبت الشعر"[1].

ولمخالفة اليهود كان الرسول (ﷺ) يخضب شعره عن أنس قال "رأيت شعر رسول الله مخضوباً"[2]، وكان حرص الرسول (ﷺ) على كل هذه الأشياء لأنها سنن ومحببات من الفطرة الإنسانية فمن منا لا يحب لنفسه حسن المظهر، والتطيب، والنظافة الجسدية، ولم يقبل عليها الرسول (ﷺ) لكي يصرف الناس إليه أو ليكون متميزاً عن غيره، بل لأن منها ما هو تشريعي مثل الخضاب أو طبي مثل أكل العسل قال تعالى: ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ [النمل، الآية 69].

ومن الأشياء الخاصة بالرسول (ﷺ) الخاتم الذي يلبسه، ونقش عليه (محمد رسول الله) وربما كان الغرض من هذا الخاتم توقيع الوثائق والرسائل[3].

لقد أصاب "ديورانت" في المغزى الذي صنع لأجله هذا الخاتم فعن انس ابن مالك قال لما أراد النبي إن يكتب إلى العجم قيل له أن العجم لا يقبلون إلا كتاباً عليه خاتماً فاصطنع خاتماً.

وكان محمد (ﷺ) لا يطيق صلصلة الأجراس والأصوات العالية لقد نهي النبي (ﷺ) عن الأجراس وأصواتها ليس من قبيل الكراهية للصوت الذي يصدر عنه، وإنما لعدم مصاحبة الملائكة للحيوانات التي تُعُلق بأعناقها هذه الأجراس، فعن ام حبيبة أن رسول الله (ﷺ) قال: "أن البعير التي فيها الجرس لا تصحبها الملائكة"[4].

---

(1) أخرجه الترمذي، في الشمائل، باب ما جاء في كحل رسول الله، رقم (50).

(2) أخرجه الترمذي في الشمائل، باب ما جاء في خطاب رسول الله، رقم (48).

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص45.

(4) الهيثمي، موارد الضمان إلى زوائد ابن حبان، كتاب اللباس، باب ما جاء في الجرس، رقم (1491).

وينتقل بنا "ديورانت" من أحواله الشخصية (ﷺ) إلى أحواله النفسية حيث يصوره لنا في نهاية المطاف على أنه عصبي المزاج فأحياناً تراه كاسف البال، ومن ثم ينقلب فجأة مريحاً كثيراً الحديث، وكان حلو الفكاهة فقد قال مرة لأبي هريرة وكان يتردد عليه كثيراً "يا أبا هريرة زُرغباً تزدد حباً"[1].

لم نعرف هذه السجيه في أخلاق الرسول (ﷺ) فضلا عن كونه لم يكن يغضب إلا لله ولا انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمة الله، ولو كان ما يقوله "ديورانت" صحيحاً لنقلت لنا السير بعضاً منها ثم إن مزاجه كان مزاجاً جميلاً انظر إلى قصته مع زاهر، والذي وجده الرسول (ﷺ) يبيع متاعه فاحتضنه (ﷺ) من خلفه، وبعد أن عرفه ظل النبي (ﷺ) يقول من يشتري هذا العبد فقال الرجل يا رسول الله إذا والله تجدني كاسداً فقال النبي (ﷺ) لكن عند الله لست بكاسد أو قال أنت عند الله غال"[2].

والحديث الذي ذكره "ديورانت" والذي يخاطب فيه الرسول (ﷺ) أبا هريرة "زرغباً تزدد حباً" فالوصل بعد الهجر يزيدك حباً أي وقتا بعد وقت بغير دوام[3] وكذلك كان محمد (ﷺ) محارباً صارما لا يرحم عدواً، غير أنه عادلً في أمور القضاء، وله أن يقسو ويغدر، ولكن أعماله الرحيمة أكثر من أن تعد[4].

لا يمكننا قبول هذا التناقض بأي شكل من الأشكال، كيف يكون محمد (ﷺ) بدون رحمة، وهو عادل، وكيف بإنسان يغدر ويقسو أن يكون رحيماً، وأعماله الرحيمة لا تحصي لقد كان للرسول (ﷺ) أعداء ولكن ليس أعداء لشخصهُ، وإنما أعداء الله ودينه، وما نوافق فيه "ديورانت" هو رحمة الرسول (ﷺ) بالناس جميعاً ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء، الآية 107].

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص45-46.

(2) أخرجه الترمذي، في الشمائلن باب مزاح رسول الله، رقم (240).

(3) النبهاني، وسائل الوصول إلى شمائل الرسول (ﷺ)، ط الثانية، دار المنهاج جدة، سنة 1425هـ، ص309.

(4) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص46.

وأخير يطرق "ديورانت" المرحلة الأخيرة من حياة محمد (ﷺ) وهي دخوله في مرض الموت، والذي يقول عنه فحين بلغ محمد (ﷺ) التاسعة والخمسين من عمره بدأ يضعف شيئاً فشياً وتبادر إليه أن يهود خيبر قد دسوا له "سُماً في اللحم قبل عام من ذلك الوقت"[1].

والحقيقة منذ أن أكل النبي (ﷺ) الشاه المسمومة في غزوة خيبر لم ينقطع عنه ألم أكله الشاة، وعاش بعد ذلك ثلاثة أعوام ثم توفى[2].

ويوحي إليك سرد "ديورانت" لهذه القصة بأن أمر الشاة ملفقة من قبل النبي (ﷺ) –حاشا لله– ولاحظنا عدم ذكره لحادثة الشاة في غزوة خيبر وذلك لعدم إيمانه بحدوثها وهذا شأنه.

وضلت الحميات بعد ذلك تعاوده، وتقول عائشة إنه كان يخرج من بيته في ظلام الليل، ويطلب المغفرة للأموات ويدعو لهم بالجنة، ويهنئهم على أنهم موتى[3].

إن أمر الإستغفار لا يعود إلى الحميات والنوبات التي كانت ناتجة عن ألم مرضه (ﷺ) وإنما هذا أمر إلهي فبينما الرسول (ﷺ) في بيته يستغفر لأهل البقيع أتاه الأتي بسماعه ضجيج فخرج في جوف الليل واستغفر لهم طويلاً، وهناءهم الرسول (ﷺ) ليس بموتهم كما يتصور "ديورانت" وإنما هنأهم على عدم إدراكهم الفتن التي أقبلت كقطع الليل المظلم يتبع بعضها بعضاً[4].

ولما بلغ محمد (ﷺ) الثالثة والستين من عمره اشتدت عليه الحميات، وفي إحدى الليالي اشتكت عائشة من وجع برأسها، وسألها وهو يمازحها هل تفضلين

---

(1) المصدر نفسه، ص46.

(2) بدر الدين الحلبي، المقتفي من سيرة المصطفى (ﷺ) تحقيق مصطفى محمد حسن الذهبي، ط الأولى، دار الحديث القاهرة، مصر، سنة، 1416هـ، 1996م، ص240.

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص46.

(4) عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، مرجع سابق، ص276.

الموت قبله لكي تحضي بدفنه لها (ﷺ) فأجابته كعادتها أنه حين يعود من دفنها سيأتي بعروس غيرها[1].

كان ذلك بعد عودة النبي (ﷺ) من الاستغفار لأهل البقيع، وأُحد، وكان الرسول (ﷺ) حينها في أشد ألمه، ولكن هذا لم يحل بينه وبين ممازحة زوجه في تلك اللحظة، ولو كان عصبي المزاج كما ادعى "ديورانت" سابقاً لما قام بممازحتها وهو في شدة ألمه، فأجابته عائشة لتمازحه هي الأخرى لكأني بك لو قد فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك، وتبسم (ﷺ) ليؤكد لها سماعه لها بكل إنصات، ولم يمنعه من ذلك ما به من اغتباط[2].

ولم تتركه الحمَّى، وظلت تعاوده أربعة عشر يوماً بعد ذلك الوقت، وقبل وفاته بثلاثة أيام نهض من فراشه ودخل المسجد، فنظر إلى أبي بكر يصلي بالمسلمين بدله، فجلس متواضعاً إلى جانبه حتى انتهت الصلاة[3].

عندما اشتد ألم الرسول (ﷺ) هو من أمر أاي بكر لصلاة بالناس، ولم يدخل عليه فجاء ليشاهده وهو يصلي بهم كما يدعي "ديورانت" حتى أن الرسول (ﷺ) أمر بسد الأبواب المفتوحة في المسجد إلا باب أبي بكر وقال يأبى الله والمسلمون، إلا أبا بكر[4].

ويؤرخ "ديورانت" تاريخ وفاته (ﷺ) في السابع من شهر يونيه عام (632) توفى محمد (ﷺ) ورأسه على صدر عائشة[5] قبل أن ينتقل الرسول (ﷺ) إلى الرفيق الأعلى دخل المسجد ورأى أبا بكر يصلي بالناس وسره ذلك أشد سرور تم تبسم

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص46.

(2) عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، مرجع سابق، ص376.

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص47.

(4) عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، مرجع سابق، ص384-385.

(5) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص47.

يضحك، وظن أبو بكر أن الرسول (ﷺ) يريد أن يخرج إلى الصلاة فأشار إليه الرسول بيده أن أتموا صلاتكم.

وفي يوم الإثنين (12) ربيع الأول سنة (11) 8 يونيه سنة 633 وعمر الرسول (ﷺ) (63) سنة قمرية كاملة توفى (ﷺ) عن عائشة (مات رسول الله (ﷺ) ورأسه بين سحري، ونحري، في دولتي"[1].

وبعد انتهاء "ديورانت" من سرد حياة محمد (ﷺ) يتحفنا بجملة من الاعترافات المنصفة، وإن كانت من منطلق لا يؤمن بالرسل غير أن الرجل لم يستطع أن يخفي إعجابه بالشخصية المحمدية، إذ يقول: "إذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس قلنا إن محمداً (ﷺ) كان من أعظم عظماء التاريخ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقت به في دياجير الهمجية حرارة الجو وجدب الصحراء، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يدانه فيها أي مصلح آخر في التاريخ كله"[2].

وإذا ما ألقينا نضرة على جماع ما قام به محمد (ﷺ) سنجده الرجل الذي أشعل نور الحضارة في العالم، ورجع بالدين إلى فطرته السليمة، وأعاد ترتيب الحياة الاجتماعية وإقامة أمه هي الآمة العربية، وهو لا يزال قوة حية فعالة في حياة الملايين من الناس.

لقد تناولنا في هذا الفصل الإشكاليات السياسية، والاجتماعية، والقبلية، والدينية التي واجهها الرسول (ﷺ) منذ الهجرة وقد لاحظنا من خلالها أن "ديورانت" كان يرى في تعامل الرسول (ﷺ) مع هذا الإشكاليات من عدة جوانب باستثناء الجانب الديني، والإشكالية عنده تكمن في عدم إيمانه بكافه الرسل وما جاءوا به الأمر الذي جعله يصبغ كافة الوقائع بطابع إنساني محض فأطلق على محمد (ﷺ)

(1) الشيخ الحظري، نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، مصدر سابق، ص204.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص47.

"الزعيم الديني" وجعل من الإسلام وسيلته للسيطرة على الشعوب مستغلاً سيطرة الدين على الشعوب العربية، وقد رأى في الكتاب الذي عقده الرسول (ﷺ) بين المهاجرين والأنصار، واليهود كتاباً سياسياً محضاً بعيداً عن الدين.

وفي الجانب الحربي كان الرسول (ﷺ) بالنسبة "لديورانت" قائداً عسكرياً ناجحاً غير أنه لم يقترن عند هذا النجاح بقدرة إلهية ملازمة لهذا النجاح في الإنتصارات في الغزوات التي قادها مما جعله يعطي القدر الأكبر إلى الجوانب القيادية والقتالية كما حدث في غزوة بدر، ومحاصرة يهود بني قينقاع وغيرها من المعارك.

بالإضافة إلى ما طرحنا سابقاً فإن "ديورانت" كان معجباً كثيراً بما استطاع أن يحققه "أبوسفيان" من انتصار في معركة أحد، وكانت آراءه متشابهة مع بعض الرواة والمؤرخين في عدة غزوات مثل الخندق، بني قريظه، وعقد صلح الحديبية.

أمام كل هذه التحديات سيكون من الصعب القول بأن النبي (ﷺ) كان يمارس سلطة فردية كما ادعى "ديورانت" باعتبار أن ذلك يدخل ضمن مساعي الرسول الحاكم في إطار ديني، وقد تبينا خلاف ذلك في عدة مواضع فاستشارة الرسول (ﷺ) لأصحابه حصلت في مواضع متعددة ولدينا دليلٌ في استشارته للأنصار في خوض معركة بدر بالإضافة إلى وجود آراء فردية للرسول (ﷺ) كما حدث في صلح الحديبية الذي أثار جمله من الاعتراضات من طرف أقرب الناس إليه "عمر" إذ كشفت لنا تلك الاعتراضات عن وجود رأي عام يقف وراء قرارات النبيّ، بل لا يتحرج في مساءلته إذا لازم الأمر. ناهيك على أن النبي (ﷺ) لم يكن أحادي التوجه إزاء خصومه، إذ أنه يحاول كسب ودهم بالعفو عنهم بمقدار ما كان قاسياً معهم إزاء محاربتهم.

إذاً يمكن القول بأن كل هذه الأزدوجيات الدينية، والسياسية، والاجتماعية في نظرى هي المحرك الفعال لإنجاح الدعوة المحمدية، بالإضافة إلى الحنكة، والجمع بين الآراء المختلفة ومناقشتها بموضوعية تامة باستثناء ما نزل فيه الوحي.

الفصل الثالث
أثر بشرية النبي (ﷺ) في القرآن

المبحث الأول: مصدرية القرآن

المبحث الثاني: موثوقية القرآن.

المبحث الثالث: جمع القرآن.

تمهيد:

إن المادة القرآنية هي المنزل الإلهي الوحيد الذي حفظه الله من التحريف والتبديل والزيادة والنقصان قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [سورة الحجرات، الآية 9].

وهو المأدوبة الجامعة والسابقة على العلم الحديث في كل مناحيه من طب، وفلك، وجغرافيا، وقانون واجتماع، وتاريخ، وقد التمس البشر بجميع أصنافهم مسلم، وغير مسلم هذا النور في آياته من خلال تدبرها، والجمع بينهما وبين، ما توصل إليه العلم اليوم.

ونظراً لما ذكرناه سابقاً وبالتأكيد على قوة الحجة القرآنية، فقد حاولنا في هذا الفصل قدر الإمكان الجمع والتوفيق، والرد على الأراء المختلفة للعلماء المستشرقين، والعلماء المسلمين التي تتمحور حول المراحل التي مر بها القرآن انطلاقاً من مصدره السماوي، وموثوقيته، ثم تدوينه وجمعه.

ونحاول أن نعالج في الجزء الخاص بمصدرية القرآن الآراء التي تعرض لها "ديورانت"، والتي كانت دائماً تستبعد المصدر الإلهي في استدلالاتها مقتصراً على المصدر البشري المحض، وقد استند على أراء بنى جلدته في الدفع بهذه الآراء المخالفة للمنطق الإلهي للتنزيل القرآني.

وتم تسليط الضوء في المبحث الثاني حول الموثوقية الإلهية، والنبوية، والصحابية التي مر بها القرآن ففي المراحل التوثيقية نبرهن على الإحاطة والحفظ النبوي، والصحابي الذي اعتمد عليه حفظ القرآن، الأمر الذي يجعلنا نقارن، ونرد، ونستدل بهذا التوثيق على ما يحاول "ديورانت" أن يدخله عليه من اراء، وأفكار تبناها كما يتبنى بعض من بنى جلدته أفكارهم المغايرة للعقل البشري، وكانت مرحلة الجمع هي آخر المراحل التي سنتعرض لدراستها حيث سنتتبع فيها أقوال "ديورانت" التي

اتفقت مع أقوال بعض المسلمين، وبعض بني جلدته، محاولين تصنيف بعض أقواله من خلال الآيات القرآنية، وأقوال العلماء المسلمين، وبعض المستشرقين المنصفين مثل "بوكاي" وغيره من أجل التأكيد على الإعترافات الغربية المقابلة للإنكار المتعصب الغربي الذي غض بصره عنه، لتعصبه الأعمى.

المبحث الأول
مصـــــدرية القـــــرآن

على الرغم من أن معجزة القرآن قائمة إلى يومنا هذا، وعلى الرغم من الأدلة المؤكدة على مصدره الإلهي فإن أدلة بعض المنكرين لهذا المصدر الإلهي قد تنوعت فزعم المشركون من قريش أنه أساطير الأولين وزعم بعض المستشرقين مثل "وات" بأنه عبارة عن مرض نفسي أصاب النبي (ﷺ) أو إصابته بداء الصرع، وادعى "ديورانت" أنه مقتبس (أي القرآن) من التوراة والإنجيل أو أخذه من شعر "أمية بن أبي الصلت"[1] إلى غير ذلك من الافتراءات التي كلما أمعنت فيها النظر ازداد استهزاؤك بهؤلاء المنكرين والمستشرقين وإليك ما قاله "ديورانت" عن هذا المصدر حيث يزعم بأن المسلمين يعتقدون مجرد اعتقاد بان كل حرف من حروفه موحى به من عند الله، وأن ما يتميز به القرأن عن التوراة هو صدوره عن محمد (ﷺ) وحده ولهذا فهو لا يمكن أن يعادل أي كتاب آخر جاء به رجل من عنده[2].

للرّد على هذه الفرية الباطلة وضع القرآن ذاته رهاناً يتحدى به من يقول بأن مصدره بشري قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود الآيتان13-14].

---

(1) هو أمية بن أبي الصلت الثقفي، ويقال له أبو الحكم شاعر جاهلي من رؤساء قريش اشتهر بالحنفية والتوحيد، وكان من الدعاة إلى نبذ الأصنام وتوحيد الإله كما أنه أحد شعراء ثقيف وشرفائها "ينظر موقع ويكيبيديا الالكتروني".

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص28.

فجعل عدم مقدرتهم على الإتيان بمثله حجة على أنه من عند الله، وما يؤكد على عجزهم عن الآيتان بمثل القرآن أن التحدي طال وقته مما جعله دلالة على صدقه ونبوءته[1].

وقد دلل بعضُ المستشرقين على المصدر الإلهي لهذا القرآن بالحجج العقلية، والمنطقية، ومن ذلك ما قاله (بوتر)[2] أن الرجل الأمي الذي نشأ في بيئة جاهلية استحال عليه معرفة معجزات الكون التي وصفها القرآن الكريم، والتي لا يزال العلم الحديث حتى يومنا هذا يسعى لاكتشافها فلا ضير من أن هذا الكلام كلام الله.

ويقول "سيرويا"[3] (إن القرآن وحي من الله لا يدانيه أسلوب البشر وهو في الوقت عينه، ثورة عقيدية)[4].

وفي مقابل هذه الإعترافات المنصفة لكتاب الله بوصفه كتاباً سماوياً ستجد أن هناك من عميت أبصارهم ومُلئت قلوبهم حقداً، مع إدراكهم بأنه كتاب إلهي غير أنهم خاصموا هذا الكتاب وحاربوه بشتى الوسائل المتاحة وغير المتاحة لأنهم يدركون أهميته في نفوس المسلمين، ومدى تعلقهم به، وأنه الباعث لنهضتهم، والموحد لكلمتهم، وسبب نجاتهم وقوتهم.

ومن هؤلاء الخصوم الحاخام الأكبر لإسرائيل "مرد خاوي الياهو" حيث وصى مجموعة عسكرية على وشك الالتحاق بالجيش الإسرائيلي "هذا الكتاب الذي يسمونه القرآن هو عدونا الأكبر، وهذا العدو لا تستطيع وسائلنا العسكرية مواجهته، كيف

---

(1) الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق وتقديم وفهرسة أبوبكر عبدالرزاق، الناشر دار أبوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، سنة 1983م، ص18.

(2) هي ديبورا بوتر، صحافية أمريكية اعتنقت الإسلام عام 1980، بعد زواجها من أحد الدعاة الإسلاميين في أمريكا (ينضر المكتبة الالكترونية، مصدر سابق).

(3) هو هنري سيرويا، مستشرق فرنسي، من أتاره "موسى بن ميمون وأتاره وفلسفته" (الصوفية والمسيحية واليهودية) "فلسفة الفكر الإسلامي" "ينظر المكتبة الالكترونية، مصدر سابق ".

(4) نقلاً عن: عماد الدين خليل، قالوا عن القرآن، مصدر الكتاب، المكتبة الالكترونية، مصدر سابق، ص8، ص26.

يمكن تحقيق السلام في وقت يقدس العرب والمسلمون فيه كتاباً يتحدث عنّا بهذه السلبية؟ على حكام العرب أن يختاروا، إما القرآن وأما السلام معنا"[1].

ويقول: الحاكم الفرنسي في الجزائر (إننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرؤن القرآن، ويتكلمون العربية غير أن هؤلاء الطاعنين لم يفعلوا شيئاً مع طول المدة ووقوع الفسحة، وكان أمره يعلو شيئاً فشياً، وهم على العجز والقدح في آياته عاجزون منذ نزوله على نبيه (ﷺ) إلى يومنا هذا، وقد أخبر الله عن هؤلاء الطاعنين والمعارضين للقرآن بأنهم قوم خصمون[2] قال تعالى: ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [النحل، الآية 4] وقوله: ﴿ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّداً ﴾ [مريم، الآية 98].

ومما يدعيه "ديورانت" صدور هذا الكتاب عن محمد (ﷺ) وحده، وصدور التوراة والإنجيل عن عدة أشخاص، وهو سبب تميز القرآن عن غيره على حد زعمه.

ومما يؤكد صدور كل هذه الكتب السماوية من المصدر الإلهي، وإن الله جاعل لكل نبي كتاباً لينذر به قومه وأن مسيرة الرسل تتوالى من إبراهيم إلى خاتم النبوءة محمد (ﷺ) وكما أكد القرآن على تصديهم وتكذيبهم وقتلهم الأنبياء، وإنكار ما جاءوا به قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ البَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ القُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة، الآية86].

ونجد أن "مونتاي"[3] يوافق مضمون ما جاء في الآية السابقة إذ يقول: "إن محمداً (ﷺ) خاتم الأنبياء والمرسلين وبُعث للناس كافة، وجاء برسالة خاتماً للوحي

---

(1) نقلاً عن عبدالمحسن بن متعب المطيري، الطعن في القرآن الكريم والرد على الطاعنين في القرن الرابع الهجري، رساله لنيل درجة الدكتوراه في كلية دار العلوم، المصدر، موقع مركز الكتب الالكترونية، ص10.

(2) الباقلاني إعجاز القرآن، مصدر سابق، ص19.

(3) هو فنساي مونتاي "المنصور بالله الشافعي" فرنسي ورجل بحث له العديد من الأبحاث والكتب الإسلامية أعلن إسلامه عام 1977، (ينضر المكتبة الالكترونية، مصدر سابق).

الذي نزل في التوراة والإنجيل وأقوى دليل على ذلك هو القرآن المعجزة"[1]، وأنا أرفض ما يقوله اليوم العالم الأوربي الحاقد على الإسلام والمسلمين باستثناء خاطرة واحدة، وهي أن القرآن ليس من تأليف محمد (ﷺ).

وفي بلاغة القرآن لم يستطع "ديورانت" أن يخرج بما قاله عن معترك الاعتراف بهذ البلاغة بدليل أنه أقحم نفسه في تناقض مبين فمن جهة قال بأنه لم يقم أحد بتعليم محمد (ﷺ) القراءة والكتابة، ويؤكد من جانب آخر أنه جاء بأبلغ كتاب في اللغة العربية[2].

إن المتأمل في ما قاله "ديورانت" يجد أن المجيء بالكتاب البليغ المبين لا يمكن أن يأتي به من لم يتعلم إطلاقاً بل يحتاج منه هذا الأمر التعمق في بحور العلم، وخاصة اللغة العربية حتى يستطيع أن يأتي بكتاب في البلاغة أو البيان، وليس بكتاب سماوي معجز وكيف تسني لمحمد (ﷺ) أن يأتي بكتاب فوق كتب البلاغة والبيان في حين أن هناك من هم يُجيدون فنون البلاغة، والشعر، والبيان، والنثر فهؤلاء حضهم في الإتيان بهذا الكتاب أكبر من حض من لم يتعلم.

إذ لا مناص من التسليم بأن الكتاب الذي ينسبه "ديورانت" إلى محمد (ﷺ) هو كتاب سماوي لأنه قارع من كانوا يُجيدون كل آليات اللغة وحتى أن العرب قد اشتهروا ببلاغتهم وخصامتهم ودخولهم في صراعات مع بعضهم في هذا المجال ولكن الكتاب الذي جاء به محمد (ﷺ) اخترق كل الأنماط البشرية المتعارف عليها في كلام العرب وغيرهم فيما قالوه شعراً ونثراً، ولقد بلغ المرتبة الإعجازية التي أذهلت عقول الفطاحلة في الشعر والنثر انظر ماذا فعل "الوليد بن المغيرة"[3] عندما سمع

---

(1) نقلاً عن عماد الدين خليل، قالوا عن القرآن، مصدر الكتاب، (المكتبة الالكترونية، مصدر سابق).

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص21.

(3) هو الوليد بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو ابن مخزوم أبو عبد شمس من زعماء قريش أدرك الإسلام وهو شيخ هرم فعادُه وقاوم دعوته، توفى بعد الهجرة بثلاث سنين وهو الوليد سيف الله خالد بن الوليد "ينظر الإعلام الزركلي، مصدر سابق ".

من الرسول (ﷺ) قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾ [النحل، الآية90] لقد سجد وقال سجدت لفصاحته، وسمع رجل أخر يقرأ ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِياً﴾ [يوسف، الآية 80] قال: (أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام) [1].

إن فصحاء اللغة وأُسود البيان من العرب الذين بُعث محمد (ﷺ) بين ظهرانيهم وهم الذين تحداهم القرآن، وخاصموه فعجزوا عن تحديه ولم يستطيعوا له سبيلاً هم أولى بتصنيف الكتاب الذي أُنزل على محمد (ﷺ) كونه من ضمن الكتب السماوية أو البشرية، وليس الأعاجم من الغرب مثل "ديورانت" وغيره والذين لا يدركون من اللغة العربية إلا القشور.

وإذا كان هذا الكتاب الذي جاء به محمد (ﷺ) لم يأتِ به استناداً على تعلم القراءة، والكتابة، وأنه لم يتعلمها فلا يستبعد "ديورانت"، أن يكون قد جاء بهذا الكتاب نتيجة لبعض النوبات وصفها بأنها نوبات صرع يصاحبها في بعض الأحيان صوت وصفه بأنه يشبه صلصلة الجرس، ويؤكد أن هذه الحالة متكررة مع هذه النوبات غير أنه لا يصاحب هذه النوبات عنس في لسانه أو ارتخاء في عضلاته كما هو الحال عند المصابين بداء الصرع[2].

ولا يمكن الانسياق وراء ما قاله "ديورانت" فهو نفسه يؤكد على نقيض ما قال به سابقاً في قوله بأنه جاء بأشهر وأبلغ كتاب في اللغة العربية، وإذا كان العقلاء الذين اشتهروا بالبلاغة والبيان والذين عاصروه (ﷺ) وأقروا بعجزهم عن تحدي هذا الكتاب لما فيه من البلاغة والبيان، وقوة التعبير وغيرها الكثير من الآليات اللغوية لم يستطيعوا أن يأتوا بسورة مثله كيف يأتي بهذا الكتاب من غُيب عقله خاصة أن المصروعين تتعطل لديهم حاسة الإدراك.

---

(1) نقلاً عن محمد السيد راضي جليل، عناية المسلمين بإبراز وجوه الأعجاز في القرآن الكريم، مصدر الكتاب موقع الإسلام، Aal.islam.com، ص54-56.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص26.

وكما أنه ليس هناك أدنى تقارب بين الصرع، والوحي القرآني الذي ينزل على محمد (ﷺ) وكيف يمكن أن يؤمن الناس برجل مصروع، ومما ينفي صدور هذا القرآن عن محمد (ﷺ) ما اكتشفه "موريس بوكاوي"[1] عندما عقد مقارنة بين التوراة والإنجيل، والقرآن، فلمس الكثير من التناقض والاختلاف في التوراة، والإنجيل إذ قال: لقد وجدت العديد من الأخطاء العلمية في التوراة والإنجيل، بينما لم أجد في القرآن خطأ واحداً ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اختلافاً كَثِيراً ﴾ [النساء، الآية 82] ويتسائل بوكاي قائلاً: كيف يمكن أن يوصف بأنه بشري بعد وصوله إلى هذا القدر من المعجزات العلمية التي اكتشفها العلم بعد أربعة عشر قرناً"[2].

ويؤكد المستشرق الإيطالي "فرانشيسكو جايريبلي" بطلان إدعاءات بنى جلدته من المستشرقين وغيرهم بقوله: أن ما يردده بعض المستشرقين اليوم من أقاويل بتأليف محمد (ﷺ) للقرآن لا تتعدى حدود المغالطات التي لا أساس لها من الصحة، وما هي إلا محاولة فاشلة للنيل من هذا الدين ومن نبيه[3].

والأدلة على عدم صدور هذا القرآن عن النبي (ﷺ) كثيرة جداً يمكن أن نشير إلى بعض منها فمن ذلك صدق الرسول (ﷺ) وأمانته بشهادة أعدائه كما روى البخاري في قصة "أبي سفيان" مع هرقل، فقال هرقل لأبي سفيان هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت لا، ثم قال: هرقل مبيناً مراده من السؤال وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فقد عرف أنه لم يكن لينذر الكذب على الناس ويكذب على الله[4] وتأكيد النبي (ﷺ) في العديد من

---

(1) هو طبيب فرنسي نشاء مسيحياً كاثوليكيا، وكان الطبيب الشخصي للملك فيصل آل سعود، أسلم بعد دراسته للكتب المقدسة عند اليهود والمسلمين، ومقارنة قصة فرعون، من مؤلفاته كتاب "التوراة والإنجيل والقرآن الكريم" بمقياس العلم الحديث توفى سنة 1998 "ينضر موقع ويكيبيديا الألكتروني"

(2) أنور الجندي، صفحات مضيئة من تراث الإسلام، ط الثانية، دار بوسلامة لطباعة والنشر والتوزيع، تونس، سنة، 1983م، ص16.

(3) حسن حسين معدي، الرسول في عيون غربية منصفه، مصدر سابق، ص169.

(4) أخرجه البخاري، بدء الوحي، رقم (3).

المواقف بأن هذا القرآن هو كلام الله وأنه مجرد إنسان كلّف، ببلاغ هذا الكلام، وهذا موجب التصديق لوجهين:

الأول: أنه (ﷺ) اشتهر بالصدق، وقد شهد له أعداؤه بذلك كما ذكرنا في الحديث السابق.

الثاني: أن في نسبة هذا القرآن إليه إظهار لقدراته ومواهبه النفسية، وتفوقه على قومه في قوة الفصاحة والبيان والعلم، وخاصة أن القوم كانوا يتفاخرون في قوة التعبير، ومع ذلك انسلخ عنه وقال: إنه كلام الله وليس كلامه، ولم يتغير موقفه من قوله هذا في أي وقت من الأوقات سواء كان في أول الدعوة عند بداية نزول الوحي، ولا في آخرها[1].

الثالث: ما فنده "ديورانت" بنفسه عن صدور القرآن عنه (ﷺ) بعد ما شكك فيه بإصابته بداء الصرع (ﷺ) إذ يقول: كلما تقدمت به السن ازداد ذهنه صفاءً وقدرة على التفكير وثقة بالنفس، وقوة في الجسم والروح حتى بلغ الستين من عمره، وقصاري القول أننا لا نجد دليلاً قاطعاً على أن ما كان يحدث للنبي (ﷺ) إصابته بداء الصرع ومهما بلغ هذا الدليل من القوة فإنه لا يقنع أي شخص مسلم متمسك بدينه[2].

لقد أصاب "ديورانت" حينما قال: إن أي مسلم متمسك بدينه لا يقتنع بداء الصرع كمصدر للقرآن، وكما أن من المتعارف عليه أن داء الصرع يتسبب في ضعف الذهن، وتشتت الأفكار، وضعف النفس، وما ذكره "ديورانت" مخالفاً لكل الأعراض، وهو ما يؤكد على استبعاد إصابة النبي (ﷺ) بهذا الداء، ويؤكد على ذلك بقاء هذا الكتاب "القرآن"، وسموه وإعجازه والذي لم ولن يُمس أو يسقط إعجازه إلى

---

(1) سعود بن عبدالعزيز الخلف، دحض دعوة المستشرقين أن القرآن من عند النبي (ﷺ)، دار غراس للنشر والتوزيع، مصدر الكتاب، (المكتبة الإلكترونية، مصدر سابق، ص157).

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص26.

هذه اللحظة، وبقاء المعجزة كل هذه المدة منذ البعث يؤكد بشكل قاطع على عدم صدوره عن محمد (ﷺ) أو غيره من البشر.

ومع نفي "ديورانت" الشديد للمصدر الإلهي للقرآن كوحي من الله إلى رسوله محمد (ﷺ) إلا أنه استطاع أن يتخذ موقفاً مغايراً تجاه هذه المصدرية ويوقع نفسه في التناقض الصريح وبعد الإطراء الذي ذكرناه سابقاً، والذي يرتكز على نوبات من الصرع كمصدر لهذا القرآن يؤكد لنا على المصدر الإلهي لبعض من سور القرآن في حين أن البعض الآخر يعود مصدره إلى جبريل فيقول: وإذا ما استثنينا سورة الفاتحة أو فاتحة الكتاب، فإن جميع السور الأخرى عبارة عن حديث من الله أو جبريل إلى النبي (ﷺ) أو أتباعه أو أعدائه، وتلك هي الطريقة التي سار عليها أنبياء بني إسرائيل، وهي ما نراه في الكثير من فقرات أسفار موسى الخمسة[1].

فالمصدر الوحيد للكتب المقدسة في كل الديانات منذ أن توافدات الأنبياء والرسل لهداية الناس مصدر إلهي مطلق لا يمكن أن يصدر عن غيره وأوكل الله إلى الملك جبريل –عليه السلام– مهمة تبليغ هذا الوحي، وليس إصداره عنه كما يزعم "ديورانت" وكما أن هذا الوحي لا يصح وصفه بالحديث حيث ورد ذكره في سياق موحد جمع فيه بين التسمية لهذا الإسم الوحي، وبين المصدر الإلهي لمفهومه، ومن جهة ثالثة بين تبليغه من الله ليلقن أو يصل عن طريق جبريل عليه السلام قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل، الآية 43].

هذا المصدر الإلهي للقرآن اعتمد على جبريل ليبلغ به كافة أنبيائه دون استثناء، ولعل هذا ما جعل "ديورانت" يقول إن ما يتبعه محمد (ﷺ) في الوحي الإلهي هو ما نراه في كثير من فقرات أسفار موسى الخمسة، ويؤكد الله تعالى على

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص51.

تعامله مع أنبيائه بنفس الأسلوب التبليغي لهذا الوحي سواء كانوا من بني إسرائيل أو غيرهم ممن لم يقصصهم علينا قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً ۞ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾ [النساء، الآيتان162-163].

ومن جهة أخرى أن الإنجيل، والتوراة، والقرآن يشتركون في الأصل الواحد ككتب سماوية من الله ولعل هذا هو وجه التشابه الذي انساق وراءه "ديورانت" فالإنجيل يختلف عن القرآن من حيث نزول الوحي على عيسى عليه السلام وأن الله أرسل عيسى مؤيداً لرسالة موسى عليه السلام قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإنجيل ﴾ [آل عمران، الآية48].

وجاء الإشتراك بين التوراة والإنجيل والقرآن في الرسالة المحمدية الخاتمة فقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإنجيل يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المُنكَرِ ﴾ [الأعراف، الآية157].

وإذا أمعنَّا النظر في كل الديانات السماوية من توراة، وإنجيل وإسلام وغيرها سنجدها واحدة من حيث المصدر الإلهي، والغاية "التوحيد" ومن حيث مصدر العائلة النبوية من أبيها إبراهيم عليه السلام والذي بُعث كل الأنبياء على ملته قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ [النساء، الماية 125].

ورغم كل هذه المؤشرات الدالة على صدق مصدرية وغاية الإسلام كناسخ لكل الديانات السابقة له يرجح "ديورانت" بأن سبب اتباع هذا النبي وتصديقه يرجع إلى ادعاء محمد (ﷺ) (حاشا لله) أن يكون مدعي بأن مصدر ديانته سماوي لأن محمد (ﷺ) يعتقد بأنه لا يمكن أن يسيطر على الناس ويطيعونه طاعة كاملة بما

يكفل لهم النظام والتماسك والقوة إلا إذا آمن الناس بأنه قانون سماوي منزل من عند الله[1].

إن الطبيعة البشرية جُبلت على عبادة أو دين تدين به سواء كان سماويا أو غير سماوي، فلا مناص من وجود هذا الجانب التعبدي في حياة البشر وقد أكد "ديورانت" في كتابة (دروس التاريخ) على أن الحياة لا يمكن أن يستقيم أمرها بدون الدين، وقد انتقد، ما تقوم به أوروبا من فصل الدين عن الدولة وأكد على مساهمة الدين في النهضة والحضارة حيث قال "لا يوجد مثال ناجح في صياغة الحياة الأخلاقية بدون معونة الدين وقد قامت فرنسا والولايات المتحدة وأمم أخرى بفصل حكومتها عن جميع الكنائس، ومع ذلك لجأت إلى معونة الدين والمحافظة عل النظام الاجتماعي، ولم تنحل من الارتباط بالدين بل لم تتبرأ من معونته[2].

إذا كانت أوروبا لم تستطع أن تتنصل عن دين محرف، وبعضه وضعي من قبل بعض الكهان، ولم يستطع "ديورانت" نفسه التخلي عن دينه المسيحي الذي نفى عنه وجود رسوله أصلاً "عيسى" عليه السلام، وأكد واعترف وأُعجب بشخصية النبي محمد (ﷺ) وما قام به من تغيرات في الجزيرة العربية إلا أنه لم يستطع أن يعترف بهذا المصدر الإلهي لرسالة محمد (ﷺ) رغم كل الأدلة والبراهين التي جعلت الناس يؤمنون بهذا المصدر السماوي، ويتبعونه ولو كان بشري المصدر لما اهتدى إليه وآمن به أصحاب الديانات الأخرى وعلى رأسها أصحاب الديانة المسيحية، واليهودية قال تعالى: ﴿ أَلَمِ ۞ ذَلِكَ الكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِّلْمُتَّقِينَ ۞ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ۞ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة، الآيات 1-4].

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص51.

(2) ول ديورانت، دروس التاريخ، مصدر سابق، ص103.

والمصدر الواحد لهذه الديانات يؤكد عليه "وات"، وهو أكثر تعصباً لديانته من تعصب "ديورانت" لها ومع ذلك يؤكد على تحريف ما يدين به من ديانة ويخص الإسلام بعدم التحريف فيقول: "إن الرسالة التي حملها محمد (ﷺ) لشعبه لا تختلف عن باقي الديانات التي حملها الأنبياء إلى شعوبهم حيث أن المضمون واحد وهو "التوحيد" ويؤكد أن بعض الباحثين والعلماء المسلمين توصلوا إلى أن الاختلاف بين القرآن الكريم وكل من العهدين القديم والجديد يكمن في إخضاع العهدين إلى التحريف[1].

وعلى غرار ما قاله "وات" فإن "ديورانت" يجعل من طريقة محمد (ﷺ) في إرجاع مصدر القرآن إلى الله تتفق مع الأسلوب الحماسي الفخم ومع البلاغة للذين يسمون في بعض الأحيان عن أقوال النبي اشعيا وليس ببعيد مما قاله "وات" فإذا كان المصدر واحداً فإن التشابه بين أساليب الدعوة قد يحصل وهنا نؤكد "لديورانت" من خلال ما قاله بأنه يؤكد لنا على المصدر الواحد والإلهي للديانات وللتشابه الحاصل بين الأسلوب الحماسي والبلاغي وهذا ليس مستبعداً، وهو يتفق مع ما قاله "وات" سابقاً في وحدة المصدرية لهذه الديانات.

أسلوب القرآن:-

إذا كان هذا شأن المصدر القرآني عند "ديورانت" فإن الأسلوب القرآني وفقاً لما يراه يدخل في دائرة الشعر والنثر والأوزان والقوافي حيث يؤكد أن الأسلوب القرآني ما هو إلا وسط بين الشعر والنثر تتخلله كثيراً من الفقرات الموزونة المقفاة غير أن هذه الأوزان لا تتبع قوافي منتظمة[2].

---

(1) مونتجمري وات، الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر، ترجمة عبدالرحمن عبدالله الشيخ، الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة 1998م، ص66.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص52.

لقد تولدت فكرة الأسلوب الشعري للقرآن لدى "ديورانت" من تأثره وتأثر الديانة اليهودية والمسيحية بالأسلوب الشعري الأسطوري كما يذكر في كتابة "قصة الفلسفة" والذي قال فيه إن الأسلوب الشعري الذي وضعت فيه الأساطير والتي تصدى لها العلم ولم يستطع هذا التصدي العلمي أن يكون كافياً للاستغناء عن دخول الشعر والنثر في ديانات الشعوب البدائية وخاصة كتاب العهد القديم "التوراة" والذي يزخر بألوان الشعر والبيان من تشبيه واستعارة، وكما أن اليهود الذين كتبوه لم يأخذوا بحرفية ما جاء في هذا الكتاب من مجاز واستعارة[1].

وعلى خلاف ذلك فإن القرآن والشعر لا يمكن أن ينسجما أو يلتقيا في أي جزئية تبعاً لاختلاف مصدر كل منهما عن الآخر، ولإنكار "ديورانت" للمصدر الإلهي للقرآن كعادته في كل مرة ياتي بمصدر جديد لهذا القرآن، وهو ما خوله هذه المرة لجعل مصدره وأسلوبه شعرياً، والقرآن ذاته يؤكد عدم تعلم هذا النبي (ﷺ) الشعر، وينفي أن يكون بينه وبين الشعر أي صلة قال تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس، الآية 69].

وكما أن القرآن نهى على الشعراء وذمهم قال تعالى: ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ۞ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ [الشعراء، الآيتان 223-224].

إذا كان في القرآن شيء من الشعر والنثر كما زعم "ديورانت" لكان فصحاء قريش وبلغاؤها ومن هم يشتغلون بالشعر أسبق من "ديورانت" إلى معرفة ذلك لأن الشعر سليقة لهم، سهل عليهم، يقول "الباقلاني" إن استدراك من يجئ الآن على فصحاء قريش وشعراء العرب قاطبة في ذلك الزمان وبلغائهم وخطبائهم وزعمه انه قد ظفر بشعر في القرآن ذهب أولئك النفر عنه وخفى عليهم شدة حاجاتهم إلى الطعن

(1) ل ديورانت، قصة الفلسفة، مصدر سابق، ص608.

في القرآن والغض عنه والتوصل إلى تكذيبه بكل ما قدروا عليه فلن يجوز أن يخفي على أولئك وأن يجهلوه ويعرفه من جاء الآن وهو بالجهل حقيق[1].

والجهل الحقيق الذي عليه "ديورانت" يأخذه من الأسلوب القرآني إلى السور وما تحويه من نغمات موسيقية رنانة حيث تميزت السور المكية الأولى بنغمات موسيقية رنانة، وأسلوب جزل قوي لا يدركه كل الإدراك إلا من يجيدون فن اللغة العربية والملمون بها والذين يعطفون على الدين الإسلامي[2].

إن القرآن يمتاز بأسلوب إيقاعي غني بالموسيقى في كل سورة منه أو آية، ولم يتميز بهذا الأسلوب مكي القرآن فقط كما يزعم "ديورانت" وهذا الأسلوب والنغمات والشدة وردت في كثير من الآيات المدنية، فأنظر إلى قوله تعالى في سورة البقرة وهي مدنية ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة، الآية 24]، وقال فيها أيضاً: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ۞ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [البقرة، الآية278].

وقال سبحانه في سورة آل عمران وهي مدنية أيضاً: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُوْلَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ العِقَابِ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المِهَادُ﴾[آل عمران، الآيات1310].

أن هذه الموسيقى الداخلية في القرآن تنبعث منه في كل لفظة وكل آية من آياته وإليك همس السين المكررة والتي تكاد تستشف نعومة ظلها مثلما تستريح إلى

---

(1) الباقلاني، إعجاز القرآن، مصدر سابق، ص47.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص52.

خفة وقعها[1] في قوله تعالى: ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ۞ الجَوَارِ الكُنَّسِ۞ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ۞ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ [التكوير، الآيات 15-18].

بينما تأتيك الرهبة وأنت تسمع لاهتا مكرراً صوت الدال المنذرة المتوعدة مسبوقة بالياء المشبعة المديدة في لفظة (تحيد) بدلاً من "تنحرف" أو "تبتعد"[2] في قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [سورة ق، الآية 19].

يقول (الزرقاني)[3] واشتمال القرآن بقسميه المكي والمدني على الإيقاع الموسيقى والقوة، والعمق، لأنه من حاجيات التربية الصالحة المؤمنة للأفراد والجماعات، والشعب، وسياسة الأمم والدول لأنها تتطلب هذا المزيج بين الهداية والترغيب والوعد والوعيد، والشدة واللين[4].

وفي نظر "ديورانت" لم يشتمل إدراك هذا الأسلوب على كافة البشر، وإنما اقتصر على الملمون باللغة العربية، وخفى عنه أن من خصائص القرآن التماشي مع كافة عقول البشر، غير أن الأفهام متفاوتة، وكما أن عدم إدراك "ديورانت" للغة العربية هو ما يفتقده وهو منطلق حكمهُ الباطل والذي لا يستطيع من خلاله أن يدرك ما ينم عنه القرآن من بلاغة، وبيان، ومخالفة الشعر وما عليه من أوزان خاصة به، وما عليه القرآن من بلاغة الأسلوب وحسنه وتناسقه، وعندما يفتقد الناقد العربي لمثل هذه الآليات لا يستطيع أن يدرك ما عليه القرآن من نغمات موسيقية وإيقاعات

---

(1) صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ط الخامسة والعشرون، دار العلم للملايين بيروت لبنان، سنة 2002، ص334-335.

(2) المصدر نفسه، ص334-335.

(3) هو محمد عبدالعظيم الزرقاني من علماء الأزهر الشريف له العديد من المصنفات أهمها (مناهل العرقات في علوم القرآن)، توفى بالقاهرة، سنة 137هـ)، ينضر الموسوعة العربية العالمية، مصدر سابق.

(4) الزرقاني، مناهل العرقان في علوم القرآن، مصدر سابق، هي 207.

وأصوات ناهيك عن كون الناقد أعجمياً قد يكون بعيد كل البعد عن هذه اللغة، وهذا من لا يقبل انتقاده أصلاً لضعف مكنته البلاغية.

ومما يؤكد على عدم إدراكه بكل هذه الآليات أو ربما تهكمه وعداوته البغضاء لهذا الدين نراه يؤكد على أن اللغة العربية الفصحى هي لغة القرآن، ولذلك فإن القرآن غني بالتشبيهات والإستعارات القوية الواضحة والعبارات الخلابة التي لا تتناسب وذوق الغربيين.

أن البنية النصية للقرآن ذات معانٍ سامية وضعت لبناتها وفق منهج لغوي معجز لردع المخاصمين له، ومن جهة أخرى تنطوي هذه البنية على كم هائل من الإستعارات والتشبيهات لإعطاء المعنى التأثيري والجمالي في نفوس المستمعين له، ولتقريب المعنى لعقولهم المتفاوتة في الإدراك والفهم، ولبقائه أي القرآن يملك ديمومة رفعة خطابه على الخطابات البشرية مهما بلغت من القوة في التعبير.

ومن أمثلة هذه التشبيهات، والاستعارات قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء، الآية18].

لقد استعمل الخطاب معنى القذف والدفع وهما مستعاران ومحسوسان، في حين أن الحق والباطل مستعار لهما وهما معقولان فما انطوي عليه التعبير من القذف، والدفع يظل غامضا بهذا الشكل، غير أن جمال النص ينطق بالإفصاح عن نفسه عندما نتصور معنى الحق في الآية ونشبهه بالجسم القوي العنيف الذي يفتك بجسم الباطل الضعيف الحفيف فيقع الباطل تحت شدة فيدفعه ويكاد يلصقه بالتراب وتزهق روحه، وهكذا فقد اجتمعت في هذا المثال ثلاثة معانٍ هم التجسيم، والتشخيص والتخيل فجاء التجسيم في صورة الحق بالقذيفة الثقيلة والتشخيص في دفع الحق للباطل وإزهاقه إياه، وجاء التخيل في وصف نوع الثقل الناتج عن حركة

القذف ثم الدفع فالإزهاق، وكل هذه المواصفات ما هي إلا صدى لدحر وتحطيم ما يتصنعه الباطل من قوة[1].

إذن فالقرآن نفذ بقوة من مضمار البلاغة ليسيطر بأسلوبه وألفاظه على قوة البيان فلا يشق له غبار ومن لم يستطع أن يخترق هذا الحاجز اللغوي ويعجز وربما لا يعترف بعجزه عن التحدي، والاختراق لهذا الحصن فيأخذ منحنى مغايراً يسعى إلى النزول بهذا الكتاب إلى مرتبة البشرية مثلما فعل "ديورانت" في تخبطه في آرائه عن مصدره، وإعجازه، وأسلوبه، وبلاغته، وفصاحته خلص إلى نتيجة مفادها أن هذا الكتاب بإجماع كل الآراء أنه خير كتاب وأول كتاب في الآدب النثري العربي. قال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ ﴾[الصف، الآية 8].

(1) صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، مصدر سابق، ص324-325.

المبحث الثاني
موثوقيـــة القـــرآن

اختلف المفسرون، والمؤلفون، في المعنى اللفظي لكلمة "القرآن" وكلٌ صنف الكلمة ضمن منهجه وطريقته فهناك من بحث عنها في السير، وهناك من اكتفى بالمعنى اللغوي للكلمة، وهناك من اجتهد وفقاً لمنهجه الاستنباطي.

وقد رأى "ديورانت" أن اللفظ مشتقٌ من القراءة[1]، أما المفسرون والمؤلفون في علوم القرآن، من اللغويين ورواة السيرة فقد اختلفوا في معنى الكلمة إلى فريقين.

أ. ذهب الفريق الأول: إلى أن لفظ "القرآن غير مهموز "قرآن" أي أنه ليس من القراءة في شيء، ومنهم أيضاً من قال: إنه اسم علم "غير مشتق" لكتاب الله كما هو الحال بالنسبة للتوراة فهي اسم علم للكتاب الذي أنزل على موسى عليه السلام، والإنجيل اسم علم للكتب التي كتبها الحواريون حول دعوة عيسى، ومنهم من اشتق الكلمة من قرنت الشيء بالشيء أي جمعتها معاً فاصبحا شيئاً واحداً أي أنه آيات وسور جمع بعضها إلى بعض بعد نزوله منجما مفرقاً.

ب. ورأى الفريق الثاني: أن هذا اللفظ مهموز "القرءان" مع اختلافهم في صياغته فمنهم من قال: هو وصف يشتمل على فعلان مشتق من القُرء بمعنى الجمع ومنه الماء في الحوض أي جمعته، ومنهم من قال: سمي القرآن بذلك لأنه جمع السور بعضها إلى بعض[2].

وبالنظر إلى ما قاله الفريق الثاني فإنه لا يجوز أن يطلق على كل جمع قرآن، ولا لجمع كل كلام قرآن، وإنما سمي قرآنٌ كونه جمع كل الثمرات الموجودة في الكتب السابقة المنزلة.

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص48.

(2) محمد عابد الجابري، مدخل إلى القرآن في التعريف بالقرآن، مصدر سابق، ص152-153.

وقيل أنه جمع كل أنواع العلوم، وقد رجع البعض بهذه الكلمة إلى كلام العرب فكلمه قرآناً تعني بيانه وأظهره كأن نقول: "ما قرأت الناقة سلاقط، أي ما أسقطت ولدا"، ويبدو من الواضح أن هذه التأويلات بعيدة عن المعنى الظاهر للكلمة، حيث ورد المعنى اللغوي لهذه الكلمة في كتب اللغة كتالي القرآن لغة من قرأ يقرأ قراءة وقرءانا مثل رجح رجحاناً وغفر غفراناً...الخ ومما يؤكد هذا المعنى الآية الأولى التي نزلت منه قال تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ مخاطبة النبي فأجابه ماذا أقرأ مؤكداً على المعنى ذاته، وكذلك من السياقات التي تؤكد ذات المعنى للكلمة قوله: ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [سورة القيامة، الآيات 16-19].

فيصبح معنى هذه الكلمة ما بين دفتي المصحف موازنا لمصطلحي (القراءة) و(التلاوة).

وقد تكون الآية السابقة أول آية ذُكر فيها لفظ "قرآن" لاستعماله كمصدر بمعنى القراءة، وعلى نسق هذا القرآن في التدرج فإنه يقفز بنا من حدود المعنى اللغوي الذي يعني "القراءة" إلى أعماق المعنى الشرعي، والذي يعني كلام الله المقروء أو المتلو بلسان عربي مبين وأكدت هذا المعنى آية في سورة البروج كحجة دامغة لإعراض قريش عنه وتكذيبه[1]، وذلك في قوله تعالى رداً عليهم ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج، الآية 22].

إذن فهذا المعنى الإشتقاقي اللغوي لكلمة "قرآن" يؤكد "ديورانت" على اشتقاقه من كلمة "القراءة" وهذا ما جاءت به كتب اللغة، وما كنا بصدده فيما سبق حيث قال "ديورانت" لفظ القرآن مشتق من القراءة، ويطلق على كتاب المسلمين كله أو على جزء منه[2].

---

(1) محمد عابد الجابري، مدخل إلى القرآن في التعريف بالقرآن، مصدر سابق، ص153.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص48.

لقد جمع "ديورانت" بين المعنى اللغوي واللفظي للكلمة غير أنه قد أخطأ في تسميته له بكتاب المسلمين؛ لأن المسلمين يمكن أن يُنسب إليهم هذا الكتاب لتصديقهم به كجزء من الإيمان، ولا يمكن أن يسمي أو يكون من أسمائه "كتاب المسلمين" كاسم له ويطلق عليه، والفرق بين نسبهم إليه أي المسلمين، وتسميته باسمهم كبير، ولا يجوز ذلك.

أما تعيين كلمة "قرآن" للجزء أو للكل منه كاسم له كما يقول "ديورانت" فهذا المعنى قد يحتمل الصدق؛ وحتى نتأكد من ذلك نحتاج إلى بعض التمحيص وبشيء من الدقة تناول "محمد عابد الجابري" هذه الجزئية إذ قال: (أن المؤلفات التي كتبت في موضوعات "علوم القرآن " على أهميتها وضخامتها لا تسعفنا أو على الأقل ما اطلعنا عليه منها) بجواب عن هذا السؤال، بل لربما لم تطرح بالمرة.

وعندما سُدَّ الطريقُ أمام الجابري فلم يجد أمامه إلا البحث عن الجواب بتتبع آيات القرآن الكريم حسب ترتيب نزول سورها، علماً بان ترتيب النزول ليس كترتيب المصحف.

وأكد "الجابري" على أن أول مرة ذُكر فيها لفظ "القرآن" كان في سورة البروج، والتي كان عددها حسب النزول "27" ولم يُذكر هذا اللفظ في السور الأولى التي نزلت قبل الهجرة إذ لم يُذكر هذا اللفظ قبل نزول سورة البروج إذن فماذا كان يطلق على "القرآن" قبل نزول هذه السورة؟

في الواقع لم يطلق على القرآن أي اسم إلا ابتداءً من سورة التكوير ورقم ترتيبها (7) وجاء أول أسماء هذا الكتاب في صورة رد على المشركين ؛ لوصفهم الرسول(ﷺ) بالجنون، وعن القرآن أنه قول شيطان فقال تعالى عنه: ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [التكوير، الآية 19] وأنه ﴿ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [التكوير، الآية27]. وسيتكرر معنا لفظ "ذكر" و"ذكرى" كأسماء للقرآن قبل تسمية بهذا الاسم "القرآن"[1].

(1) محمد عابد الجابري، مدخل إلى القرآن الكريم في التعريف بالقرآن، مصدر سابق، ص152.

ومن هنا يمكن القول بأن ما قاله "ديورانت" عن تسمية الجزء من "القرآن" بهذا الاسم صحيح ؛ لأن الذكر هو الآخر من أسمائه، مثلما "الفرقان" من أسمائه أيضاً وكل هذه الأسماء جاءت تسميتها من ذاته.

موثوقية الجمع:

بما أن اسم القرآن يطلق علي أي جزء من أجزائه كما تعرضنا فيما سبق إلى أن القرآن عبارة عن أجزاء جمع بعضها إلى بعض، كما هو الحال عند الكتب المقدسة لليهود "التوراة" والمسيحيين "الإنجيل" والتي تتألف من أجزاء جمعت مع بعضها البعض.

فإن القرآن لم يكن له أجزاء أصلاً حتى يتألف منها كما هو الحال عند أسفار موسى الخمسة عند اليهود أو على غرار ما حصل من جمع لكتاب المسيحيين "الإنجيل" ويكمن الاختلاف بين الكتب الثلاثة السابقة في أن جمع القرآن سابق للجمع الذي حصل على يد البشر للكتب السابقة له، وهذا الجمع كان في اللوح المحفوظ في السماء الدنيا قبل أن يقوم الرسول (ﷺ) بجمعه أول الجمع في قلبه مصدقاً لقوله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ۞ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج، الآيتان 21-22] ولم يقتصر دور الرسول (ﷺ) والصحابة سوى على التدوين والحفظ بدون تجزئة ولا تقسيم ولا زيادة ولا نقصان، وكان تدوينه وحفظه من أجل أن لا يضع منه شيء.

بالنظر إلى كتب اليهود وأسفارهم فإن تاريخها مليء بالشبهات، وجمعها لم يخضع لتحقيق وجمع رصين وأنهم ينسبون هذه الأسفار إلى موسى دون دليل على صحة ذلك وهم يعتقدون أن الله أوحي بها إلى موسى وقد أُجريت عليها بعض الملاحظات والمقارنات من قبل الباحثين حيث قاموا بملاحظة اللغة والأساليب التي كتبت بها هذه الأسفار، وما تشتمل عليه من موضوعات حيث ظهر لهم بأنها ألفت

في عصور لاحقة لعصر موسى بوقت غير قصير، وأنها تحتوي على عقائد وشرائع مختلفة تعكس الأفكار والنظم المتعددة التي كانت سائدة لديهم في مختلف أدوار تاريخهم الطويل، وهي تختلف كل الاختلاف عن التوراة المقدسة[1]، والتي يذكرها القرآن بأنها بعيدة كل البعد عمَّا عندهم اليوم من توراة محرفة مكتوبة بأيديهم، قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة، الآية79].

وفي مقابل هذا التحريف والتأليف البشري للتوراة والإنجيل حفظ الله القرآن من التحريف والتأليف، ونجد أن القرآن مر بمراحل توثيق متعددة، وفي عهود مختلفة بدأت مباشرة في عهد الرسول (ﷺ) وانتهت في عهد الخليفة عثمان وسنكتفي في هذا المبحث بذكر مرحلة التوثيق في عهد الرسول (ﷺ) وسيأتي ذكر المراحل الأخرى في المبحث الثاني، ومن مراحل التوثيق في عهد النبي (ﷺ).

المراحل الآتية:

1. نزول القرآن منجماً من مصدره السماوي المحفوظ والمجموع فيه، وهذه الطريقة في النزول تساعد على حفظه وتثبيته.
2. كتابة كل جزء ينزل على الرسول (ﷺ) من قِبل كتَّاب الوحي الذين كانوا يتلقونه من الرسول حرفاً حرفاً، ولم يهملوا منه حركة ولا سكوناً ولا أثباتا ولا حذفاً، ولم يدخل عليهم فيه شيء من شك ولا وهم.
3. التنافس الكبير بين الصحابة على حفظه وكثرة تلاوته حتى تداول بينهم ووصل إلينا عن طريق التواتر.

---

(1) علي عبدالواحد وافي، الأسفار المقدسة في الديانات السابقة للإسلام، ط الأولى، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، سنة 1996، ص17.

4. معارضة الصحابة رضوان الله عنهم للرسول (ﷺ) بما كانوا يحفظونه فالرسول (ﷺ) كان يعارض جبريل والصحابة يعارضون به الرسول(ﷺ)[1].
5. معارضة جبريل للنبي (ﷺ) كل سنة في شهر رمضان، فعن أبي هريرة قال: "كان يعرض على النبي (ﷺ) كل عام مرة فعرض عليه مرتين في العام الذي قُبض فيه، وكان يعتكف كل عام عشر فاعتكف عشرين في العام الذي قبض فيه"[2].

ومع كل هذا التوثيق الذي حصل للقرآن يشكك "ديورانت" في مصداقيته وعدم تحريفه، ويلاحظ أن ما أنكره هو قد اعترف به غيره من بني جلدته فالمستشرق "بورلي" يختلف مع "ديورانت" في كل المحاور تقريباً ابتداءاً من قوله بتشابه القرآن مع الكتب المقدسة لليهود والمسيحين سواء كان على صعيد الحفظ من التحريف أو في تاريخ الجمع حيث يقول "بورلي": "إن القرآن هو العمل الوحيد الذي عاش دون أن يُبدل فيه ولا يوجد شيء يمكن أن يقارن بهذا الكتاب أدنى مقارنة في الديانة اليهودية ولا في الديانة المسيحية" [3].

هذا الاختلاف بين الديانات الثلاثة والذي أكد عليه "بورلي" هو ما جعل "ديورانت" يقول: بأن الظروف التي مر بها القرآن جعلته عرضة للتكرار وعدم الإنسجام، فكل فقرة فيه تؤدي إلى غرض واضح مفهوم فهي إما أن تقرر عقيدة، أو تأمر بصلاة أو دعاء أو تسن قانوناً أو تشهِّر بعدو، أو توجه إلى عمل، أو تروي قصة، أو تدعوا إلى قتال، أو تعلن نصراً، أو تصوغ عهداً، أو تطلب مالاً أو تنظم

(1) عبدالعال سالم مكرم القراءات القرآنية وأثرها في الدراسات النحوية، ط الأولى، دار عالم الكتب مصر، القاهرة، سنة 1430هـ، 2009م، ص9-11.

(2) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كان جبريل يعرض القرآن على النبي (ﷺ)، رقم (4998).

(3) نقلاً عن عبدالعال سالم مكرم، القراءات القرآنية وأثرها في الدراسات النحوية، مصدر سابق، ص10.

شعيرة، أو تنص على مبدأ أخلاقي، أو تضع نظاماً للتجارة، أو الصناعة، أو عمل من الأعمال المالية[1].

لعل "ديورانت" يغفل عما أدلى به من أراء عن الديانة المسيحية واليهودية في كتابه "قصة الفلسفة" وما يدور بينهما من صراعات في تقرير العقائد التي تستند إلى الطبيعة المجازية وهو يشير إلى ما قاله الفيلسوف الألماني "شوبنهور" حيث يقول الأخير بأن الطبيعة المجازية في جميع الديانات هي المحرك للصراعات بينها فالديانة المسيحية مثلاً هي عبارة عن فلسفة تشاؤمية عقيمه وجوهرها قائم على مبدأ الخطيئة الأصلية، وأن السبب في تغلب الديانة المسيحية على الديانة اليهودية وعلى وثنية الرومان هو نظرتها التشاؤمية، واعترافها بأن حالنا يسودها التطرف في البؤس والخطيئة في حين أن اليهودية والوثنية كانتا متفائلتين واعتقدنا أن الدين عبارة عن رشوة يقدمها الناس إلى الآلهة لتساعدهم على النجاح في الدنيا[2].

لاحظ بأن "ديورانت" قد اعترف بخضوع الديانتين اليهودية والمسيحية إلى التحريف وإدخال الفلسفة عليهما وخاصة الفلسفة اليونانية، وفلسفة "شوبنهور" التشاؤمية وعند ذكره سابقاً التكرار الحاصل للقرآن والذي يزعمه قال إن كل فقرة فيه تؤدي إلى غرض واضح مفهوم، وهذا ما يمكن أن نستدل به في عدم خضوع هذا القرآن لأي نوع من أنواع التحريف، والتبديل الذي حصل للديانات الأخرى، وأصبحت مجرد فلسفات عقيمة متناقضة لا يمكن أن يستقيم أمرها وسيبقى أتباعها يتبعونها لتعصبهم المذهبي، وهم بداخلهم لا يؤمنون بها كما هو الحال عند "ول ديورانت" وغيره.

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص48.

(2) ول ديورانت، قصة الفلسفة، مصدر سابق، ص48.

ومن كانت هذه حاله مع ديانته لا يمكن أن يدرك ما جاء به القرآن من تفصيل وتدقيق لحياة الناس في جميع جوانبها الأمر الذي يجعله يقول بأن القرآن تعرض للتكرار وعدم الانسجام.

إن القرآن الكريم جاء شاملاً لجميع الجوانب في حياة بني آدم، لم يغفل صغيرة ولا كبيرة إلا وبينها للعباد وكتاب الله هو الشرع البيّن الذي يصلح لكل زمان ومكان ويعبر إلى يوم القيامة، فقد جاء تبياناً للحق، وتفصيلاً للأحكام فقد اشتمل على أحكام العقيدة وأحكام العبادات، وأحكام المعاملات، وأن آياته تكررت ألفاظها، ليس على سبيل الحشو والإملال وإنما هذا التكرار جاء لأغراض سامية، تبين إعجاز لغته وإعجاز لفظه وإعجاز آياته وانسجام وترابط سورة وسياق خطابه القرآني، فهو يصدق بعضه بعضاً، ويفسر بعضه بعضاً، وقد تحدى بيانه أن يأتي أحد ولو بآية من مثله أو سورة من مثله أو بمثله والآيات كثيرة في هذا التحدي منها قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة، الآية 23].

والقرآن الكريم معجز في بيان الأحكام وذلك بالترغيب في الجنة والترهيب من العذاب، وضرب الأمثلة وسوق أخبار الأمم الخالية للعبرة والاتعاظ وسن القوانين في جميع أحكام العبادات والمعاملات فهو شرع بيّن، قال تعالى: ﴿ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ ﴾ [آل عمران، الآية 7]، فالحكم بيّن وواضح وعليه يُفهم الشرع وأحكامه ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾[نفس الآية]، وهذه الآيات تشابهة في حروفها وأشكلت كلماتها كالحروف المقطعة وآيات الصفات، فهي من علم الغيبيات وقد حذَّر الرسول من المحاولة فيها، أما المتشابهة اللفظي فإن تكراره يختلف في الأغراض، كتخصيص عام، أو تقييد مطلق، أو تفصيل مجمل، أو إيضاح مبهم، فهو في موضعه أجمل منه لما يحتوي على معاني عميقة تفهم بلغته، تدل على إعجازه البياني، فوصفه الله في قوله: ﴿ لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت، الآية 42]. فمعاني

القرآن مترابطة ووحدة واحدة متحركة من الداخل والخارج في كل زمن إلى يوم يأتي تأويله.

موثوقية مصدره:-

لهذا الجانب من الموثوقية اهتمام لدى "ديورانت" غير أن هذا الجانب يكاد يتفق فيه مع بعض أقوال الرواة، وبعض أهل السير، وهو يصف توثيق محمد(ﷺ) لنزول القرآن من مصدره السماوي حيث يقول: عن هذا التوثيق عندما طلب من محمد (ﷺ) أن يوصف كيفية نزول القرآن عليه مقطعاً على لسان جبريل قال: إن القرآن كله محفوظ في السماء، وإنه نزل عليه متقطعاً، ولما سئل كيف يتذكر هذه الأقوال القدسية قال: إن جبريل كان يطلب إليه أن يكررها كلمة كلمة[1].

فإن الحكمة الإلهية اقتضت تنزيل هذا القرآن منجماً على قلب رسول الله(ﷺ): حتى يُعلِّمه كل يوم شيئاً جديداً ويرشده ويهديه ويثبته، وهذا التدرج في التنزيل يساعد على التدرج في الأحكام وتربية الصحابة وكان نزوله بحسب الحاجة خمس آيات أو أكثر أو أقل، وهذه الطريقة الإلهية في نزوله منجماً لم ترق لبعض المشركين الذين ألفوا أن تلقى القصيد جملة واحدة، وبعضهم سمع من اليهود نزول التوراة جملة واحدة، فأخذوا يتسآلون عن نزول القرآن نجوماً وودّوا لو ينزل كله مرة واحدة ونزوله بهذا الشكل منجماً؛ يؤكد على تميز هذا الكتاب عن باقي الكتب السماوية، ولولا ذلك لما تساءل بعض المشركين عن سبب نزوله منجماً[2].

وقد ردَّ القرآن هذا التساؤل على أهله في سورة الفرقان فقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾[الفرقان، الآيتان32-33].

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص25-26.

(2) صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، مصدر سابق، ص49-51.

إذا كان المشركون قد تسآلوا عن سبب نزوله منجماً على عكس ما حصل للتوراة، والتي نزلت جملة واحدة، ولم تسلم من التحريف فإن القرآن كله محفوظ جملة واحدة في السماء ونزوله كان منجماً على لسان جبريل كما يؤكد "ديورانت" وقد نزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا وهو ما يؤكد عدم تجزئته وعدم مقارنته بالأسفار الخمسة التي تتألف من أجزاء قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ القُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة، الآية184].

وهذه الطريقة في الحفظ لم يتبعها النبي (ﷺ) بأمر من جبريل وإنما كان يكرر ما يقوله له جبريل من القرآن مع ما يعانيه من شدة التنزيل عليه وكل هذا التعب والتكرار؛ كان لخوفه من ضياع حرف أو آية حتى طمئنه ربه بحفظه وجمعه له في صدره، وأمره بترك معاناة تحريك لسانه به أثناء نزوله عليه فقال تعالى: ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [القيامة، الآيات16-19]. وقال تعالى: ﴿لاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾[طه، الآية114].

وتؤكد هذه الآيات بأن القرآن تعهدته العناية الإلهية بالحفظ والجمع والبيان، وأمر من خلالها الله رسوله (ﷺ) بترك المشقة والتفكير في حفظه وجمعه، وكل ما عليه هو التبليغ.

مع تأكيد الله على جمع وبيان هذا القرآن ما زال "ديورانت" يؤكد على عدم فهمه وبيانه للبشر الآخرين ويستدل على ذلك بان هذا القرآن الذي جاء به محمد (ﷺ) يُعد من حديثه في ذلك الزمان، فلا يمكن فهمه دون معرفة واسعة بتاريخ ذلك الوقت وتقاليد أهله[1].

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص50.

حتى نحكم على القرآن إذا كان بشري المصدر أو حديث من محمد (ﷺ) أو نحكم على فهمه من خلال زمان أو مكان معين يجب علينا أن نفهم ونعرف بنيته النصية من حيث الناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، والعام والخاص والمقدم والمؤخر، والموصول والمفصول وغريبه، وما لا يعرف معناه إلا باللغة العربية أو بالسنة أو بالإجماع قال "ابن عباس" القرآن على أربعة أوجه حلال وحرام لا يسع جهلة وتفسيره يعلمه العلماء، وعربية تعرفها العرب وتأويل لا يعلمه إلا الله[1].

فكل هذه التخصيصات النصية تُعد من الآليات المتعارف عليها لفهم القرآن واستصدار أحكامه بالإضافة إلى المعرفة الواسعة باللغة العربية، وليس بتاريخ ذلك الوقت كما قال "ديورانت" فهذه اللغة أي العربية هي اللغة الفُصحى ولغة البيان، والفهم والمعرفة وهي العمود الفقري للتيسير وفهم القرآن، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء، الآيات 192–195]. وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِياً﴾ [الرعد، الآية 38].

إذن للقرآن أساليبه وآلياته ولغته التي يفهم بها، وهي متيسرة لكل البشر عربي وأعجمي، ولم ترتبط معرفته وفهمه بمصر أو عصر دون آخر حيث قيد "ديورانت" هذا الفهم والمعرفة للقرآن بعصر الرسول (ﷺ) وتقاليد أهله الذين أُنزل فيهم وعلى رسول منهم، وفيهم، ولو كان ما يقول "ديورانت" صحيحاً لما استطاع علماء اليوم ومن سبقوهم أن يأتوا بهذا الكم الهائل من المؤلفات والتفاسير المنبثقة من مادة القرآن وسنذكر بعضاً منها على سبيل المثال لا الحصر "تفسير القرآن الكريم لإبن القيم" 751هـ "الدرر المنثور للسيوطي" المتوفي 911هـ، ومن المؤلفات المعاصرة "تفسير الشعراوي"، المتوفي 1418هـ. "والتفسير الميسر" وهو لنخبة من أساتذه التفسير المعاصرين – ط1430هـ –2009م.

---

(1) الحارث بن أسد المحاسب أبو عبدالله، فهم القرآن ومعانيه, تحقيق حسين القوتلي، دار الفكر بيروت، ط الثانية، سنة 1398هـ، ص248.

كل هؤلاء العلماء والمفسرين لم يعاصروا النبي (ﷺ) وكانت ولا زالت تفسيراتهم معتمدة وموافقة لضوابط القرآن والسنة واللغة فهذا القرآن يملك الدينامية المتحركة والصالحة لكل زمان ومكان وسيبقي المعجزة الخالدة رغم الكيد الشديد من الطاعنين والمشككين. ويقول "ديورانت" بأن عدد سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة، وهي مرتبة حسب طولها لا بحسب نزولها، وذلك غير معروف فهو يبدأ بالسور الطوال وينتهي بالسور القصار، وإذا كانت قصار السور بوجه عام أقدم عهداً من طوالها فإن القرآن تاريخ مقلوب[1] يحاول "ديورانت" إدخال بعض الشبهات المزعومة على ترتيب سور القرآن، وربما لجأ إلى هذا الأسلوب حول هذه الجزئية؛ لأن الاختلاف في أراء العلماء عن هذا الترتيب قد حصل بينهم، وتختلف الأدله تبعاً لاختلاف الحجج، ورغم هذا الاختلاف في الرأي بين الصحابة، والعلماء فإن أمره محسوم بالنسبة للمسلمين العارفين لدينهم والمحيطين بأسباب وحوادث هذا الترتيب، وسنذكر بعض من هذه الاختلافات والحجج والتي وإن اختلفت لم تغير شيئاً وإنما تصب في مصلحة جمع الآمة، وليس تفريقها.

ويقول: أصحاب الرأي الأول بأن الترتيب الذي عليه سور القرآن اليوم لم يكن بأمر النبي (ﷺ) وإنما باجتهاد الصحابة، ويثبت هذا القول جمهور العلماء منهم مالك، والقاضي أبو بكر. ويستند هذا الرأي إلى أن مصاحف الصحابة كانت مختلفة في ترتيب السور قبل أن يجمع القرآن في عهد عثمان، ولو كان هذا الترتيب بأمر الرسول (ﷺ) ما كانوا ليهملوهُ ويتجاوزوا عنه.

ويرى أصحاب الرأي الثاني بأن ترتيب السور كان توقيفي من الرسول (ﷺ) شأنه شأن ترتيب الآيات، ويستدل أصحاب هذا الرأي بأن الصحابة أجمعوا على المصحف الذي كُتب في عهد عثمان، ولم يخالف منهم أحد، ولا يتم هذا الإجماع إلا

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص50.

إذا كان هذا الترتيب عن توقيف لأنه لو كان عن اجتهاد لتمسك أصحاب المصاحف المخالفة بمخالفتهم.

وجمع أصحاب الرأي الثالث بين الرأيين حيث قالوا بأن ترتيب بعض السور توقيفي من النبي (ﷺ) وترتيب البعض الآخر باجتهاد من الصحابة، وقد ذهب إلى هذا الرأي فطاحل من العلماء[1]، ولعله أصوب وأمثل الآراء لأنه ورد في الرأيين السابقين أدلة تقول بالتوقيف، وآخرى تقول بالإجتهاد.

إن ترتيب السور بعيد كل البعد عما قاله "ديورانت" بتسبيق طوال السور على نزولها، وذلك لأن ترتيب النزول يختلف عن الترتيب الذي عليه المصحف اليوم، ولا علاقة لهذا الترتيب بتقديم طوال السور ولا بتأخيرها؛ لأن القرآن يبدأ بسورة الفاتحة، وهي من قصار السور، وكما أن الخطأ الذي ارتكبه "ديورانت" بوصفه لقصار السور بأقدم من طولها يعد مجرد كلام لا يستند إلى أي دليل ويضيف إلى قوله السابق بأن القرآن عبارة عن تاريخ مقلوب ولا يمكن أن يوصف هذا الكتاب بالتاريخ أصلاً لأنه كتاب عقائد وإيمان[2].

نقول بأنه لا يمكن لأحد لم يقرأ القرآن ويلتمسه بجوارحه ويفهمه فهما صحيحاً أن يطلق عليه حكماً أو يصنفه ضمن كتب التاريخ أو غيرها، ولو قمنا بحذف حرف من حروفه في آية من آياته أو تغييرها من مكانها فإن العقل الإنساني لا يقبلها دون أدنى شك، إذن كيف يمكن الانسجام مع قراءاته من نهايته إذا كان تاريخاً مقلوباً!.

وإذا كان المسلمون يحترمون الكتب المقدسة لدى اليهود والنصارى، وهم يعلمون بأنها محرفة ومبدلة دون أدنى شك، فيتحتم علي أصحاب الديانات الأخرى احترام هذا الكتاب وما جاء به، واحترام الترتيب الذي عليه من سور وآيات سواء كان

---

(1) الزرقاني، مناهل الفرقان في علوم القرآن، تحقيق مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر بيروت، سنة 1996، ص153-354.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص50.

توقيفيا أم اجتهادياً، ونقبل منهم التحدي والمقارنة على أن يأتوا بحجج تستند إلى أدلة منطقية، وعقلية يقتنع بها كل مسلم متمسك بدينه.

المبحث الثالث
جمـــع القـــرآن

بدأ جمع القرآن منذ نزول أول آياته بإشراف المنزّل عليه محمد(ﷺ) بدقة بالغة وتحرٍ وحرّص الرسول(ﷺ) والصحابة على تدوينه وحفظه، وتدراسه، وكان من تمام حفظ الله لهذا الكتاب قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر، الآية9].

مع كل هذه المسلمات التاريخية التي ظمنت حفظه من كل الشوائب تجد أن هناك زمرة لا تأبه إلا إدخال الشبهات لتخترق هذا الحفظ الإلهي الذي خص به الله القرآن دون غيره من الكتب السماوية، وستبقى هذه الديمومة للحفظ لأنها فوق الشبهات البشرية الضعيفة، ومهما بلغت هذه الشبهات فلا يزيد بها القرآن إلا توثيقاً وحفظاً.

ومن تاريخ هذا القرآن عادة ما يبدأ المستشرقون بإلقاء شبهاتهم المزعومة، وخاصة المرحلة النبوية باعتبار أن الجمع للقرآن لم يتم بين دفتى مصحف واحد ويبدأ هذا التاريخ عند بعضهم من البداية الإسلامية "فديورانت" جعل إملاء القرآن في أوقات مختلفة من الثلاث والعشرين سنة الأخيرة من حياة النبي وقد أملأ فيها كل ما كان يوحى إليه من آيات [1] إن هذا القرآن حفظه الله سبحانه وتعالى في السماء الدنيا قبل نزوله إلى الأرض فقال تعالى: ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ المُطَهَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ العَالَمِينَ ﴾ [الواقعة، الآيات 77-85].

فهذه المرحلة من الحفظ والجمع سابقة على المرحلة التي يذكرها "ديورانت" وكان هذا الجمع في الصحف واللوح المحفوظ قال تعالى: ﴿ صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس، الآية 13-16].

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص48.

وهذا الجمع يكون في اللوح المحفوظ بعناية فائقة لا يطلع عليه إلا الملائكة المقربون، ولا يمسه في السماء إلا الملائكة ولا تطاله أيدي شيطان أوجان[1].

تلا هذا الحفظ المرحلة الثانية منه، وهي مرحلة نزوله على مدى ثلاث وعشرين سنة، ونزوله طوال هذه المدة مجزءاً تؤكد على حفظه بدقة بالغة، ولو نزل دفعة واحدة لاكتمل نزوله في أقل من هذه المدة بكثير وهذا ما ساعد في عملية حفظه من قبل الرسول (ﷺ) والصحابة، وكان هذا الحفظ في الصدور[2].

كما أن الحفظ الإلهي للقرآن لم يقتصر عن حدود السماء، وإنما رافقه الحفظ عند نزوله إلى الأرض وهو ما تؤكده هذه الآية من قوله تعالى: ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة، الآيات 16-19].

إذا كان القرآن قد أملاه النبي (ﷺ) من تلقاء نفسه فلماذا لم يملِه قبل الثلاث والعشرين سنة الأخيرة من حياته؟ كثيراً ما وجه النقد لهذا القرآن غير أن هذا النقد لم يأتِ بجديد أو أي فائدة تذكر لأولئك النقاد وخاصة الغربيين منهم، وباستعمال القياس بين ما جاء به أو أملاه البلغاء والفصحاء من العرب الذين يقرؤون ويكتبون وبين ما يدعى "ديورانت" أن محمداً (ﷺ) قد أملاه من تلقاء نفسه(ﷺ) بونٌ شاسع ولنستعين ببعض مما قاله "الباقلاني" عن كلام الشعراء إذ يقول: فمن الشعراء من يُجيد المدح ومنهم من يحسن الهجو دون المدح، ومنهم من يبسط في التقريظ دون التأبين، ومنهم من يبدع في التأبين ولا يحسن التقريظ".

لذلك تجد الاختلاف في الخطب والرسائل، وسائر أجناس الكلام[3]، وإذا ما أخضعنا ما جاء به محمد (ﷺ) لمثل هذه القواعد الشعرية والبلاغية، وغيرها من

---

(1) علي بن سليمان العبيد جمع القرآن حفظاً وكتابة، الناشر مجمع الملك فهد للطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ص9.

(2) صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، مصدر سابق، ص50.

(3) الباقلاني إعجاز القرآن، مصدر سابق، ص33.

قواعد اللغة لن تلتمس في طيات هذا القرآن أدنى شيء من الاختلاف قال تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اختلافاً كَثِيراً ﴾ [النساء، الآية81].

ولم يكن وراء هذه المطاعن عن جمع القرآن سوى ما قاله: المستشرق الإيطالي "فرانشيسكو جايريلي" إن هذه الأقاويل من بعض المستشرقين بأن محمداً (ﷺ) هو من أملى القرآن لا صحة لها لأن هذه الافتراءات محاولة فاشلة للنيل من هذا الدين[1].

مرحلة التدوين:-

كانت مرحلة التدوين أو الكتابة ملازمة لمرحلة النزول، وقد كان النبي(ﷺ) حريصاً على تدوينه وحفظه في مكان آمن فور نزوله عليه فكان يُحفظ في بيوت الصحابة أو بيته (ﷺ) وهنا ينتقل القرآن من الحفظ السماوي إلى حفظ الصدور ثم إلى الصحابة ليكتبوا ما يمليه عليهم الرسول (ﷺ) وتحفظ منه نسخ في بيوتهم، ولاحظنا أن "ديورانت" يؤكد كتابة الصحابة لما يمليه عليهم الرسول (ﷺ) إذ يقول كان الصحابة يكتبون ما يمليه عليهم محمد (ﷺ) على الرق والجلود أو سعف النخل أو العظام، وقد كان الصحابة يكتبون الآية فور نزولها على ما تيسر لهم من القماش، وورق الجريد، والعظام والرفوف الناعمة، والرقاع من الجلد والورق وعسب النخل، عن البراء قال، لما نزلت ﴿ لاَ يَسْتَوِي القَاعِدُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء، الآية 94] قال النبي (ﷺ) أدع لي زيداً وليجيء باللوح والدواة والكتف أو الكتف والدواة ثم قال (اكتب) ﴿ لاَ يَسْتَوِي القَاعِدُونَ ﴾ ومما يزيد التأكيد على الحفظ أن الكتاب كانوا يحفظون الآية قبل كتابتها فضلاً عن كونهم نخبة من ثقات الصحابة وأفاضلهم ومن هؤلاء "زيد بن ثابت"[2] أشهر كُتَّاب الوحي للرسول (ﷺ) كاتب النبي

---

(1) حسن حسني معدي، الرسول في عيون غربية منصفة، مصدر سابق، ص169.

(2) هو زيد بن ثابت بن الضحاك بن زيد ابن لوذان بن عمرو بن عبد بن عوف الانصاري الخزرجي كان يكتب الوحي للرسول (ﷺ) وكانت ترد على الرسول (ﷺ) كتب بالسريانية فامر زيد فتعلمها، وكتب بعد النبي (ﷺ) لأبي بكر، وعمر وكتب لهما مع معيقيب الدروسي أيضاً، وهو الذي كتب القرآن في عهد أبي بكر وعثمان، إختلف في تاريخ وفاته ينظر أسد الغابة في معرفة الصحابة، مصدر سابق).

وجامع في زمنه وزمن الصحابة، وكان دائماً يعارض النبي (ﷺ) بما كان يحفظ حتى عارضه قبل وفاته (ﷺ) مرتين بالإضافة إلى "عبدالله بن مسعود"[1] وسالم بن معقل [2] مولى ابن حذيفة، ومعاذ بن جبل[3]، وأبي بن كعب[4] من أشهر الكتاب أيضاً، وأبو يزيد[5] بن السكن، وأبو الدرداء[6] [7].

ويؤكد لنا "ديورانت" بمرور القرآن بهاتين المرحلتين من الحفظ والتدوين، في حين أن الترتيب والجمع يشوبهما الغموض بالنسبة إليه حيث يقول كان الصحابة يحفظون القرآن بعد كتابته، وكلما كُتبت آية حُفظت مع الآيات السابقة دون مراعاة أي ترتيب زمني أو منطقي[8].

إذا كان القرآن قد أُخضع لترتيب زمني أو منطقي وفقاً لما تعارف عليه البشر لاختلت موازينه البنيويه، ومعانيه والفاظه؛ لأنه كما سبق وذكرنا عن المقارنة بين

---

(1) هو عبدالله بن مسعود بن غافل بن حبيب أبو عبدالرحمن المكي، حليف بني زهرة هاجر مع الرسول (ﷺ) الهجرتين وشهدا بدراً وأُحد والخندق وبيعة الرضوان، وسائر المشاهد الأخرى، توفى سنة 32هـ بالمدينة "ينظر الإعلام للزركلي، مصدر سابق".

(2) هو سالم بن معقل مولى ابن حذيفة بن عتبة بن ربيعة صحابي من السابقين إلى الإسلام قارئ القرآن وكان يؤم المهاجرين الأولين بقباء وفيهم عمر بن الخطاب قبل أن يقدم رسول الله (ﷺ) قال خذوا القرآن عن أربعة وذكر من بينهم سالم بن معقل توفى في حروب الردة سنة 12هـ 634م (ينضر الموسوعة العربية العالمية، مصدر سابق).

(3) هو معاذ بن جبل بن أوس الانصاري الخزرجي أبو عبدالرحمن صحابي جليل، وأحد الستة الذين جمعوا القرآن أسلم وهو فتى شهد مع الرسول (ﷺ) المشاهد كلها له 157 حديثا توفى عقيماً بالأردن "ينظر الإعلام الزركلي، مصدر سابق ".

(4) هو أبي بن كعب بن قيس بن زيد بن معاوية من الخزرج صحابي كناه رسول الله (ﷺ) سيد القراء، وأحد كتاب الوحي للرسول (ﷺ) وأول من كتب القرآن بالمدينة، توفى بالمدينة واختلف في سنة وفاته "ينظر الموسوعة العربية العالمية، مصدر سابق ".

(5) هو أبو يزيد بن السكن الانصاري المدني، واحد الذين كتبوا وجمعوا القرآن روى عنه محمود بن عمرو توفى في معركة أحد "ينظر الموسوعة العربية العالمية، مصدر سابق ".

(6) هو أبو الدرداء عويمر بن قيس بن زيد الخزرجي صحابي أنصاري بالمدينة، كان من أحد الذين جمعوا القرآن حفظاً على عهد رسول الله (ﷺ) روى "179" حديثاً توفى في خلافة عثمان سنة 32هـ "ينظر الموسوعة العربية العالمية، مصدر سابق ".

(7) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي (ﷺ) رقم "5003".

(8) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص48.

القرآن وما جاء به الفصحاء والبلغاء كان البون شاسعاً بين القرآن وما جاء به هؤلاء البلغاء، وكما أنه ليس من المنطقي أن يكون القرآن لم يخضع لأي نوع من أنواع الترتيب، ولعل "ديورانت" لا يدرك اختلاف المنهجية التوقيفية الإلهية التي خص الله بها القرآن، ولو كان لفظه وترتيبه من عند محمد (ﷺ) ؛ لاستطاع أهل العلم وذوي الإختصاص أن يدركوا فيه اختلافاً أو ضعفاً فيه في بعض جوانبه، عن عثمان بن أبي العاص[1] قال: كنت جالساً عند رسول الله (ﷺ) إذا شخص ببصره ثم صوّبه ثم قال: (أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي القُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل، الآية 90][2].

وكثيراً ما ثبت أن النبي (ﷺ) قرأ سوراً عديد بترتيب آياتها في الصلاة أو في خطبة الجمعة، وما كان الصحابة ليخالفوا ترتيباً سمعوا النبي (ﷺ) يقرأ خلافه[3].

ولذا فإنه لا يمكن أن يكون ترتيب النبي (ﷺ) لآيات وسور القرآن بالاجتهاد دون توقيف من الله، ولا يمكن لأحد حتى الرسول (ﷺ) أن يمزج آيات السور بغيرها، ولا يضع مكان الآية غيرها، فيسبق آية عن آية أو يلحق آية عن آخرى[4].

ومن جهة أخرى يرى "ديورانت" أن هذه الآيات التي كتبت زمن النبي(ﷺ) أن بعض الصحابة يحفظونه عن ظهر قلب[5]. وإذا كان القرآن لم يجمع بين دفتي كتاب واحد زمن النبي (ﷺ) فإن هذا لا يعني أنه لم يجمع كما هو مجموع أو موافق جمعه وترتيبه للكتاب الذي بين أيدينا اليوم.

---

(1) هو عثمان بن أبي العاص بن بشير بن عبد دهمان يكني أبا عبدالله أسلم واستعمله رسول الله (ﷺ) على الطائف كان حريصاً على النفقة في الإسلام وتعلم القرآن (ينضر أسد الغابة في معرفة الصحابة، مصدر سابق).

(2) أخرجه أحمد، في مسنده، من حديث عثمان بن أبي العاص، رقم 1747.

(3) صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، مصدر سابق، ص50.

(4) الباقلاني، الانتصار للقرآن، ج1، تحقيق محمد عصام القضاة، ط الأولى، دار الفتح عمان، سنة 1422هـ، 2001م، ص293.

(5) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص48.

فعندما ذكرنا سابقاً مراحل نزول القرآن وتدوينه كانت مرحلة الكتابة وجمع الآيات مع بعضها تأتي بعد مرحلة الحفظ، ولولا خضوع القرآن للحفظ في أذهان الصحابة لما استطاعوا كتابته أصلاً عند نزوله، ناهيك عن تدوينهم الآيات بعد نزولها على النبي (ﷺ) مباشرة وكما أن النبي (ﷺ) كان أحرص من الصحابة أنفسهم على عدم ضياع الحرف منه وليس الآية، ولذلك كان (ﷺ) هو أول جامع للقرآن في قلبه الشريف وسيد الحفاظ في عصره، ومما سهل على الصحابة عملية الحفظ تميز العرب أنذاك بسرعة الحفظ وخاصة في الأمور التي كان يُعول العربي على حفظها وجمعها حتى كانت قلوبهم أناجيلهم، وعقولهم سجلات أنسابهم وأيامهم وحوافظهم دواوين أشعارهم ومفاخرهم[1].

وفي هذا الزمن الذي اشتهر فيه العرب بالحفظ والتنافس الشعري والديواني كان هناك بينهم من بحفظ القصيدة عند سماعه لها أول مرة، وإذا كان هذا حال الشعر فكيف يكون الأمر وكتاب الله أصبح في المحل الأول من عنايتهم؟

لقد كان الصحابة يتنافسون في استظهار وحفظ القرآن وفي دراسته وفهمه فعن عبادة بن الصامت[2] رضي الله عنه "كان يسمع لمسجد رسول الله(ﷺ) ضجة بتلاوة القرآن حتى أمرهم رسول الله أن يحفظوا أصواتهم لئلا يتغالطوا لذلك كان الحفاظ في زمن النبي (ﷺ) عدداً لا بأس به منهم الخلفاء الأربعة و"أبو هريرة"[3]" و"ابن عمر" "وابن عباس" "وعمرو بن العاص"[4] "وابنه عبدالله" و"معاوية"[5] وابن

---

(1) الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، مصدر سابق، ص240.

(2) هو عبادة بن الصامت صحابي أنصاري خزرجي من الستة الدين أسلموا كان حريصاً على تلاوة القرآن وحفظه في عهد رسول الله (ﷺ) وكان من كتاب الوحي توفى سنة 38هـ – 654م (ينضر الموسوعة العربية العالمية، مصدر سابق).

(3) هو أبو هريرة عبدالرحمن بن صخر الدوسي صحابي جليل أسلم على يد عمر الدوسي لزم الرسول(ﷺ) وكان حريصاً على التقاط كل ما يتحدث به النبي (ﷺ) روى 5347 حديثا عن رسول الله (ﷺ) توفى 59هـ – 679م ينضر الموسوعة العربية العالمية، مصدر سابق.

(4) هو عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي أسلم في هدنة الحديبية ولاه النبي عليه الصلاة والسلام على عمان، وولاه عمر على فلسطين، ثم عزله توفى سنة 43هـ "ينظر الإعلام الزركلي، مصدر سابق".

الزبير "وعبدالله بن السائب" و"عائشة" و"حفصة" "وأم سلمة" وهؤلاء كلهم من المهاجرين[1].

اقتصر "ديورانت" في معنى الجمع القرآني على الحفظ بين دفتي كتاب، ولأن حفظ الكتاب لا يتأتى إلا بحفظ القلوب والصدور فهو يؤكد من جديد بأن بعض المسلمين كانوا يحفظون هذه الآيات عن ظهر قلب[2].

وهذا الحفظ الذي يؤكده "ديورانت" هو ما اعتمد عليه المسلمون في جمعه وهو ما يؤكده المحقق ابن الجزري[3] في قوله: "إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور لا على حفظ المصاحف والكتب، وهذه أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة"[4].

أما جمع هذه الآيات في كتاب واحد زمن النبي (ﷺ) فقد أشار "ديورانت" إلى عدم حصوله، وإن كان الجمع لم يحصل فإن هذا لا يعني بأن القرآن لم يُجمع كله بين دفتي كتاب واحد؛ لأن الجمع والترتيب الذي اتبعه الصحابة في جمع القرآن نقل عن صدور الرجال الذين يحفظونه عن ظهر قلب، ويقرؤونه كما أخذوه عن النبي(ﷺ).

---

(5) هو معاوية بن أبي سفيان بن صخر ابن حرب بن أمية بن عبد شمس القرشي الأموي مؤسس الدولة الأموية، أسلم يوم فتح مكة وتعلم الكتابة والحساب فجعله رسول الله (ﷺ) في كتابه توفي سنة 60هـ، (ينظر الإعلام الزركلي، مصدر سابق).

(1) الزرقاني، مناهل اعرفان في علوم القرآن، مصدر سابق، ص242.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص48.

(3) هو محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف الجزري، الدمشقي العمري وكنيته أبو الخير من مؤلفاته "الأيك والتعضيم في مقام إبراهيم " "أسني المطالب في مناقب على بن أبي طالب" "عرف التعريف بالمولد الشريف" "ينظر الموسوعة الغربية العالمية، مصدر سابق".

(4) الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، مصدر سابق، ص240-242.

إذن فالنبي (ﷺ) والصحابة الذين كانوا يدونون القرآن هم من كانوا قد جمعوا القرآن بين دفتي كتاب واحد في صدورهم قبل أن يحصل الجمع المدون في المصاحف، وهذا ما أكده ابن الجزري في الحديث السابق.

الجمع في عهد الصحابة:-

من شأن الظروف التي مر بها الصحابة بعد وفاة الرسول(ﷺ) أن تجعل الصحابة، وخاصة الخلفاء مثل أبي بكر، وعثمان، أن يفكروا في جمع القرآن من الصدور إلى المصاحف، خوفاً منهم على ضياعه من بين أيديهم بموت قرائه وحفّاظه، وخاصة ممن كانوا قد أخذوه عن النبي (ﷺ) وهؤلاء هم الذين أوكلت لهم مهمة جمعه، فعن قتادة [1] قال: سألت أنس بن مالك[2] رضي الله عنه من جمع القرآن على عهد النبي(ﷺ) قال: (أربعة كلهم من الأنصار أُبيٌّ بن كعب، ومعاد بن جبل، وزيد بن ثابت وأبو زيد)[3].

وعندما مات عدد من هؤلاء القراء، ولم يكن هناك من يخلفهم أمر الخليفة أبوبكر زيد بن ثابت من أكبر كتاب الوحي للرسول (ﷺ) أن يبحث عن آيات القرآن فقام زيد بجمع هذه الأجزاء من سعف النخل، وألواح الحجارة البيضاء، والصدور كما تقول الرواية المأثورة، فلما تم له ذلك قام بنسخ عدة نسخ منه[4].

إن الصحابة رضوان الله عليهم لم يقبلوا على جمع القرآن في كتاب واحد بعد وفاة النبي(ﷺ)؛ لتمسكهم بما لم يفعله رسول الله (ﷺ) بل إن هذه الفكرة لم تراود

---

(1) هو قتادة بن النعمان بن زيد بن عامر الأنصاري الطفري الأوسي شهد الماشهد كلها مع رسول الله (ﷺ) له سبعة أحاديث، توفى بالمدينة وهو ابن 65سنة "ينظر الإعلام الزركلي، مصدر سابق ".

(2) هو أنس بن مالك بن النظير بن ضمضم البخاري الخزرجي الانصاري، صاحب رسول الله(ﷺ) وخادمه روى عنه رجال الحديث "2286" حديثاً خدم النبي (ﷺ) إلى أن قبض ثم رحل إلى دمشق، فمات فيها وهو مدة من مات بالبصرة من الصحابة "ينظر الإعلام الزركلي، مصدر سابق ".

(3) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب القراءة من أصحاب النبي رقم "5003".

(4) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص48.

عقولهم إلا بعد خلافة أبى بكر وما حصل خلالها من فتن، فاضطر الصحابة إلى جمع القرآن بين دفتي مصحف واحد، ولعل هذا ما جعل "ديورانت" يقول: لسنا واثقين من أن محمداً (ﷺ) كان يريد جمع هذه الأجزاء المتفرقة "أي القرآن" كلها في كتاب واحد[1].

وعلى الرغم من أننا لسنا واثقين من أنّ رسول الله (ﷺ) كان يريد جمع القرآن كما يدعي "ديورانت" إلا إننا جازمون بأنه لم ينهى عن ذلك، ولو نهى عن ذلك الرسول (ﷺ) ما كان الصحابة ليخالفوه وهم أعلم بذلك من غيرهم، والأمر الثاني أن جمع الصحابة له لا يترك مجالاً للشك بنهي النبي (ﷺ) عن ذلك الجمع، وعندما قام الصحابة بجمع القرآن لم يقولوا بأن النبي (ﷺ) قد نهانا عن هذا الأمر، وإنما قالوا كيف نفعل امراً لم يفعله رسول الله (ﷺ)[2].

وعدم جمع القرآن بين دفتي مصحف واحد زمن النبي (ﷺ) يرجع إلى عدة أمور منها وجود النبي (ﷺ) بين ظهراني الصحابة، وفي هذه الحالة ما كان ليضيع شيء منه ولأن جبريل كان دائماً يعارض النبي (ﷺ) بالقرآن فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال كان النبي (ﷺ) أجود الناس بالخير، وأجود ما يكون في شهر رمضان؛ لأن جبريل كان يلقاه في كل ليلة في شهر رمضان، حتى ينسلخ يعرض عليه رسول الله (ﷺ) القرآن[3].

والأمر الثاني مقتل عدد كبير من قرَّاء القرآن في موقعة اليمامة، وبئر معونة، مما جعل عمر يشير على الخليفة أبي بكر بجمع القرآن؛ خوفاً من ضياغ الكثير منه بسبب مقتل وانقراض قرائه وحفاظه، ومع أن الحاجة تستدعي جمعه فإن أبا بكر لم يقبل من فوره على هذا الجمع، فقال لعمر كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله (ﷺ)

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص49.

(2) الزرقاني، مناهل العرقان في علوم القرآن، مصدر سابق، ص175.

(3) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كان جبريل يعرض القرآن على النبي (ﷺ) رقم (4997).

فقال عمر هذا والله خير، ويقول: أبو بكر "فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ورأيت في ذلك الذي رأى عمر"[1].

اهتم "أبو بكر" بتحقيق هذه الرغبة ورأى بنور الله أن يندب لتحقيقها رجلاً من خيرة رجالات الصحابة هو زيد بن ثابت رضي الله عنه ولأن هذا الرجل قد اجتمعت فيه المواهب ذات الأثر في جمع القرآن ما لم يجتمع في غيره من الرجال إذ كان من حفَّاظ القرآن ومن كتَّاب الوحي لرسول الله (ﷺ) وشهده العرضة الأخيرة للقرآن في ختام حياته[2].

ولم يختلف موقف زيد من جمع القرآن عن موقف أبي بكر حيث فزع هو الآخر، وقال لأبي بكر (كيف تفعل ما لم يفعله رسول الله) فقال له عمر (هو والله خير) وظل أبو بكر يراجع زيداً حتى شرح الله صدره للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر.

ويؤكد أبو بكر لزيد على أن الاختيار وقع عليه للقيام بهذه المهمة الصعبة لأنه الجامع الأول للقرآن في صدره بعد رسول الله (ﷺ) ولأن الصفات التي يتطلبها جامع القرآن وكاتبه قد توفرت فيه لذلك قال له أبو بكر "إنك رجل شاب عاقل لانتهمك وقد كنت تكتب الوحي للرسول(ﷺ) فتتبع القرآن فاجمعه"[3] ومع حفظ زيد للقرآن وأخذه عن الرسول (ﷺ) إلا أنه كان يدرك صعوبة المهمة التي أوكلت إليه، وأن الأمر يحتاج منه إلى تحقق وجهد لنقل ما في صدور الرجال إلى الصحف فقال: عن عبء هذه المسئولية "والله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىَّ مما أمرني به من جمع القرآن"[4].

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، رقم (4986).

(2) الزرقاني، مناهل العرقان في علوم القرآن، مصدر سابق، ص174.

(3) المصدر نفسه، ص175.

(4) المصدر نفسه، ص175.

وعلى زيد أن ينتخب من يجمع معه القرآن من الحفَّاظ الذين أخذوه عن النبي (ﷺ) وهؤلاء ذكرهم البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك قال "مات النبي (ﷺ) ولم يجمع القرآن غير أربعة أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، "قال ونحن ورثناه"[1].

وقد اعتمد زيد في جمع القرآن على مصدرين مهمين هما:

1- ما كُتب أمام الرسول (ﷺ) وبإملاء منه، وكان زيد نفسه من كتاب الوحي.

2- ما كان محفوظاً في بيوت الصحابة مع تأكده من أن المكتوب يخضع لأمرين.

أ. أن يكون مما كتب زمن النبي (ﷺ) وذلك بشهادة شاهدين عدلين.

ب.وأن يكون مما ثبت في العرضة الأخيرة ولم تنسخ تلاوته[2].

وحتى لا يبقى شيء من الشكوك على عدم جمع أي حرف أو آية؛ طلب الخليفة أبو بكر من عمر وزيد أن يقعدا على باب المسجد فمن ياتي لهما بشاهدين على شيء من كتاب الله كتباه[3].

وبين ما حفظ في صدور الصحابة وما حفظ مكتوباً قام زيد بجمع مادة القرآن هو ومن معه من الصحابة بتوفيق بين المكتوب، وبين المحفوظ في الصدور، وموثقاً بشهادة رجال عدول من الصحابة.

لقد خضع القرآن كله لهذا المنهج الرصين في الجمع ومبالغةً من الصحابة في الحفظ لم يتبقَّ إلا آية لم يجدوها مكوتبة إلا مع أبي خزيمة الأنصاري، مع أن زيداً كان يحفظها وكان كثيرٌ من الصحابة يحفظونها وللمبالغة وزيادة التوثيق أراد زيد

---

(1) أخرجه البخاري كتاب فضائل القرآن، باب القراءة من أصحاب النبي، رقم (4004).

(2) طاهر عبدالقيوم عبدالعفور السندي، جمع القرآن الكريم في عهد الراشدين، الناشرمجمع الملك فهد لطباعة المصحف لشريف بالمدينة المنورة، ص20.

(3) الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، مصدر سابق، ص252.

أن يحصل عليها مكتوبة مع غيره من الصحابة فلم يجدها فكان حفظ عدد كبير من الصحابة لهذه الآية كافياً لموثوقيتها وإن لم توجد مكتوبة مع غير أبي خزيمة[1].

لقد تم الجمع في عهد أبي بكر خلال سنة أو أكثر ولم يحض أحد بجمع المصحف بالمزايا التي ذكرناها لأحد قبل أبو بكر ومع أن الصحابة كان لهم مصاحف ولكنها لم تظفر بما ظفر به المصحف المجموع على عهد أبي بكر من دقة البحث والإستقصاء والاقتصار على ما لم تنسخ تلاوته، ومن بلوغه حد التواتر ومن إجماع الأمة عليه.

أما النسخ من الصحف التي جمع فيها القرآن بقيت مع أبي بكر حتى توفاه الله ثم إلى عمر، وظلت عنده حتى وفاته أثناء خلافته لينسخ منها نسخ جديدة لاتقاء الفتنة التي حدثت في ذلك الوقت[2].

الجمع في عهد عثمان:-

إن اتساع الرقعة الإسلامية شرقاً وغرباً وانتشار المسلمين في مناكبها، والبعد الزمني بين الناس، وموت الرسول (ﷺ) وتزايد موت الحفاظ والقرَّاء، جعل أهل كل أقليم من أقاليم الإسلام يأخذون بقراءة من اشتهر بينهم، فأهل الشام يقرؤون بقراءة أُبيٌّ بن كعب، وأهل الكوفة يقرؤون بقراءة عبدالله بن مسعود، وغيرهم يقرؤون بقراءة أبي موسى الأشعري، غير أن الإشكالية ليست اختلاف القراءة بين من يأخذون عنهم، ولعدم دراية من يأخذون عنهم بهذا الاختلاف في القراءة من حرف إلى آخر، حدث الاختلاف بين من يأخذون بقراءة كل صحابي مع عدم الاختلاف بين من يأخذون عنهم من الصحابة، وفتح باب الشقاق والنزاع في قراءة القرآن أشبه بالاختلاف الذي حدث بين الصحابة زمن النبي (ﷺ) لوقوعهم في نفس الخطأ، غير

(1) الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، مصدر سابق، ص252.

(2) المصدر نفسه، ص252-254.

أن هذا الاختلاف أشد حدة من سابقيه لعدم وجود النبي (ﷺ) بينهم حتى يرجعون إلى حكمه، فاستفحل الداء بينهم وأصبح الرجل يكفر قراءة الرجل، وكادت تتحول إلى فتن وفساد كبير في الأرض.

فكان يتحتم على عثمان اتخاذ الموقف الديني الحاسم اتجاه هذه الفتنة الصماء والتي كان سببها الاختلاف في قراءة القرآن، وليس الاختلاف في تفسيره كما ادعى "ديورانت" حيث يقول: إن خلوّ ألفاظ القرآن من الحركات أدى إلى الاختلاف بين القَّراء في تفسيره، وكذلك اختلفت نصوصه في مدن العالم الإسلامي[1].

فأن الاختلاف لم يتعدَ حدود القراءات حتى يصل إلى النصوص، والتفسير كما ادعى فالصحابة الذين أخذ عنهم القَّراء الذين اختلفوا كانوا يقرؤون القرآن حسب ما سمعوه من النبي (ﷺ)؛ لذلك كان من الطبيعي أن ينشأ هذا الخلاف بين القراء؛ ففزع عثمان والصحابة الذين أخذوا عنهم هؤلاء القراء الذين اختلفوا حتى بلغ انكار بعضهم لقراءة بعضهم الآخر وهكذا إلى أن وصل الأمر إلى حد التكفير[2].

وكان حذيفة بن اليمان[3] يغازى أهل الشام في فتح أرمينيا وأذربيجان مع أهل العراق فشاهد الاختلاف الحاصل بين القرَّاء للقرآن، وأدرك خطر هذا الاختلاف على الأمة فقال: لعثمان أدرك هذه الآمة قبل أن يختلفوا في كتابهم اختلاف اليهود والنصاري يقول:"ديورانت" فرأى الخليفة عثمان أن يقضي على هذا الاختلاف فأمر زيداً وثلاثة من علماء قريش أن يُراجعوا مخطوطة زيد (651م) تم كتبت نسخ منها وأرسلت إلى دمشق والكوفة، والبصرة.

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص49.

(2) عبدالعال سالم مكرم، القراءات القرآنية وأثرها في الدراسات النحوية، مصدر سابق، ص42.

(3) هو حذيفة بن حسن بن جابر بعثه النبي (ﷺ) إلى الأرد ن من الولاة الشجعان كان صاحب سر النبي (ﷺ) في المنافقين كتب عنه (225) حديثاً توفى سنه 36هـ (ينضر الإصابة في معرفة الصحابة، مصدر سابق).

لقد كان عثمان حريصاً على جمع القرآن من أصله الثابت الذي اجتمعت وأجمعت عليه الأمة فأرسل إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها، ومن جهة أخرى أمر زيد بن ثابت كاتب الوحي للنبي (ﷺ)، والذي قام بجمعه في الصحف زمن الخليفة أبي بكر، وقام بمساعدة زيد في هذا الجمع ثلاثة من قريش هم: عبدالله بن الزبير[1]، وسعيد بن العاص[2]، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام[3][4].

وليجمع عثمان هذه الأمة على كلمة واحدة، ويقضي على الخلاف القرائي للقرآن أرجعه إلى لسانه الذي نزل به فعن أنس بن مالك قال: "أمر عثمان زيد بن ثابت، وسعد بن العاص، وعبدالله بن الزبير، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام، أن ينسخوها في المصاحف، وقال لهم إذا اختلفتم انتم وزيد بن ثابت في عربية من عربية القرآن فأكتبوه بلسان قريش، فإن القرآن أنزل بلسانهم"[5].

دستور عثمان في كتابة المصاحف:-

(1) هو عبدالله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن عبد العزي بن قصي بن كلاب بن مرة القرشي الأسدي صحابي جليل وأحد المبشرين بالجنة توفى سنة 73هـ -692م (ينظر الموسوعة العربية العالمية، مصدر سابق).

(2) هو سعيد بن العاص بن آمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي كان من أشراف قريش وأجوادهم وفصحائهم وهو أحد الذين كتبوا المصحف لعثمان بن عفاف توفى سنة 59هـ (ينضر أسد الغابة في معرفة الصحابة، مصدر سابق).

(3) هو عبدالرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبدالله بن عمر المخزومي القرشي يكني أبا محمد أسلم وكان من فضلا المسلمين وخيارهم علماً وديناً وهو ممن امره عثمان أن يكتب المصاحف مع زيد بن ثابت توفى في واقعة الجمل (ينضر أسد الغابة في معرفة الصحابة، مصدر سابق).

(4) صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، مصدر سابق، ص53.

(5) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن بلسان قريش وقول الله تعالى، رقم (4984).

أولاً: اشتمال هذه المصاحف على الأحرف السبع، وجعلها خالية من النقط والشكل، لأن بعض الكلمات يقرأ رسمها بأكثر من وجه، ولعله من أسباب اختلاف القراءة، وعند تجريدها من النقط والشكل نحو "فتبينوا" من قوله تعالى: ﴿ إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ فإنها تصلح لأن تقرأ بسبعة وثلاثين وجهاً.

كما أن بعض الكلمات التي لا تدل على أكثر من قراءة عند تجريدها من النقط والشكل مع أنها وردت بقراءة أخرى، فكانوا يرسمونها في بعض المصاحف برسم يدل على قراءة، وفي مصاحف أخرى يدل على القراءة الثانية كقراءة وصَّى بالتضعيف وأوصى بالهمز، وهما قراءتان في قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾.

وصفوة القول أن اللفظ الذي لا تختلف فيه وجوه القراءات كانوا يرسمونه بصورة واحدة لا محالة، أما الذي تختلف فيه وجوه القراءات فإن كان لا يمكن رسمه في الخط محتملاً لتلك الوجوه كلها فإنهم يكتبونه برسم يوافق بعض الوجوه الأخرى في مصحف ثم آخر[1].

ثانياً أن اللجنة الرباعية باتخاذها صحف حفصة أساساً لنسخ المصاحف إنما استند إلى أصل أبي بكر.

ثالثاً: أن كتابة القرآن بلغة قريش لا ينافي كتابته بطريقة الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن، لأن تلك الكتابة كانت غير معجمة ولا مشكولة.

بعد الانتهاء من نسخ الصحف في المصاحف أرجعها عثمان إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوه، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة، أو مصحف أن يحرق؛ قطعاً لدابر الفتنة، واستجاب الصحابة لذلك فحرقوا

(1) الزرقاني، مناهل العرقان في علوم القرآن، مصدر سابق، ص258.

مصاحفهم، واجتمعوا جميعاً على المصاحف العثمانية بعد أن تأكدوا من أن عثمان قد نسخ المصاحف من صحف حفصه التي كانت بعد أبي بكر منذُ الجمع الأول.

يقول "ديورانت" وهكذا ظل القرآن من هذا الوقت محفوظاً نقياً محاطاً بأعظم العناية والتبجيل[1].

ولقد حُفظ القرآن في مراحل متعددة إلهية تمثلت في حفظه في السماء في اللوح المحفوظ، ثم مراحل الحفظ خلال عهود مختلفة بدأت بعهد الرسول(ﷺ) وانتهت بعهد الخليفة عثمان والذي على يده تمت كتابة المصحف على المنهج والنمط الذي عليه.

ولم يحصل للقرآن تفاوت في الاهتمام من مرحلة إلى أخرى كما يخصه "ديورانت" سابقاً بالحفظ في عهد الخليفة عثمان باعتبار أن المراحل التي قبل الجمع الأخير حصل له "أي القرآن" شيء من التحريف أو النقص على حد زعمه.

ومن خلال طرحنا لمراحل الجمع الثلاث لاحظنا أن الصحابة، وعلى رأسهم الجامع الأول أبو بكر كانوا يضعون حفظ القرآن من التحريف والنقص والزيادة نصب أعينهم، وكل مرحلة جُمع فيها القرآن خضع فيها لمنهج زيد بن ثابت الجامع والحافظ والكاتب للرسول(ﷺ) واستند في الجمع الأخير على زيد كذلك، واستند زيد بدوره على صحف أبي بكر والتي جمعها هو بيده، ولم يعد هناك أي ثغرة تؤكد على ما يدعيه "ديورانت" وكل ما قاله ليس إلا إدعاءات لا تستند إلى أي أدلة فتاريخ القرآن يعرفه من جمعه ومن كتبه وما نقلته لنا الكتب الموثقة، وليس ما نقلته لنا كتب الغرب المعادية لهذا الدين وأتباعه.

ومما سبق نستخلص بعض الاشكاليات التي عالجناها في هذا الفصل من خلال بعض المسائل التي يحاول "ديورانت" أن يدخلها ضمن العقيدة الإسلامية

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص49.

وأولها محاولة إرجاع مصدر القرآن إلى المصدر البشري كما فعل العديد من بني جلدته من المستشرقين، وقد زعم بأن في القرآن شيئاً من التكرار وعدم الانسجام مما جعل كل آية فيه تؤدي إلى غرض واضح هنا نلاحظ أن "ديورانت" قد وقع في التناقض لأن التكرار يعني إعادة الشيء بذات المعني عدة مرات، وكما سعي "ديورانت" إلى تشويه موثوقية النص القرآني خلال مراحل الجمع الثلاثة المتعارف عليها بالإضافة محاولة نسب مصدر بعض السور إلى جبريل وقد حاول "ديورانت" الطعن فيما عليه القرآن من ترتيب سوره وآياته حيث يزعم أن السور الطوال أقدم عهداً من السور القصار مما جعله يطلق عليه كتاب تاريخ، ولاحظنا بأن ترتيب السور لم ينطبق مع هذا الترتيب وهناك سور قد أنزلت مؤخراً على النبي (ﷺ) وكان ترتيبها في بداية السور".

وقد تناولنا في المبحث الثاني مراحل جمع القرآن وما حصل له من جمع خلال المراحل الثلاثة التي جمع فيها القرآن، وقد رأى "ديورانت" أن هذا الجمع لم يأمر به النبي (ﷺ) لم يثبت عنه في الأثر بالنهي عن جمعه في كتاب واحد الأمر الذي يجعل من جمعه ليس مخالفتاً لأقواله أو عدم رضاه بذلك، ويرجح "ديورانت" أسباب جمع القرآن إلى الاختلاف في قراءاته وتفسيره لخلو ألفاظه من الحركات، وقلنا بأن الاختلاف لم يجتز حدود القراءة، ولم يثبت الاختلاف في نصوصه وتفسيره كما يزعم بالإضافة إلى هذا كله نراه يحدد حفظ القرآن من التحريف منذ جمع عثمان له بزعمه أن من جمعوه سابقاً (حاشا لله)، قد حُرف وتغيرت بعض كلماته وقد رأينا أن الجمع في المراحل الثلاثة استند إلى الحفظ في الصدور أولاً ثم قام بجمعه أكبر حفاظ الوحي وكتابه زيد بن ثابت وهو من جمعه في عهد أبي بكر، وراجعه في عهد عثمان.

واكتفينا في المبحث الثاني بدفع بعض الشبهات المزعومة عن مصدر القرآن حيث أن فكرة الوحي المقدس بالنسبة ."لديورانت" هي مجرد اعتقاد عند المسلمين بأن

هذا الكتاب قد أوحى به من عند الله، وقد اختلف عن التوراة والإنجيل في أنه جاء به العديد من البشر من كتب ولاحظنا أن الفرق شاسع، ولم يكتفِ بهذا القدر بل إضافة إلى هذا المصدر سبباً آخر وهو داء الصرع، والذي لم يثبت أن أصحابه المصابين به قد جاؤوا بأي شيء يدخل في إطار القراءة بالإضافة إلى أنه سرعان ما أكد على نقيض هذا المصدر بتأكيده على قدرة عقل وجسم وروح النبي (ﷺ) على الإدراك كلما تقدمت به السن.

ولم يسلم أسلوب القرآن هو الآخر من هذه الشبهات وتكمن الإشكالية عند "ديورانت" في عدم معرفته بالشعر وأوزانه من نثر وغيرها ثم يجعل من أسلوب القرآن عبارة عن وسط ما بين هذا الشعر ونثره بالإضافة إلى احتواء بعض سوره على النغمات الموسيقية، ويؤكد على عدم إدراك كنه هذا القرآن إلا من كان ملماً باللغة العربية لأنه يحمل العديد من التشبيهات والاستعارات القوية، وينتهي به المطاف إلى أن هذا القرآن هو الكتاب الأول في الآدب والنثر العربي ولا زلنا نقول: إن هذا الكتاب هو كتاب عقائد وإيمان وليس شعر أو نثر وقد جاء به محمد(ﷺ) من عند الله لهداية الناس كافة، وقد تم إخضاعه وموازنته بالكتب البشرية من كتب الشعر والنثر وغيرها، وقد ظهر الاختلاف جلياً بين تلك الكتب والقرآن ولم يلتمس حتى اليوم أي إضافة أو تحريف لهذا الكتاب المقدس من أيدي البشر كما حدث في التوراة والإنجيل.

الفصل الرابع
الدولة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين

المبحث الأول: الصراع السياسي والاجتماعي.

المبحث الثاني: خلافة عمر رضى الله عنه.

المبحث الثالث: بداية الصراع وحدوث الفتنة عند "ول ديورانت".

تمهيد:

إن الدولة الإسلامية التي أقامها الخلفاء بعد وفاة الرسول (ﷺ) هي الدولة التى لم تخرج عن نطاق السيرة النبوية في الأحكام والمعاملات، والعبادات لا سيما أنه من تولى أمرها هم أصحاب رسول الله (ﷺ) وخير خلقه من بعده إذن فهم امتدادٌ لسيرة الرسول (ﷺ) التي تشبعت بها قلوب أصحابه الأخيار، وهي خير دولة أقيمت بعد دولة الرسول(ﷺ).

تُعد هذه الدراسة دراسة مفصلية للحضارة الشامخة التي بناها الصحابة الكرام على ضوء هداية الوحي الرباني المتمثل في القرآن والسنة والتي سنقارن فيها بين آراء "ديورانت" المعترفة بما قام به هؤلاء الصحابة، ولكن دون وجود مرشد أو مبادئ أو دين وراء هذا الإنجاز في حين أن هذه الدولة ارتكزت على الدين وخاصة عقيدة التوحيد فمنذ خلافة أبي بكر أعلنت الحرب ضد المرتدين عن هذا التوحيد، وواصل السيل جريانه ليقتحم بلدان جديدة لم يصل إليها هذا النور.

والقارئ لتاريخ الخلفاء يلاحظ أن مسار دولتهم التي بنوها أخذ في الانحراف إلى طريق آخر منذ نهاية خلافة عمر على الرغم من أنهم اتبعوا وتمسكوا بسنة الرسول (ﷺ) إلا أن هناك من سعى إلى زرع نواة الفتنة بقتل عمر لتشغل بمقتله النار التي قتل بها عثمان وعلي من بعده الأمر الذي جعل المسلمين يقاتلون بعضهم، مثل ما حدث في موقعة الجمل، وظهور الخوارج الذين قتلوا علياً لتنتهي معه هذه الخلافة.

ومن جهة أخرى فإن هذه الصراعات والخلافات قد تمخضت عن تقديم فائدة جمة للبشرية تتمثل في النموذج المثالي للفكر السياسي، وصورة شكل الدولة التي تحقق السعادة الحقيقية لرعاياها.

لقد قاد الرسول (ﷺ) المسلمين لمدة ثلاثة وعشرين سنة أي منذ مبعثه (ﷺ) إلى وفاته وكل هذه المدة وهو صاحب الكلمة العليا للمسلمين والرسول المتبع وإليه تُرجع الخلافات وعنده يُقضىَ بين النزاعات، ومنه تنبثق سلطة المسلمين وكانت هذه

المدة من حكم الرسول (ﷺ) والتي بلّغ فيها رسالته حيث استطاع أن يضع المسلمين في قالب الشورى في الأمر قال: تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى، الآية 34] لذلك كان الرسول (ﷺ) يشاور أصحابه في المهمات والحروب وكل أمر لم ينزل فيه وحي، وهو من اتبع مشورة[1] "الحُباب بن المنذر" في معركة بدر، ورأي "سلمان الفارسي"[2] في معركة الخندق ومع حصول كل هذا التآلف بين المسلمين في عهد الرسول (ﷺ) لم يستطع أحد منهم أن يتصور ما سيحدث بعد وفاته (ﷺ) من صراعات، وفراغ ديني وسياسي، وربما يرجع السبب في حصول هذه الخلافات إلى عدم تعيين الرسول (ﷺ) من يتولى أمرهم، مع أنه (ﷺ) ترك لهم الآليات الممكنة لاختيار الرجل المناسب بعيداً عن حدوث هذه الخلافات وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾[الشورى، الآية34].

(1) هو الحباب بن المنذر بن الجموح بن زيد بن كعب بن سلمة الأنصاري الخزرجي، شهد بدراً، وكان يقال له ذو الرأي شهد المشاهد كلها مع رسول الله (ﷺ) توفى في خلافة عمر (ينظر أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، مصدر سابق).

(2) هو سلمان الفارسي، أبو عبدالله، ويعرف بسليمان الخير، كان من خيار الصحابة وزهادهم وفضلائهم وذوي القربة من الرسول (ﷺ) قال: علي سلمان منا أهل البيت وهو من أشار على رسول الله (ﷺ) بحفر الخندق يوم الأحزاب توفى سنة خمسة وثلاثين في آخر خلافة عثمان، ينظر أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، مصدر سابق.

المبحث الأول
الصراع السياسي والاجتماعي

خلافة أبي بكر:

لقد مات النبي (ﷺ) ولم يكلف أحداً بخلافته مما جعل الصحابة يحتارون في بداية الأمر من يكون خليفة للرسول (ﷺ)، ولأهمية هذا الأمر عندهم فقد حصل بينهم الخلاف، وجثمان النبي(ﷺ) لم يدفن بعد، وربما السبب في ذلك محاولة سد الفراغ الذي تركه النبي(ﷺ).

ومن جانب آخر بعض الأحداث تدل على أن أمر إمامة المسلمين يحتاج إلى بعض التدقيق والتمحيص، من خلال السيرة النبوية لاختيار أول خليفة للرسول (ﷺ) في تاريخ الدولة الإسلامية، وقد لفت نظر "ديورانت" ما قام به محمد (ﷺ) قبل وفاته من اختيار (أبى بكر) ليؤم المسلمين في مسجد المدينة مما جعل المسلمين يقتنعون بخلافته بعد شئ من الاضطراب والتنافس، وأن اختيار (أبي بكر) للصلاة يخوله بأن يتولى أمر المسلمين والخلافة من بعده[1].

لقد كان اختيار "أبي بكر" للصلاة بالمسلمين من أهم وأقوى الأدلة التي استدل بها العلماء على تولي "أبي بكر" للخلافة، ولكن كان على "ديورانت" ذكر الأسباب الأخرى، والتي تكاد تكون مثل السبب السابق من حيث الأهمية، ومنها إيمانه بالرسول (ﷺ) دون تردد أو كبوة فعنه (ﷺ): قال "أن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت، وقال أبو بكر صدقت"[2] وهو الذي اشتد خوفه على الرسول (ﷺ) عندما اختبأ من قريش في الغار فأنزل الله فيه قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة، الآية 39].

مما جعل الرسول (ﷺ) يسميه بثاني اثنين كما ذكرنا في الآية السابقة، وشهد له النبي (ﷺ) بالصحبة والأمانه فعنه (ﷺ): "إن امن الناس علي في ماله وصحبته

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص70.

(2) أخرجه البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي (ﷺ) رقم (3661.)

أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً لأتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام، ولاتبقين في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر"[1].

كما أن الصحابة كانوا حريصين على التمسك بما جاء به الرسول (ﷺ) وقد رأوا أن "أبا بكر" هو صاحبه وقرينه وأقرب الناس إليه (ﷺ) وأكثرهم معرفة به، لذلك رأوا فيه المثال الأقرب إليه في أفعاله وأقواله وربما هذا من أحد الأسباب فيما يبدو لي.

ومن جهة أخرى يرى "ديورانت" أن لفظ الخليفة قد أطلق على "أبي بكر" ليكون له وصفاً وليس لقباً[2]، وبالنظر إلى هذا اللفظ وتاريخه لقد أطلق على "أبي بكر" بعد وفاة الرسول(ﷺ) ولكن بدون شروط مسبقة عن شكل نظام الحكم أو مواصفات الحاكم، وإنما كان الأمر في البداية فرض فكرة الخليفة أو الخلافة كفكرة مبدئية لسد هذا الفراغ الديني والسياسي[3].

يبدو أن اختيار أبي بكر خليفة للمسلمين رغم الحاجة إليه ورغم استحقاقه لهذا المنصب بمبايعة الصحابة له، جاء رأي "عليّ" مخالفاً لرأي سابقيه مما جعله يمتنع عن مبايعة أبي بكر لمدة ستة أشهر، وقد غضب لذلك أيضاً العباس عم النبي و"علي"، ونشأ عن هذا الخلاف الأول أكثر من عشرة حروب كما نشأت عنه أسرة عباسية حاكمة، وانقسام اضطرب به العالم الإسلامي[4].

إن امتناع علي لمبايعة أبي بكر لا يُعد خلافاً دخل في نطاق ما أجمع عليه الصحابة والأمة، من الإجماع على الأحكام العامة كالإيجاب والتحريم والإباحة،

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم باب فضائل أبي بكر الصديق، رقم (2382.)

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص70.

(3) بشير رمضان التليسي، جمال هاشم الذويب، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، دار المدار الإسلامي، طرابلس، ليبيا، ص62.

(4) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص70.

حيث أن "ديورانت" يرى أن السبب الرئيسي بأن "علياً" يرى في نفسه أحق من أبي بكر بالخلافة، ويجب تصحيح هذا الفهم والنظر في سبب تأخر "عليّ" على مبايعة أبي بكر حيث أن القضية تعود إلى مسألة فاطمة لأبي بكر لميراثها من أبيها (ﷺ) فكان جواب "أبا بكر" لها وفقاً لما أوصى به رسول الله "لا نورث ما تركنا صدقة إنما يأكل آل محمد (ﷺ) من هذا المال" مما جعل فاطمة تهجر أبا بكر ولم تكلمه حتى توفيت بعد ستة أشهر، وبعد وفاة فاطمة استنكر عليّ وجوه الناس فألتمس مصالحة أبا بكر ومبايعته.

ومن جهة أخرى أن علياً وفاطمة كانا ينظران إلى مسألة تولي الخلافة من جانب قرابتهما من رسول الله (ﷺ) وليس من جانب تزكية نفسه وتفضيلها على أبي بكر[1].

وحُسمت المسألة وانتهى الخلاف حينها وأن ما ذكره "ديورانت" عن هذا الخلاف ودوره في الحروب العشر التي ترتبت عليه لا نستطيع أن ننكره غير أن علياً لم يقف إلى جانب ما يرمي إليه ديورانت بل كان مناهضاً لهذه الحروب لمخالفتها للكتاب والسنة، وهذه الحروب هي التي أدت إلى ظهور ما يُعرف بالخوارج، وقتل على على أيديهم ومحاربته لهم رضي الله عنه.

مناقب أبي بكر:-

عندما تولى أبو بكر الخلافة كان عمره تسعة وخمسين سنه، وكان قصير القامة نحيف الجسم، قوي البنية، خفيف الشعر أبيض اللحية حمراء الصبغة، بسيطاً في معيشه، رحيماً في حزم، ويقول: عنه "ديورانت"، أنه قد جمع بين شؤون الإدارة والقضاء كبيرها وصغيرها، لا يهدأ له بال حتى يأخذ العدل مجراه، وظل يعمل ولا يتقاضى أجراً على عمله، وكان شديد التقشف حتى اقنعه الشعب بأن ينزل قليلاً عن

(1) محمد قاسم الحنبلي، أبو بكر الصديق، (موقع مكتبة المسجد النبوي الشريف)، ص118-199.

تقشفه، وكان قد أوصى قبل وفاته بإرجاع كل ما أُرغم على أخذه إلى بيت مال المسلمين[1].

ربما كانت هذه من أبرز الجوانب في شخص وحياة الصدِّيق وإذا ما عقدنا مقارنة بين ما ذكره "ديورانت" سابقاً وبين ما جاءت به بعض كتب السير والتاريخ سنجد أن هناك تقارباً إلى حد كبير في عدة جوانب.

وما عرفناه من أوصاف الصدِّيق في بعض الكتب أنه كان جميل الوجه، أبيض نحيفٌ، خفيف العارضين، معروق الوجه، غائر العينين، ناتئ الجبهة، يخضب شيبه بالحناء والكتم، وهو أول من آمن من الرجال.

وقد وصفه "الزهري" بأنه كان أبيض أصفر لطيفاً جعداً مسترق الوركين لا يثبت إزاره على وركيه[2].

وقد ضرب المثل في زهد الصديق، وعفته، وعدله، وقد تجلى ذلك عند صعوده المنبر لأول مرة بعد خلافته حيث قال: قولته الشهيرة "أني قد وليت عليكم ولست بأحسنكم، فإن أحسنت فأعينوني، وان أسأت فقوموني، الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أُرجع عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله.... أطيعوني ما أطعتُ الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم"[3].

وقد كان الصديق كثير العطاء ويؤثر عنه أنه أنفق كل ما يملك من أموال في سبيل الله وقد قدرها أي أموال أبي بكر (عروة بن الزبير)[4]، بأربعين ألف درهم،

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص70-71.

(2) الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والارشاد، مجلة البحوث الإسلامية، مجلة دورية تصدر عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد، ص142.

(3) نقلاً مصطفى مراد، الخلفاء الراشدون، ط، الأولى، دار الفجر للتراث القاهرة، سنة، 1470-2006م، ص58.

(4) هو عروة بن الزبير بن العوام الأسدي، القرشي أحد الفقهاء السبعة بالمدينة كان عالماً بالدين لم يدخل في شيء من الفتن توفى في المدينة ينسب إليه بئر عروة الذي بالمدينة "ينظر الأعلام للزركلي، مصدر سابق".

وقال: اخبرتني عائشة أنه مات وما ترك درهماً ولا ديناراً ولا شك في ذلك لأنه كثير الإنفاق في سبيل الله، وقد أصاب "ديورانت" لذكره إرجاع أبي بكر كل ما أُرغم على أخذه من بيت مال المسلمين.

اما تواضع أبي بكر فإن "ديورانت"، يرى أن هذا التواضع الشديد ما هو إلاَّ ضعف في نظر أولئك العرب، وإذا كان بعض هؤلاء العرب لم يتغلغل الإسلام في قلوبهم حيث أن منهم من اعتنق الإسلام كارهاً، وقد ارتد هؤلاء عنه، وأبوا أن يؤدوا الزكاة التي فرضها عليهم الإسلام[1]. كيف يتسنى لبعض العرب أن يصفوا أبا بكر بالضعف وهو الذي جمع في نفسه بين الذلة للمؤمنين، والعزة على الكافرين فقد كان رؤوفاً ودوداً لينا لإخوانه في الإسلام، شديداً قوياً عزيزاً على الكافرين. وإذا كان أبو بكر ضعيفاً فمن هو الذي صرخ في وجه المشركين داخل الكعبة عندما وضع "عقبة بن أبي معيط" ثوبه في عنق الرسول (ﷺ) وهو يصلي في حجر الكعبة، فانقض عليه أبو بكر حتى دفعه عن النبي (ﷺ)، وقال:لهم أتقاتلون رجلاً أن يقول ربي الله[2].

ومن جانب آخر أن ما يدعيه بعض العرب الذين قال عنهم "ديورانت" هم الضعفاء لأنهم ارتدوا بعد وفاة الرسول (ﷺ) ولأن بعضهم ارتد عن أداء الزكاة المفروضة، ولولا قوة وصلابة أبي بكر لما قاتلهم المسلمون الذين رأوا أن قتالهم غير واجب، ولكن أبا بكر قال عنهم: (والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله (ﷺ) لقاتلتهم على منعها)[3].

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص71.

(2) مصطفى مراد، الخلفاء الراشدون، مصدر سابق، ص38.

(3) الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، نقلاً عن موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي ج/1، مصدر الموسوعة (المكتبة الالكترونية، مصدر سابق)، ص74.

قتال أبي بكر للمرتدين:-

قاتل أبو بكر هؤلاء المرتدين الضعفاء الذين اتبعوا (مسيلمة الكذاب)[1] و(الأسود العنسي)[2]، والذين ظنوا أنهم بعد خروج جيش أسامة سينتصرون على المسلمين الذين تخلفوا في المدينة فداهموا المدينة، يقول: "ديورانت" لقد جمع أبو بكر جيشاً في ليلة واحدة، وقاده بنفسه مطلع الفجر وبدد شمل العصاة سنة (632م)[3].

استدرج أبو بكر هؤلاء المرتدين حتى وضعوا فيهم السيوف فما دار قرن الشمس حتى ولوهم الأدبار وانتصر المسلمون أخيراً وقتل مسيلمة، وتاب القوم وعادوا للإسلام[4].

ولم تكن هذه المعركة هي الأخيرة مع المرتدين بل لا زال هناك البعض منهم في الجزيرة العربية، لذلك أرسل أبو بكر إليهم قوة يرأسها خالد بن الوليد والذي يصفه "ديورانت" بأشهر قواد المسلمين وأشدهم بطشاً لقتال المرتدين في جزيرة العرب لإرغامهم على أداء الزكاة[5].

لم يكن أداء الزكاة هو السبب بعينه لقتالهم، وإنما لمنعهم الزكاة أصبحوا كفاراً بحكم الشرع وليس المغزى هو إرغامهم على أداءها كما يزعم "ديورانت، ولأن الزكاة لا تنفصل عن أركان الإسلام؛ فإن السيف يشّرع الدفاع عنها لأداءها كما يشرع دفاعاً عن لا إله إلا الله تماماً، وهذا هو الإسلام لا يجوّز الإسلام بالبعض ويترك البعض الآخر قال تعالى: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن

---

(1) هو مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب المنقي الوائلي أدعى النبوءة وأرسل إلى النبي (ﷺ) يبايعه بذلك فرد عليه الرسول (ﷺ) وأطلق عليه مسيلمة الكذاب وفي الأمثال (أكذب من مسيلمة) توفى سنة 12هـ (ينضر الإعلام للزركلي، مصدر سابق).

(2) هو عبهلة بن كعب بن غوث العنسى المد حجي المعروف باسم الأسود، وذى الخمار ادعى النبؤة، وكان ممن قاتلهم أبو بكر من المرتدين فقتل في زمن خلافة أبى بكر " ينظر: موسوعة ويكبيديا الحرة.

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص71.

(4) مصطفى مراد، الخلفاء الراشدون، مصدر سابق، ص75.

(5) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص71.

يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ العَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾". [البقرة، الآية 84].

كان قتال المرتدين واجباً شرعياً يتحتم القيام به دون أي مغزى آخر من وراءه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ولا علاقة له بالفتوحات التي حصلت بعده حيث يعتقد "ديورانت" أن الفتنة التي حدثت بعد وفاة الرسول (ﷺ) كانت من أحد العوامل التي أدت إلى فتح العرب لغرب أسيا، وأن هذه الفتوحات وهذا التوسع لم يخطر ببال أحد من زعماء المسلمين حينما تولى أبو بكر الخلافة[1].

إن الفتنة التي حدثت بعد وفاة الرسول (ﷺ) ليست لها أدنى علاقة بالفتوحات والتوسع، حيث أن هذه الفتوحات وإن كانت لم توضع لها خريطة طريق للقيام بها زمن النبي (ﷺ) إلا أن نشر الدعوة الإسلامية هو ما بدأ به الرسول (ﷺ) منذ بعثته إلى وفاته، ولم يحصر النبي (ﷺ) الدعوة في نطاق الجزيرة العربية لأنها دعوة عالمية وليست قومية لكي تنحصر في جزيرة العرب قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبا، الآية 28].

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الكَافِرِينَ ﴾ [المائدة: الآية 69].

ومن هنا يتحتم على أبى بكر الخليفة الأول ومن يخلفه من بعده على مواصلة سير الدعوة بشتى الطرق سلماً وحرباً وقد أخطأ من اعتقد أن هذه الفكرة لم تخطر ببال أحد من زعماء المسلمين بعد وفاة الرسول (ﷺ) وذلك لأن الفكرة متجدرة في عقول وقلوب الصحابة، وما خاضوا المعارك بجانب الرسول (ﷺ) إلا من أجل

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص71.

توسيع بؤرة الإسلام ونشر الدعوة في العالم أجمع وليس توسيع نطاق الحكم الإسلامي من أجل بسط نفوذهم على الأرض والعالم[1].

وبعد حروب الردة حصلت بعض الصراعات بين بعض القبائل العربية القاطنة في بلاد الشام وقد رفضت هذه القبائل الخضوع للدولة البيزنطية، وقامت بصد جيوش هذه الإمبراطورية، وطلبت الاستعانة من المسلمين فأرسل إليها أبوبكر المدد، وعمل على نشر كراهية الدولة البيزنطية بين القبائل العربية[2].

وكان يقود جيش المرتدين في هذه المعركة (المثنى بن حارثة)[3] متجها إلى الشمال على الساحل الغربي للخليج العربي، وعندما وصل إلى حدود العراق تكاثرت عليه قوات الفرس، بعد ما رأوا فشل عملائهم من هؤلاء المرتدين في القضاء على الإسلام فالقوا بثقلهم في المعارك ضد المسلمين، وعندما رأى المثنى، عدم قدرته على مواجهة هذه القوة الفارسية أرسل إلى الخليفة يشرح له الموقف ويطلب منه المدد فأدرك الخليفة خطورة الموقف ورأي أن يردع الفرس ويرد عدوانهم فرماهم "بخالد بن الوليد"[4] أعظم قواده، ودفع بعياض بن غنم[5]، ولعل استجابة أبي بكر لمعونة "المثنى" في مواجهة الفرس هو ما جعل "ديورانت" يقول: أن أبا بكر استغل الفرصة لضم جيش المرتدين إلى صفه، وحتى إذا كان ما يقوله صحيحاً فإن أبا بكر عزم

---

(1) محمد نصر مهنا، الفتوحات الإسلامية من عصر النبؤة إلى الغزو الصليبي، دار الوفا لدنيا الطباعة والنشر الإسكندرية، سنة 2011م، ص3.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص71.

(3) هو المثنى بن حارثة بن سلمة الشيباني: صحابي فاتح، من كبار القادة أسلم سنة 9 وغزا بلاد الفرس في أيام أبي بكر فأكرمه وأمره على قومه، وهو أول من أغار على سواد العراق فامده "أبو بكر بخالد بن الوليد، شهد عدة وقائع ثم توفى ينظر الإعلام للزركي، مصدر سابق ".

(4) الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، نقلاً عن موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي، ج1، مصدر سابق، ص78.

(5) هو عياض بن غنم بن زهير الفهري: قائد من شجعان الصحابة وغزاتهم أسلم قبل الحديبية وشهد بدراً وأحد والخندق، وهو أول من اجتاز الدرب إلى الروم غازيا، وكان يقال له زاد الراكب لكرمه، توفى بالشام، وبالمدينة وهو ابن ستين سنة "ينضر الإعلام للزركلي، مصدر سابق ".

على قتالهم من أجل غاية أسمى وأكبر، وهي أنهم كانوا أعداءً لله ورسوله والمسلمين وسيقاتلهم أبو بكر عاجلاً أم آجلاً.

كما يضيف "ديورانت" إلى هذا الانتصار على الفرس أسباباً أخرى، منها تآلف قوة العرب على الحروب فلبوا نداء أبي بكر لخوض المعركة، وقد بدأت هذه المعركة قصيرة الأجل في بدايتها وسرعان ما تحول بدو الصحراء المتشككين فيما مضى يضحون بحياتهم في سبيل نصرة الإسلام[1].

إن هذه الأسباب التي يذكرها "ديورانت" لا يمكن أن تكون هي الأسباب الحقيقية التي كانت وراء النصر، وربما لو استثنينا منها تضحية المسلمين من أجل نصرة الإسلام، ربما كان كافياً لانتصارهم في هذه المعركة.

أسباب نجاح الفتوحات الإسلامية عند ول ديورانت:-

كان اتساع رقعة الإسلام في نضر "ديورانت" يرجع إلى بعض الأسباب الأخرى غير أسباب نشر الدعوة، ومن هذه الأسباب ما هو اقتصادي، ومنها ما هو ديني، ومنها ما هو حربي وهي الآتي:

1- أسباب اقتصادية تتمثل في ضعف الحكومة النظامية في القرن السابق لظهور النبي (ﷺ) وقد أدى هذا الضعف إلى انهيار نظم الريّ في جزيرة العرب، فضعفت من جراء ذلك غلات الأرض الزراعية، مما جعل الحاجة ماسة إلى أرض صالحة للزراعة والرعي مما دفع جيوش المسلمين إلى الغزو والفتح[2].

لم يحمل الجهاد في سبيل الله يوماً من الأيام على مبدأ إكراه الناس على الدخول فيه أو على نهب خيرات الشعوب واستغلالها، واستعباد أفرادها أي أنه منزه عن المصالح الاقتصادية التي يزعمها "ديورانت" وإنما المغزى من الجهاد، هو إفساح

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص71.

(2) المصدر نفسه، ص72.

المجال لتوحيد الله وعبادته وليكون الدين كله لله وحده قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ المُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ [الحج، الآية41].

2- أسباب سياسية تتمثل في ضعف كل من الإمبرطوريتين البيزنطية والفارسية جراء ما دار بينهما من حروب وما نتج عن هذه الحروب من دمار لكلتيهما فكان ضعفهما مغرياً للعرب على غزو بلادهما[1].

لا نستطيع أن ننكر ضعف الُامبراطوريتين في ذلك الوقت، وما سببه الصراع على السلطة والملك بينهما، ولكن يجب أن ندرك بأن جيوش المسلمين مؤمنون بما بشرهم به الرسول (ﷺ) من فتح لهذه البلدان قبل النزاع الذى حصل بينهما مؤخراً فقد كتب الرسول كتاباً إلى وفد تيم يبشره بفتح أرض الشام الخاضعة لحكم الدولة البيزنطية هذه من أرض الشام التي كانت تخضع لحكم الدولة البيزنطية، فهي بشارة الشام وقد بشره بفتح القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية والمدينة الأخرى يقصد بها "روما" مركز البابوية في إيطاليا وكل هذه المبشرات ليست مجرد تنبؤات عابرة بل هي حقائق يقينية صدرت عن رسول الله (ﷺ) الذي لا ينطق عن الهوى ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [النجم، الآية 3-4].

ومن الأسباب التي أدت إلى فتح الأمبرطوريتين وفقاً لما يرى "ديورانت" هي ازدياد الضرائب زيادة مطردة في الدولتين مما سبب في عجز الحكومة عن تصريف شؤون الحكم وحماية الأهلين[2].

وفي مقابل هذا العجز من الحكومة عن تصريف أمور الناس يجب ألا نغفل تطبيق قواعد الإسلام من قبل الفاتحين حيث كانوا يعرضون على أعدائهم أحد

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص72.

(2) جميل عبدالله محمد المصري، انتشار الإسلام والفتوحات الإسلامية زمن الراشدين، الناشر الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، سنة 1409، ص81-82.

أمرين قبل القتال (الإسلام أو الجزية) قال تعالى: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة، الآية 29].

3- عوامل اجتماعية ترجع إلى الصلات العنصرية بين المسلمين وسكان بعض الولايات مما كان له دور كبير في هذا التوسع فقد كانت في الشام والعراق قبائل عربية لم تجد صعوبة في قبولها لحكم الغزاة أولاً ثم اعتناق دينهم ثانيا[1].

إن الغزاة الفاتحين عرضوا الإسلام على أهل البلدان التي فتحوها سلوكاً وعملاً، وقولاً فاعتنقه كثير من النصارى واليهود والمجوس وفي أعداد كثيرة وبحماسة كبيرة وأقبلت عليه جميع العناصر التي أظلتها راية الإسلام في الشام والعراق، ومن جهة أخرى إن المسلمين هم وحدهم من بين الغزاة الذين جمعوا بين الغيرة على دينهم وروح التسامح نحو اتباع الأديان الأخرى[2].

4- عوامل دينية ومنها اضطهاد بيزنطة للعياقبة والنساطرة وغيرها من الشيع المسيحية قد أحفظ عليها قلوب أقلية كبيرة من السوريين والمصريين بل تعدَّاها إلى بعض الحاميات الإمبراطورية، وعندما انطلق الفتح بطرق البلدان الواحدة تلو الأخرى زادت الأسباب الدينية قوة إلى قوتها فقد كان قادة المسلمين من صحابة النبي المتحمسين يصلون لله وهم يحاربون، وقد كانوا يصلون أكثر مما يحاربون، وقد زرعوا في قلوب اتباعهم على مر الآيام روحاً حماسية قوية اعتقدوا معها أن الموت في الجهاد يفتح لهم أبواب الجنة[3].

لقد كان "ديورانت" عادة ما يضع الأسباب الاقتصادية كمحرك للحروب، وقد قال: في (كتابه دروس التاريخ) إن أسباب الحروب هي ذاتها أسباب المنافسة بين

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص72.

(2) جميل عبدالله محمد المصري، انتشار الإسلام والفتوحات الإسلامية زمن الراشدين، مصدر سابق، ص97.

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص72.

الأفراد نزعة التملك والمشاكسة، والغزو، أصل هذه الأسباب هي الرغبة في امتلاك الطعام والأرض[1].

لعل ما جعل "ديورانت" يعطي الجانب الديني الإسلام هذا الطابع؛ هو سهولة انتشار العقيدة الإسلامية ووضوحها وخلوها من التعقيد والألغاز، ولا واسطة بين العبد وربه، بخلاف ما حصل للمسيحية من عقيدة محرَّفة (التثليث) فإن محمداً (ﷺ) هو عبدالله ورسوله بشيراً ونديراً وقد اعتنق الإسلام مختلف الأجناس بفضل خصائصه الذاتية، وتعاليمه الخيرة كما إن تسامح العرب كان من العوامل التي ساعده على انتشاره[2].

5- هناك فوق ذلك كله عوامل أخلاقية لها أيضاً شانها في هذه الفتوح، ولضعف المبادئ الأخلاقية المسيحية والرهبنة في بلاد الشرق الأدنى، ولاستعداد جيوش المسلمين للقتال والذي كان من تعاليمهم الإسلامية.

لقد كانت جيوش العرب خيراً من جيوش الفرس والروم نظاما وقيادة، يألفون المشاق وينالون جزائهم من الفئ، لقد كان في وسعهم أن يحاربوا وبطونهم خاوية، ويعتمدون على النصر في الحصول على طعامهم[3].

ونلاحظ أن "ديورانت" حتى في ذكره للعوامل الأخلاقية لم يستطع أن يجرد هذه الأخلاق من العوامل المادية من فئ وحصول على الطعام، ولو كان همهم المغانم المادية لما شهد لهم أعداؤهم بخلاف ذلك حيث وصفوهم بأنهم "رهبان الليل فرسان النهار، ولوحدثك جليسك حديثاً ما فهمته، لما علا من أصواتهم بالقرآن والذكر، يصومون النهار، ويقومون الليل، ويوفون بالعهد ويأمرون

(1) ول ديورانت، دروس التاريخ، مصدر سابق، ص72.

(2) حسن الباشا، دراسات في الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية، القاهرة، سنة 1991م، ص18.

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص72.

بـالمعروف، وينهـون عـن المنكـر، ويتناصـحون بيـنهم، يعفّـو عـن المغـانم، ولا يستحلونها إلا محلها"[1].

فقد وصفوهم بالعفاف عن المغانم والمكاسب وشهدوا لهم بالحسن والمعروف، والصلح، وكل هذه الصفات التي يتمتع بها القادة والجند هى التى استهوت أهل البلدان المفتوحة، وكانت من أهم أسباب تسارع الناس إلى اعتناق الإسلام.

وها هو "ديورانت" يعود من جديد ويعترف بالأخلاق التي كان عليها القادة والجند الفاتحون حيث وصفهم بأنهم لم يكونوا همجاً متوحشين في حروبهم انظر إلى ما أوصاهم به أبو بكر من وصايا "أوصيكم بعشر فاحفظوها عني، لا تخونوا ولا تغلوا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة، وبعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له.....الخ"[2].

إذن فهذه الأخلاق الإسلامية التي يتبعها القادة والجند هي المحرك الرئيسي الأول لاعتناق هذا الدين، وجعله سريع الانتشار وجعل فتوحاته أكبر وأسرع الفتوحات، وقد تضمنت وصايا أبي بكر عدم إكراه أحد على اعتناق الإسلام وجعل الأمر منوطاً بحرية التدين لصاحبها في مقابل دفع الجزية، وتضمنت عدم الفساد في الأرض من قتل وحرق وتمثيل وترويع، ومن ثم فإن التقول بأن السيف والمغانم هما السبب الرئيسي في نجاح هذه الفتوح وجعلها الأسرع لا يمكن أن يقبله الدارس المنصف لحوادث التاريخ الإسلامي، وقد وجدتُ أن "ديورانت" قد تعرض لنقد العامل الاقتصادي، وضعف دوره في نجاح الحروب والغزوات، ومؤكداً لعدم لعبه الدور الأساسي في الفتوحات الإسلامية وغيرها من الحروب إذ يقول: في

---

(1) جميل عبدالسلام المصري، انتشار الإسلام والفتوحات الإسلامية، زمن الراشدين، مصدر سابق، ص86.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص73.

كتابه "دروس التاريخ" وإذا كان هناك من يزعم بان فتح المسلمين لأسبانيا، أو فتح المغول لغرب أسيا والهند كان وراءه الدافع الاقتصادي، فقد أخطأ؛ لأنه في هذه الحالة قد أثبت الفقراء أنهم أقوى من الأغنياء[1].

فإذا كان انتقد العامل الإقتصادي ودوره في نجاح الحروب والذي عادةً ما كان يضعه في مقدمة الأسباب فإنه لا مناص من التسليم بالأسباب الأخرى وعدم إهمالها وإن كان الدين هو السبب الأول والأخير لنجاح هذه الحروب بالنسبة للمسلمين.

كذلك من أسباب نجاح هذه الفتوحات عند "ديورانت" أن الفاتحين كانوا يعرضون على أعدائهم عدة خيارات، فلم يكن خيار السيف هو الخيار الوحيد لديهم، بل كانوا يقدَّمون خيار، الإسلام، ثم الجزية، والسيف في نهاية المطاف[2].

وما يقوله: "ديورانت" آنفاً من أكبر الردود على الذين يدَّعون بأن الإسلام انتشر بقوة السيف، فالدول الغربية تخوض الحروب الدينية لتجعل ولو بالإكراه كل رعيتها متدينة بدينها بل بمذهبها الديني، وانظر إلى ما فعلته أسبانيا والبرتغال والكاثوليكيون مع المسلمين وغيرهم من المخالفين لهم في العقيدة بعد أن احتلوا أرض المسلمين في الأندلس[3].

6- وأخيراً يرى "ديورانت" بأن هناك أسباباً حربية للغزو والفتح، وكان ذلك نتيجة لتضاعف عدد الجيوش العربية الظافرة ومن انظم إليها من المجندين مما يستدعي الزحف بهم إلى أرض جديدة يفتحونها ليحصلوا منها على طعامهم، وأجورهم إن لم يكن لغير ذلك من الأسباب[4].

---

(1) ول ديورانت، دروس التاريخ، مصدر سابق، ص108.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص73.

(3) جميل عبدالله محمد المصري، انتشار الإسلام الفتوحات الإسلامية زمن الراشدين، مصدر سابق، ص96، وانظر الحاشية للمصدر نفسه، ص96.

(4) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص73.

إذا ما رجعنا إلى تاريخ الفتوحات الإسلامية سنجد خلاف ما يزعمه "ديورانت" من اغتصاب للأراضي، وحصولهم منها على الطعام أو غير ذلك بل إن الفاتحين المسلمين أعادوا بعض الأراضي المغتصبة إلى أهلها انظر إلى ما فعله "خالد بن الوليد" مع الفلاحين إذ أقرهم وأصبحت أرضهم لهم بعد أن كانوا أقناناً عند الدهاقين (ملاك الأراضي من الفرس) وقد أقر "سعد بن أبي وقاص" الجزية على فلاحي "يهريسر" بعد أن دعاهم إلى الإسلام فأبوا[1]:

على ما يبدو لي أن ما ذكره "ديورانت" سابقاً من أسباب كانت وراء نجاح الفتوحات الإسلامية هو ما جعله يعجب بها وبسرعة انتشارها مما جعله يقول عنها أنها قوة دافعة جعلت من كل انتصار يتطلب انتصاراً جديداً، حتى أصبحت هذه الفتوحات أسرع من الفتوحات الرومانية، وأبقى على الزمان من الفتوح المغولية، وأعظم الأعمال إثارة للدهشة في التاريخ الحربي كله.

واقعة أليس:-

لقد قتل خالد يوم الولجة طائفة من بني بكر بن وائل من نصارى العرب ممن كانوا مع الفرس الأمر الذي جعل عشاءَرهم يكاتبون الأعاجم ويستعينون بهم؟ "دارد شبر" جيشاً فاجتمعوا بمكان يقال له أليس.

وفي عام (663م) بعدما انتهى "خالد بن الوليد" من أمر أهل الردة واستطاع بسط لواء السلم على جزيرة العرب، طلبت منه إحدى القبائل البدوية الضاربة على حدود الجزيرة الاستعانة والمدد في محاربة بعض العشائر داخل حدود العراق، وسرعان ما قبل "خالد" وخمسمائة من رجاله الدعوة لأنهم قوماً لم يعودوا يطيقون

(1) جميل عبدالله محمد المصري، انتشار الإسلام الفتوحات الإسلامية زمن الراشدين، مصدر سابق، ص93.

التعطل والركون إلى السلم طويلاً، والتحم معهم ألفان وخمسمائة من رجال القبائل، وغزوا أملاك الفرس[1].

لم تكن تلبية "خالد بن الوليد" لهذه الدعوة من أجل اعتيادهم على القتال، وعدم استطاعتهم على الركون إلى السلم بل إن القتال فيه استكراه للمسلمين كما في قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: الآية 214].

فوجود هذه الرغبة عند جيوش المسلمين بعيد المنال وتلبية "خالد " وجيشه لهذه الدعوة لأن المسلمين كانوا حينها محاصرون وقد أغار عليهم الفرس، فالأمر يتطلب من "خالد" وجيشه إعانتهم ونصرتهم، وكما أن عدد الجيش الذي أخذه معه "خالد" في هذه المعركة قد اختلفت فيه المصادر اختلافها في موعد السفر والطريق الذي سلكه[2].

وقد غافل "خالد" وجيشه جيش الفرس على حين غرة حيث كانوا قد نصبوا لهم سماطاً فيه طعام، فانهملوا في طعامهم ولم يعيروا اهتماماً "لخالد" وجيشه فانقض عليهم من فوره فنفرت الأعاجم عن الطعام وقاموا إلى السلاح واقتتلوا قتالاً شديداً جداً والمشركون يترقبون قدوم المدد إليهم من جهة الملك وصبر المسلمون صبراً بليغاً، وقال "خالد" اللهم لك علىَّ أن منحتنا أكتافهم لا أستبقي منهم أحداً أقدر عليه[3].

وهنا يتساءل "ديورانت" قائلاً لسنا نعلم هل وافق أبو بكر على هذه الحملة قبل الإقدام عليها ام لم يوافق؟

ومن خلال دراستي لبعض كتب السير والتاريخ لم أولاحظ أي تصرف قد انفرد به "خالد بن الوليد" حيث كانت الأمور كلها تعود إلى الخليفة "أبي بكر" وكما أن "أبا بكر" لا يمكن له أن يسكت على أمر يخالف فيه "خالد بن الوليد" ما جاء به الإسلام أو أمر به "أبو بكر" سواء علم بذلك أم لم يعلم ناهيك عن أن خالداً وجيشه

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص73.

(2) محمد نصر مهنا، الفتوحات الإسلامية من عصر النبؤة إلى الغزو الصليبي، مصدر سابق، ص45.

(3) ابن كثير، البداية والنهاية، ج6، مصدر سابق، ص382.

كان يقاتل المرتدين والمشركين ويقول: "ديورانت"، أيضاً "استولى خالد على الحيرة وأصاب منها الفئ وأخذ كل فارس جزاءه منه ما انطق "أبو بكر مقالته الشهيرة"، يا معشر قريش عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خرازيله، أعجزت النساء أن يُنشئنَّ مثل خالد"[1].

ومن خلال فهمنا لمجريات هذه الفتوحات التي قادها خالد بن الوليد كانت من أكبر الفتوحات وأسرعها في الإسلام ونستخلص من هذا أنه عندما استولى "خالد" على الحيرة وأرسل بالبشارة والفتح إلى أبي بكر مما جعله ينطق بتلك العبارة "يا معشر قريش أن أسدكم قد عدا على الأسد فغلبه على حرازيله، أعجزت النساء أن يلدن مثل خالد بن الوليد"[2]. كان أبو بكر قد قالها وهو مبتهج بانتشار الدعوة في ربوع جديدة وليس بما يوزع من الغنائم والفئ بين الصحابة إذ أن "ديورانت" قد ذكر سابقاً أن "أبا بكر" كان شديد التقشف، وقبل وفاته أوصى بإرجاع كل ما يملك إلى بيت مال المسلمين بالإضافة إلى تصدقه بماله الخاص كله في سبيل الله، وهذا من الأدلة الصريحة التي تؤكد أن أبا بكر لم يبتهج بما غنمه المسلمين من هذه الغزوة بقدر ما تؤكد على ابتهاجه بوصول الدعوة إلى ربوع جديدة.

وكانت المرأة في ذلك الوقت ذات شأن كبير في تفكير الضافرين ومغانمهم، ودليل ذلك بينما كان العرب يحاصرون حمص أثار قائد شاب من قواد العرب حماسة الجنود بأن وصف لهم جمال فتيات الشام، وعندما استسلمت الحيرة اشترط خالد على أهلها أن تمنح سيدة من نسائهم تُدعى "كرامة" إلى جندي عربي قال إن النبي (ﷺ) قد وعده بها، فامتنع عن ذلك أهلها مما جعلها تقول: لهم "لا تخطروه ولكن اصبروا ما تخفون على امرأة بلغت ثمانين سنة؟ فإنما هذا رجل أحمق رأني في

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص74.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، ج6، مصدر سابق، ص382.

شيبتي فظن أن الشباب يدوم" مما جعلهم يدفعوا بها إلى خالد فأعطاه خالد إليه ثم أفتدت نفسها منه بألف درهم وكانت تساوى أضعاف ذلك[1].

ليس هناك داعياً لإيثار الحماسة المزعومة بوصف النساء للفاتحين لكي ينتصروا في المعركة، ولماذا لم تلاحظ "ديورانت" يذكر النساء كدافع وسبب من أسباب الفتوحات التي ذكرها سابقاً والتي أدت بدورها إلى هذه الفتوحات في حين أنه ذكر العديد من الأسباب، وقد كان أمر "كرامة بنت عبدالمسيح" والتي أعطيت إلى "شُويل" ذلك الرجل الذي عندما ذكر له رسول الله (ﷺ) قصور الحيرة كان شرفها انياب الكلام وطلب "شويل" هذا من الرسول (ﷺ) منحها له، وقد ضمن له يوم فتح الحيرة وشهد له اثنان من الصحابة، وعندما رفض قومها تسليمها إليه، قالت لهم "ادفعوني إليه فإني سأفتدي منه وأنه قد رأني شابة".

وعندما سُلمت إليه وخلا بها قالت: له "ما تريد إلى امرأة بنت ثمانين سنة؟ وأنا افتدي منك فاحكم بما أردت" فقال: والله لا أفديك بأقل من عشرة مائة، فاستكثرتها خديعه منها، ثم أتت قومها فأحضروا له ألف درهم ولامه الناس، وقالت لو طلبت أكثر من مائة ألف لدفعوها إليك وأخيراً قال له "خالد" أردت أمراً وأراد الله أمراً غيره، وإنا نحكم بظاهر قولك، ونيتك عند الله، كاذباً أنت أم صادقاً[2].

ربما كانت هذه الحادثة التي حاول "ديورانت" أن يجعل منها ذريعة لبعض الفتوحات، حتى يجعل صورة الفاتحين مشوهة بالنساء والملذات، حيث إن القصة اقتصرت على "شويل" ناهيك عن معاتبة "خالد" ومن معه من الصحابة له، وخاصة في أمر الفدية، والتي بالغ فيها "ديورانت" بقوله: "كانت تساوي أضعاف ذلك" بالإضافة إلى حكم "خالد" علي شويل بظاهر ما يقوله مما يؤكد عدم سعي الصحابة وراء الشهوات وترك له خالد الأمر معلقاً عند الله في كونه كاذباً أم صادقاً.

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص74.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، ج1، مصدر سابق، ص383.

معركة اليرموك:-

قبل أن يستمتع خالد بثمار انتصاره في الحيرة أرسل إليه الخليفة "أبوبكر" يأمره بالسير لإنقاد قوة من العرب يتهددها جيش من الروم أكثر منها عدداً بالقرب من دمشق، وتقع بين الحيرة ودمشق في ذلك الوقت قطعة من الصحراء الجدباء الخالية من موارد الماء والتي تحتاج إلى مدى خمسة أيام لاجتياحها، وما كان من خالد إلا أن جمع الإبل وسقاها الماء بوفرة، وظل الجند في أثناء زحفهم يأخذون الماء من بطون الإبل بعد ذبحها ويسقون خيولهم لبنها[1].

لم ياتِ الأمر من "أبي بكر" إلى خالد بالسير لإنقاد قوة من العرب يتهددها جيش الروم، وإنما كان المسلمون حينها قادمون على فتح الشام، وعندما علم الروم بدخول المسلمين إلى أرضهم كتبوا إلى "هرقل" وكان بالقدس فقال "هرقل" أرى أن تصالحوا المسلمين فوالله لأن تصالحوا على نصف من الشام ويبقى لكم نصفه مع بلاد الروم أحب إليكم من أن يغلبوكم على الشام ونصف بلاد الروم.

وأثارت هذه النصيحة غضب قواد الروم، وظنوا أن الأمبرطور قد ضعف وسيسلم البلاد بيد الغزاة الفاتحين وصريح القول أن "هرقل" قد ضعف أمام غضب قواده، وعقد العزم على قتال المسلمين مع يقينه بالخسارة، وقام "هرقل" بجمع جيش ضخم العدة[2].

وكان نفاذ المؤن والطعام كما يقول "ديورانت" عند وصول الجيش ضفاف نهر اليرموك على بعد ستين ميلاً إلى الجنوب الشرقي من دمشق، وينسب بعض الأقوال

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص74.

(2) محمد السيد الوكيل، موقعة اليرموك، دراسة وتحليل، الناشر الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، سنة 1401هـ، ص176.

في نتائج هذه المعركة إلى المؤرخين العرب بقولهم هزم أربعين ألف من العرب مئتان وأربعون ألف من الروم؟[1].

وقد فوجئ "ديورانت" بهزيمة الروم مما جعله ينسب القول إلى المؤرخين العرب أولاً، ثم وضع علامة الإستفهام في نهاية الأرقام ثانياً، وربما وضعها لعدم تصديقه بقدرة جيش المسلمين القليل العدد على هزيمة الروم، حيث كان عدد المسلمين يتراوح ما بين ستة وثلاثون إلى أربعون ألف بينما كان عدد جيش الروم مائتان وأربعون ألف[2] إن الفارق العددي بين الجيوش لم يكن هو الفيصل دائماً في حسم المعارك، ومن خلال هذا الفارق أطلق "ديورانت" حكمه بظاهر القوة العددية، ولم ينظر إلى بواطن النفوس وما تحمله من عقائد، وقد أثبتت التجارب أن العقيدة الإيمانية الراسخة بالإضافة إلى القيادة الحكيمة هما من أكبر أسباب النصر قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة، الآية 24].

ولعل هذا الانتصار على الروم هو ما جعل "ديورانت" يقول: وهكذا غامر الإمبراطور "هرقل" ببلاد الشام كلها في معركة واحدة، وبعد ما خسر المعركة تحولت تلك البلاد قاعدة للدولة العربية الآخذة في الاتساع[3].

لقد انتهت هذه المعركة بمقتل ستة آلاف من جيش الروم، وفرَّ المنهزمون حتى بلغوا دمشق وولي عليها رجلاً، وجعلها بينها وبين المسلمين، وقد بلغ عدد شهداء المسلمين في هذه المعركة حوالي ثلاثة آلاف مقاتل[4].

كانت هذه المعركة هي الفاصلة بين خلافة "أبي بكر" وخلافة عمر حيث توفى "أبو بكر" وأمر عمر بالخلافة من بعده وأرسل الخليفة الجديد كتاباً إلى قائد

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص74.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، ج7، مصدر سابق، ص10.

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص74.

(4) محمد السيد الوكيل، معركة اليرموك، دراسة وتحليل، مصدر سابق، ص185.

الجيش "خالد بن الوليد" والذي كان يقود المعركة والجيوش إلى طريق النصر إذ جاء "ديورانت" بما تحمله هذه الرسالة من أخبار حيث يقول: لقد جاءت الرسالة بنبأ وفاة "أبي بكر" ويأمره فيها عمر الخليفة الجديد بترك القيادة "لأبي عبيدة" وقد أخفي "خالد" هذه الرسالة عن عيون المسلمين حتى انتهت المعركة[1].

عند اشتعال رحى المعركة أقبل بريد من المدينة مسرعاً يسأل عن خالد والناس خلفه، ليعلموا بما يحمله هذا البريد من أخبار المدينة، ولكن البريد أحسن التصرف، وأبلغ "خالداً" بوفاة "أبي بكر" سراً[2]، وهنا ظهرت حنكة وحكمة "خالد" بإخفاء الرسالة حتى تنتهي المعركة، وينتهي المسلمون مما هم مقبلون عليه من نصر.

ومما حفلت بذكره كتب السير والتاريخ الموقف العظيم الذي سجل "لخالد بن الوليد" في تقبل أمر عزله بصدر رحب ولعل هذا ما لم يذكره "ديورانت" ومع أن "خالداً" كان في أوج نصره حينها، وانصاع حينها يقاتل بإخلاص تحت إمرة القائد الجديد.

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص74.

(2) محمد السيد الوكيل، معركة اليرموك، دراسة وتحليل، مصدر سابق، ص185.

المبحث الثاني
خلافة عمر بن الخطاب (582-644)

كان عمر أكبر وأعظم معين لأبي بكر، وقد وصلت به الشهرة إلى درجة أنه لم يعترض عن خلافته أحد عندما اختاره "أبو بكر" خليفة للمسلمين[1].

إنما ارتضى المسلمون بخلافة "عمر" ليس من أجل شهرته وحدها، بل إن امتثاله لأوامر "أبي بكر" وأراءه الصائبة مثل فكرة جمع القرآن، بالإضافة إلى عدة أمور تخوله للخلافة ومنها على سبيل المثال لا الحصر قول: رسول الله(ﷺ) "لو كان بعدي من نبي لكان عمر بن الخطاب"[2] وقد سئلت "عائشة" من كان رسول الله (ﷺ) مستخلفاً لو استخلفه؟ قالت: "أبو بكر" فقيل لها ثم من بعد أبو بكر قالت عمر[3].

بالإضافة إلى ذلك جاء القرآن موافقاً لآراء "عمر" في عدة مواقف مثل موافقته له في نزول الحجاب، وفي معاتبة أزواج النبي (ﷺ)، وفي أمر أسرى بدر، وغيرها كثير ربما، لا يسعفنا الوقت لذكرها، ويجدها الباحث في مظانها.

مناقب عمر:-

قد ذكر "ديورانت" الاختلاف بين شخصية الخليفة الأول، والخليفة الثاني، وهي أن "عمر" كان مغايراً تماماً "لأبي بكر" من حيث المناقب، وبعض الخصال فكان "عمر" طويل القامة عريض المنكبين حاد الطبع شديد الانفعال، ولا يتفق مع "أبي بكر" إلا في بساطته وتقشفه، وفي أنه كان مثله أصلع الرأس يصبغ لحيته[4].

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص75.

(2) أخرجه أحمد 154/4) والواقدي رقم (3786) والحاكم (85/3) وابن شاهين (140) واللالكائي (2491) وصححه الألباني في الصحيحة (327).

(3) أخرجه البخاري، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، رقم (2385).

(4) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص75.

لم يبتعد "ديورانت" في وصفه لمناقب عمر عن الذي ذكرته بعض المصادر الإسلامية، فكان عمر من طوال القوم، إذا مشى بينهم، وكان أصلع الرأس آدم أعسر؟ طوالا مشرفاً على الناس كأنه على دابة[1].

وقد ابتعد "ديورانت" في إرجاع حكمة عقله وقدرته على الحكم الهادئ إلى تبعات الدهر، لأن "عمر" عُرف عنه منذ صباه سداد الرأي، وما ذكرناه في الحديث السابق "لو كان بعدي من نبي لكان عمر"، يؤكد صواب الرأي والحكمة، ولولا ذلك ما جاء القرآن مؤيداً لرآيه في عدة مواضع، ولا نريد الإطالة في هذا الجانب؛ الذي سيأخذ مساراً آخر يبعد بنا عن المراد.

وفي جانب آخر من سيرة "عمر" يحاول "ديورانت" أن يجعل من بعض الأحداث التي حصلت له مجرد قصة مختلقة أو مصطنعة وحاشالله" ويعتمد على ما ذكره المؤرخون والكتَّاب، مستفتحاً الحديث بعبارة من عنده حيث قال: "ويحكي عنه أنه ضرب بدوياً من غير حق ثم ألح عليه دون جدوى – أن يكيل له من الضربات بقدر ما كال هو"[2].

إن الأمر لا يحمل على مكنى الضرب أو يصل إلى هذا الحد وكل ما في الأمر أن "عمر" كان يشير إلى "إياس بن سلمة"[3] بالدرة التي كان يحملها دائماً معه، حيث قال: له "هكذا أمط عن الطريق يا سلمة، ولم يصب بها "عمر" إلا طرف ثوب "إياس" وكان "عمر" قد أعطى إلى "إياس" مقابل تلك الخفقة ستمائة درهم حتى أن "إياس" استغرب إعطاء "عمر" هذا المبلغ إليه، فذكر له تلك الخفقة، فقال له "إياس" فاذكرتها حتى ذكرتنيها فقال: "عمر" كعادته "والله ما نسيتها"[4].

---

(1) البوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد صبحي الدين عبدالحميد، ط الأولى، دار مطبعة السعادة مصر، سنة 1371هـ، 1952م، ص118.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص75.س

(3) هو اياس بن سلمة بن الأكوع الأسلمي المدني مشهور وما علمته روى عن غير أبيه حدث عنه موسى ابن عبيدة توفى سنة تسع عشرة ومائة "ينظر موقع ويكبيديا.

(4) أخرجه البيهقي (5، 23).

لو كانت القصة كما يصورها "ديورانت" لحملت لنا الخلافات والمشاحنات بينهما، وكان مغزى "عمر" واضحاً من وراء هذه الخفقة والتي لم تُصب إلا ثوب "إياس" ولم يكن في الأمر شيء من الضرب أو ما شابه.

ويضيف "ديورانت" إلى ذلك إن "عمر"، كان شديد التمسك بالدين، وكان يحمل معه درة يضرب بها كل من رأه خارجاً عن أصول الدين، وقال: عنه أيضاً المؤرخون المسلمون لم يكن لدى عمر سوى قميص واحد وجلباب واحد رقعه عدة مرات، وكان يعيش على التمر وخبز الشعير وكان ينام على سرير من جريد النخل، وهو لا يكاد يكون أقل صلابة وخشونة من قميص الشعر، وكان همه الوحيد هو نشر الإسلام بالسلم والحرب[1].

لقد كان "عمر" متمسكاً كثيراً بالدين كما يقول "ديورانت" وكيف لا يكون متمسكاً بهذا الدين وهو تلميذ رسول الله (ﷺ) وهو الذي الله فرق بإسلامه بين الإيمان والشرك، بالإضافة إلى أنه كان من خيرة الناس بعد "أبي بكر" مرتبة وإيماناًولا نريد الإطالة في هذا الأمر لأنه ليس بالشيء الجديد الذي يستغرب أمره.

وأما قضية الدرة، والتي يزعم "ديورانت" أن "عمر" كان يضرب بها الناس الخارجين عن أصول الدين فهذا من الأخطاء الفادحة التي وقع فيها لأن هذه العصاة الخشبيه اقتصر دورها على التأديب وليس التعذيب، وقد سبق وأشرنا إلى ما فعله عمر مع "إياس" من خلال إشارته بها إليه للإماطة، وأما ما ذكره المؤرخون عنه أي "عمر" من تقشف فهو صحيح وقد عرف عنه الورع والتقشف في المأكل والملبس، والنفقة على نفسه، وقد كان يخطب أمام الناس وهو خليفة وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رُقعة[2].

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص75.

(2) أخرجه ابن سعد، في الطبقات، ج3، ص219.

وكل هذا الزهد والبعد عن متاع الدنيا كان وراءه هدف أسمى يسعى إليه "عمر" وهو نشر راية الإسلام كما أشار بذلك "ديورانت" غير أنه بعد ما ذكر لنا هذه القصص المنقولة من كتب السير والتاريخ أنكرا حدوثها وزعم بأنها كاذبة حيث قال لا نجزم بصحة هذه القصص وأمثالها[1].

إن هذا الجحود من قبل "ديورانت" بمثل هذه القصص هو ليس بالشيء الجديد أو الذي يدعو إلى الاستغراب لأن مثل هذه الأفكار هو ما تشبع به عقل "ديورانت" منذُ بداية سرده لسيرة الرسول (ﷺ) حيث أنكر نبوءته التي لم ينكرها إلا حاقد أو متعصب، وهي حقيقة تسطع كالشمس أمام الجميع، ومن هنا فلا داعٍ للرد على ما يدعيه بأن بعض القصص التي كتبت عن حياة الخليفة "عمر" كاذبة أو محرفة أو ملفقة لأن هذا ديدنه، وهذا ما عُرف عنه.

ومن جانب آخر يحاول أن يتخذ من عزل "عمر" "لخالد" من قيادة جيش المسلمين منطلقاً لشبهاته حيث يزعم بأن السبب الذي جعل عمر يعزل خالداً هو تشويه "خالد" لشجاعته بالقسوة[2].

في الواقع كان عزل "عمر" "لخالد" مبنياً على بعض الأسباب التي سنذكر بعضها، ولكن ليس من بينها سبب فيه شيء من الذي ذكره "ديورانت"، وكما أنه ما كان "أبو بكر" ليدع "خالداً" يستمر في رئاسة جيش المسلمين ولديه بعض الأخطاء يرتكبها، ويبقى "أبو بكر" صامتاً على ذلك حتى يتولى "عمر" الخلافة ويعزله من مكانة.

إن "عمر" لم يعزل "خالداً" وحده في تلك الفترة، وإنما عزل معه العديد من الولاة من بينهم المثنى بن الحارث، من العراق، وقدعزلهما عمر حتى لا يفتن الناس بما يحققه من نصر على أيديهما، ونلاحظ أنه عندما قام "عمر" بعزل "خالد" لم يكن

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص75.

(2) المصدر نفسه، ص75.

بينهما أي خلاف أو مشاجرة، وإنما كانت العلاقة بين الصحابيين علاقة حميمة رحيمة ملؤها الإحترام وكان "عمر" قد قال "لخالدٍ" عند عزله له "إنك عليَّ لكريم، وإنك عندي لعزيز، ولن يصل إليك منى أمر تكرهه بعد ذلك"[1].

قد أعجب "ديورانت" بالقرار الذي اتخذه "خالد" اتجاه عزل "عمر" له وقال: عنه بأنه نظر إلى مسألة تنحيته نظرة ملؤها الشهامة، وما هو أجمل من الشهامة فقد وضع نفسه تحت تصرف "أبي عبيدة"[2] بلا قيد ولا شرط ولاسيما أن "أبا عبيدة" لديه من الحكمة ما جعله يتبع مشورة "خالد" في شؤون الحرب، ويعارض قسوته بعد النصر[3].

لقد كان انصياع "خالد" تحت إمرة "أبي عبيدة" ليس بالأمر الغريب، وقد سبق وانصاع "أبو عبيدة" تحت إمرة خالد بأمر من "أبي بكر" كما ذكرنا ذلك أثناء خلافة "أبي بكر"؛ لأن القيادة لم تكن يوماً مطلباً لأصحاب النبي (ﷺ) حتى يتنازعوها فيما بينهم، وأن مشورة "أبي عبيدة" "لخالد" بعد عزله من "عمر" لم تُبنَ على حكمة "أبي عبيدة" وحدها كما زعم "ديورانت" وإنما أوكلت مهمة الاستشارة "لخالد" بأمر من "عمر" كما ذكر ذلك "ابن كثير" حيث قال: "أبقاه مستشاراً في الحرب، وأكد واقع الفتوحات الإسلامية أن "خالداً" كان المستشار الأول "لأبي عبيدة" حتى أنه كان يقضي بعض الأمور دون إذنه فيقره أبو عبيدة غالباً"[4] ولم يعارض قسوته بعد

---

(1) أبن كثير، البداية والنهاية، ج7، مصدر سابق، ص118.

(2) هو أبو عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن ضبه بن الحارث بن فهر بن مالك أحد العشرة المبشرين بالجنة، وكان ممن ثبتوا مع الرسول (ﷺ) يوم أحد، وهو أول كاتب كتبه عمر بن الخطاب شهد المشاهد كلها مع رسول الله (ﷺ) ولقبه الرسول بأمين الأمة توفى 18هـ "ينظر أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، مصدر سابق ".

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص75-76.

(4) نقلاً عن ابن كثير، البداية والنهاية، ج7، مصدر سابق، ص117.

النصر كمازعم "ديورانت" إذ أن موافقة "أبي عبيدة" "لخالد" على أمور يفعلها "خالد" من تلقاء نفسه، تدل على عدم معارضة "أبي عبيدة" له ولولا ذلك لما أقره"[1].

الفتوحات العمرية عند ول ديورانت:-

استمرت الفتوحات الإسلامية في خلافة عمر وأصبحت السيل الذي ما دخل مدينة إلا وفتحها وقد انطلقت من بلاد الشام، واستولى العرب على دمشق في عام (635م) وأنطاكية في عام (636م) وعلى بيت المقدس في عام 636.

لقد تقدمت الجيوش الإسلامية الفاتحة بقيادة "أبي عبيدة" ومعه مستشاره "خالد" نحو مدن الشام فاستولوا على فحل ببيسان ثم دمشق فحمص، وبعدها قنسرين وقيسارية وبعلبك، وكانت هذه الفتوحات حوالي سنة (14هـ) (635م) واستمرت هذه الفتوحات حتى تم فتح انطاكية سنة (15هـ) (636م)[2].

فتح بيت المقدس:-

بعد حصار المسلمين لبيت المقدس واحتدام المعارك بين المسلمين والجيش البيزنطي المتحصن، وتأكد المتحصنين من عدم قدرتهم على التصدي لهذه القوة والتي أسقطت كل المدن المجاورة لهم، تم تسليم القيادة إلى البطريرك "سفرنيوس"[3] والذي عرض عليه "أبو عبيدة" ثلاثة شروط: اعتناق الإسلام، أو استسلام المدينة أو دفع الجزية[4].

وبعد هذه المفاوضات يقول "ديورانت" لقد وافق البطريك "سفرنيوس" على تسليم بيت المقدس؛ إذا جاء الخليفة "عمر" إلى المدينة في بساطة أفخر من الفخامة، ومعه عدل من الحب وكيس من التمر، ووعاء ماء، وصحفة من الخشب،

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص76.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، مصدر سابق، ص55.

(3) البطريرك لقب يطلق على رؤساء وأساقفة الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، وأول من دعى بهذا اللقب هو القديس إيناتوس البطريرك الثاني لكرسي الإسكندرية عام 325م. ينظر: الموسوعة الالكترونية.

(4) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج3، ط الثانية، دار التراث، بيروت، سنة 1387هـ، ص608.

وخرج "خالد" و"أبو عبيدة" وغيرهما من القواد لاستقباله، وغضب حين أبصر ثيابهم المهفهة، وعدد خيولهم المزركشة، وألقى بحفنة من الحصباء في وجوههم لاستقبالهم له بذلك الزي الفاخر[1].

لقد رماهم الخليفة "عمر" بتلك الحجارة لأنه ظن أنهم قد أثر فيهم طغيان المال حتى نسوا أمر دينهم لذلك قال: لهم "سرعان مالفتم عن رأيكم تستقبلون في هذا الزي، وإنما شبعتم منذ سنين، سرعان ما ندت بكم البطنة، وتالله لو فعلتموها على رأس المائتين لأستبدلت بكم غيركم، فقالوا "يا أمير المؤمنين، إنها إيلاقه، وأن علينا السلاح، قال نعم"[2] أي أنه ادرك المغزى الذي لإجله ارتدوا هذه الثياب وهو الحروب لا البهاء.

وعن استقبال "سفرنيوس" للخليفة كان بالنسبة "لديورانت" استقبالاً ذي حفاوة حيث قال: كانت مقابلة ملئها اللطف والمجاملة، ولم يفرض على المغلوبين إلا جزية قليلة، وأمن المسيحيين على كنائسهم.

لقد ذكر "ديورانت" فيما سبق أن الخليفة "عمر" كان همه الوحيد نشر الإسلام بالسلم أو بالسيف، وها هو يثنى عليه ويؤكد على عدم إكراه أهل بيت المقدس للدخول في الإسلام واكتفى بفرض قليل من الجزية كما ذكر، وهذا من الأدلة التي تؤكد على عدم انتشار هذا الدين الإسلامي بقوة السيف.

ويذكر لنا "ديورانت" أن المؤرخين قد قالوا أن عمر طاف مع البطريرك بيت المقدس، واختار في العشر الأيام التي أقام فيها موضع المسجد الذي سمى فيما بعد باسمه ولما سمع الخليفة أن أهل المدينة يخشون أن يتخذ بيت المقدس عاصمة للدولة الإسلامية عاد إلى عاصمته الصغيرة[3].

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص76.

(2) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج3، مصدر سابق، ص604.

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص76.

إن الخليفة لم يغادر بيت المقدس للأمر الذي ذكره "ديورانت" حسب ما ورد في بعض الكتب التي أطلعت عليها، وفيما يبدو أن عمر بعد انقضاء أيام عاد إلى الجابيه لمناقشته ومشاورته في أمور المسلمين، وتنظيم ما تم فتحه[1]، لم يعد هناك داعٍ لبقائه هناك حيث أن مركز الدولة الإسلامية في المدينة يحتاج إلى وجوده فيه حينها، أما الموضع الذي أقام فيه المسجد لقد ذكر، ذلك "الواقدي"[2] إذ قال: "لقد حط عمر مسجده إلى الجنوب الغربي من الصخرة وصلى أصحابه صلاة الجمعة، وكان البناء من الخشب"[3].

ويعود "ديورانت" إلى بعض البلدان التي تم فتحها عنوة مما جعل المسلمين يملكون أرضها ويقسمونها، ولكن عمر لم يسمح لهم بذلك، ونهاهم عن شراء الأراضي واستملاكها وفلحها[4].

لقد نهى عمر عن تمليك هذه الأراضي وفلحها لأنه استنبط ببصيرته النفاذة حقوق المسلمين والأجيال القادمة في هذه الأراضي فجعل خراجها لبيت مال المسلمين مع بقائها في يد أربابها ليحفظ بذلك حق المسلمين الذين نصت عليهم الآية التي استلهم منها "عمر" هذا المعنى، وهي قوله تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال، الآية 41].

غير أن "ديورانت" رأى خلاف ذلك حيث يزعم أن عمر قد نهى عن شراء وفلح الأرض لكي يحتفظ الجنود بصفاتهم القتالية، ولعل عمر كان يخشى حدوث هذا الشيء من جهة أخرى؛ لأنه عندما يتحول الفاتحون إلى فلاحين فإن قدرتهم

---

(1) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج3، مصدر سابق، ص611.

(2) هو محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلامي بالولاء المدني أبو عبدالله الواقدي من أقدم المؤرخين في الإسلام له "المغازي النبوية" أخبار مكة، ينظر الموسوعة العربية العالمية، مصدر سابق.

(3) شفيق جاسر أحمد محمود، الفتح العمري للقدس نموذج للدعوة بالعمل والقدرة، سنة 1404هـ، ص193.

(4) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص77.

القتالية قد تذهب لاسيما وهم مقبلون على مواجهة الفرس في الشرق والبيزنطيين في الغرب.

وقد رأى "ديورانت" أيضاً أن هذه الأوامر التي وضعها عمر قد أُغفلت بعد موته، بل إنها كاد يقضي عليها سخاؤه في أثناء حياته كلها وذلك على حد زعمه بسبب توزيع أربعة أخماس الفئ على الجيش، واعطاء بيت المال الخمس الباقي[1].

إن ما حدث من فتن بعد وفاة الخليفة "عمر" كان هو السبب في ذلك حيث حصل تغيير في عدة أمور على صعيد الحكم، وتقسيم الأموال وكل هذا كان بسبب ظهور طائفة (الخوارج)، ولا يعود ذلك إلى سخاء "عمر" الذي زعمه "ديورانت" حيث ذكر سابقاً أنه كان شديد التقشف، وكما أنه لا يعود إلى تقسيم الغنائم لأن هذا التقسيم نزلت به الآية السابقة من سورة الأنفال، وهو ما كان يعمل به الرسول (ﷺ).

ولا زال "ديورانت يموج في بعض أفتراءاته وهذه المرة على بعض الصحابة حيث زعم أن الصحابيين الجليلين "الزبير بن العوام" و"عبدالرحمن بن عوف"[2] قاما بجمع معظم ثرواتهم من هذا المال، مما جعل أشراف قريش يشيدون القصور الفخمة في مكة والمدينة، فكان (الزبير) يمتلك بيوت في عدة مدن مختلفة، ويمتلك ألف جواد، وعشرة آلاف رأس من الضأن، وأربعمائة ألف دينار (1,912,000)دولار.

إذا كان "الزبير" و"عبدالرحمن" يمتلكان كل هذه الثروات كما يقول "ديورانت" هل من الممكن أن يجمعا هذه الأموال من بيت مال المسلمين؟.

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص77.

(2) هو عبدالرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبدالحارث، الزهري القرشي، صحابي، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، واحد الستة أصحاب الشورى الذين جعل عمر الخلافة فيهم، وأحد السابقين إلى الإسلام شهد المشاهد كلها مع الرسول (ﷺ) كان تجاراً فاجتمعت له ثروة كبيرة، وتصدق يوماً بقافلة فيها سبع مائة راحلة، ولما حضرته الوفاة أوصى بألف فرس وبخمسين ألف دينار توفى سنة 32هـ ""ينظر الإعلام للزركلي، مصدر سابق.

أولاً: إن هذين الصحابيين الجليلين من أول الناس إسلاماً، ومن العشرة المبشرين بالجنة فيستحيل أن تذهب فيهم شهادات النبي (ﷺ) سدىً، وسنرى ما هو المصدر الذي جمع منه الصحابيان ثرواتهما.

لم يكن "الزبير" و"عبدالرحمن" وحدهما أصحاب الثراء في ذلك الوقت بل كان هناك غيرهما أصحاب أموال فعلى سبيل المثال يُذكر أن "زيد" قد خلف من الفضة والذهب ما يُكسر بالفؤوس، وغيره كثير، وأما مصدر أموال "الزبير" لقد ذكرت المصادر أن "الزبير" كان كثير التجارة والأموال والعبيد والخيل والبيوت التي ذكرها "ديورانت" وحتى قبل الإسلام، كان "الزبير" تجاراً وكان العرب وخاصة أهل مكة تجاراً وأغنياء[1]، ومما يؤكد على المصدر التجاري لهذه الأموال أن "الزبير" كان يأتي إليه الخراج من ألف مملوك لديه، وما كان يدخل إلى بيتيه منها درهما واحداً، وكان يتصدق بذلك كله، وإذا كان مصدر هذه الأموال هو ما يزعمه "ديورانت" ما كان ليتصدق بها في سبيل الله؛ لأن شدة حب المال هي ما جعلته يجمعها بالطريقة التي يزعم "ديورانت" وبالتالي فإن هذا الحب للمال سوف يمنعه حتماً من التصدق بها في سبيل الله.

وكما أن "عبدالرحمن بن عوف" هو الآخر كان عظيم التجارة والمال وكثير الإنفاق والصدقة شأنه شأن "الزبير" وكان "عبدالرحمن" هو صاحب السبعمائة من العير والتي هزت المدينة عندما دخلتها وكانت محملة بالبر والدقيق، والطعام، والتي ربما تقدر اليوم بالآلف، ولكن هذا لم يمنعه من التصدق بها دفعة واحدة في سبيل الله فقال: لأمه "اشهدي يا أُماه أني اشهدك أنها بأحمالها وأحلالها في سبيل الله عز وجل"[2].

---

(1) ابن الأثير الإصابة في معرفة الصحابة، ج1، تحقيق عادل احمد الرفاعي، دار أحياء التراث العربي، بيروت، سنة، 1417هـ، 1996، ص377-378.

(2) ابن الأثير، الإصابة في معرفة الصحابة، ج2، مصدر سابق، ص210.

لو أحصينا ما تصدق به هذان الصحابيان لوجدناه أكثر مما ذكرنا بكثير غير أن الوقت لا يسعفنا لذكر ذلك وبعد الذي ذكرناه ينتقل بنا "ديورانت" إلى المرحلة الأخيرة من حياة الخليفة "عمر" وهي مقتله وهو يصلي بالمسلمين صلاة الفجر كعادته، وقد طعنه مولى[1] فارسي وهو يؤم الصلاة في المسجد (644م) ولم يستطع "عمر" وهو على فراش الموت أن يقنع عبدالرحمن بان يتولى الخلافة من بعده فعين ستة من زعماء المسلمين ليختاروا من يخلفه، فوقع الاختيار على "عثمان"[2].

وبعد ما انتهى عمر من تسوية صفوف المسلمين بدأ مكبراً للصلاة وإذ "بأبي لؤلؤة المجوسي" يسدد لعمر" عدة طعنات بخنجر مسموم فقطع أمعاءه وسقط مغشياً عليه، ومع عدم ظهور السبب الذي جعل "أبا لؤلؤة" يقتل "عمر" إلا أن كتب السيرة والتاريخ تؤكد بوجود مؤامرة دُبرت، ومن خلال القراءة لبعض الأحداث يتبيَّن أن قتل "أبا لؤلؤة" "لعمر" وقتله لنفسه بعد ذلك مباشرة دليلً على عزم "أبا لؤلؤة" عدم إظهار من تآمر معه[3].

أما ما يدعيه "ديورانت" عن محاولة "عمر" لإقناع عبدالرحمن بالخلافة بعده فهذا لم ياتِ ذكره في كتب السير والتاريخ التي اطلعت عليها، وما جاء فيها أن "عمر" أوصى بحصر أمر الخلافة في النفر الستة الذين أشار إليهم "ديورانت" وهم عثمان بن عفان و"علي بن أبي طالب" و"طلحة بن عبيد الله" و"الزبير بن العوام" و"سعد بن أبي وقاص" و"عبدالرحمن بن عوف" وقد قيل إن هؤلاء هم الستة الذين

---

(1) هو أبي لؤلؤة الفيروزي اسمه "فيروز" فارسي الأصل من سبى نهاوند كان عند المغيرة بن شعبة مجوسي الديانة قتل الخليفة عمر بن الخطاب بسبب حقده على عمر وعلى الإسلام لأن عمر هو الذي أسقط مملكة فارس. "ينظر موقع ويكيبيديا الحرة".

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص77.

(3) الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، نقلاً عن موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي، ج1، المصدر، المكتبة الالكترونية، مصدر سابق، ص53.

توفى رسول الله (ﷺ) وهو عنهم راضٍ، وقد تحرَّج "عمر" أن يجعلها لواحد منهم على التعيين[1].

(1) ابن كثير البداية والنهاية، ج7، مصدر سابق، ص145.

المبحث الثالث
بداية الصراع وحدوث الفتنة عند ول ديورانت

خلافة عثمان 23هـ :-

تولى "عثمان" الخلافة بانتخاب من الصحابة وعن رضً منهم ولا يجب لأحد أن يشك في هذا الأمر، ولا الطعن فيه؛ لأن الذي يحاول التشكيك في مثل هذا الأمر ليس لديه دليل سوى حقده الدفين على صحابة الرسول (ﷺ) الأخيار الأبرار لذلك لا تجد لهذه الشكوك أية قيمة تُذكر أمام الأدلة القطعية المذكورة في القرآن والسنة ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾ [النور، الآية 55].

فمن أوجه الاستدلال في هذه الآية أحقية "عثمان" رضي الله عنه بالخلافة كونه من بين الذين استخلفهم الله في الأرض، ومكن لهم فيها، وسار في الناس أيام خلافته سيرة حسنة، حيث حكم فيهم بالعدل وإقامة الصلاة وأتي الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يخرج "عثمان" عما نصت عليه الآية السابقة، وبالتالي فإن استخلافه كان أمراً مستحقاً مفروغاً منه.

مناقب عثمان:-

من جانبه أدلى "ديورانت" ببعض الخصال التي وصف بها "عثمان" حيث رأى فيه العديد من الخصال الطيبة فقال: كان "عثمان" شيخاً مسناً "طيب القلب حسن النية" أعاد بناء مسجد المدينة وجمّله، وقد أعان بما له الخاص جيوش

المسلمين الذين نشروا الإسلام في هيران، وكابل، وبلخ، وتفليس، وفي ربوع أسيا الصغرى حتى البحر الأسود[1].

إن المصادر التاريخية التي أرخت لسيرة "عثمان" قد أجمعت له بسماحة النفس، ورقة المشاعر، بالإضافة إلى حسن الخلق والكرم وشدة الحياء وحب الناس له في جاهليته وإسلامه[2]، ولهذا لم نلاحظ لدى "ديورانت" بعضاً من الشبهات، والعبارات التي اعتاد على استحضارها دائماً عند سرده لأحداث السيرة وغيرها، ولم يستطع أن يأتي إلا بما جاءت به المصادر التاريخية الإسلامية.

وأما أعماله الكريمة والتي يذكر"ديورانت" من ضمنها بناءه للمسجد وتجهيز جيش المسلمين، فهي أكثر من أن تحصى، وما حل بالمسلمين من كرب أو محنة إلا و"عثمان" كان في مقدمة من يتصدقون بأموالهم عن "أبي عبدالرحمن"[3] أن "عثمان" رضى الله عنه، حين حوصر أشرف عليهم، وقال: "الستم تعلمون أن رسول الله وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ قال: "من جهز جيش العسرة فله الجنة" فجهزتهم، قال: فصدقوه بما قال[4].

وعندما تولى " عثمان" الخلافة ازداد انتشار الإسلام في الأقطار، ومن بينها ما ذكره "ديورانت" مثل قبرص، وأرمينيا، وبلاد السند، وكابل، وفرغاثة، وبلخ، وهراة، وخرسان، وباب الأبواب.

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص77.

(2) الموسوعة، الموجزة في التاريخ الإسلامي، نقلاً عن موسوعة نصر للتاريخ الإسلامي، ج1، المصدر المكتبة الألكترونية، مصدر سابق، ص108.

(3) هو أبوعبدالرحمن عبدالله بن حبيب السلمي الكوفي، أحد أئمة الإسلام ومشايخهم، ممن رغب في هذا المقام فقعد يعلم الناس من إمارة عثمان حتى أيام الحجاج سعيد. "ينظر الموسوعة الالكترونية، مصدر سابق".

(4) أخرجه البخاري، كتاب الوصايا، باب إذا وفق أرض ابئر، واشترط لنفسه مثل، دلاء المسلمين، رقم (2778).

بداية الصراع:

ها هو "ديورانت" يعود إلى شبهاته من جديد ويحاول أن يأتي بشبة جديدة للفتنة التي حدثت إبان خلافة "عثمان" وتتمثل هذه الشبهه على حد زعمه في شدة ولاء "عثمان" لأشراف بني أمية، الذين كانوا أشد أعداء النبي (ﷺ) في بداية الدعوة لذلك استغل بنو أمية قرابتهم للخليفة، ولم يستطع الخليفة بدوره رد مطالبهم فأعطى أكثر من عشرة منهم بعض المناصب المجزية مما جعل أصحاب المناصب يسخرون من أتقيا المسلمين الأمر الذي جعل المسلمين ينقسمون إلى طوائف متباغضة شديدة العداء فالمهاجرين ضد الأنصار، وأهل مكة ضد دمشق، والكوفة، والبصرة، وبنو هاشم ضد بني أمية، وعلى رأسهم "معاوية بن أبي سفيان" أشد أعداء النبي في بداية الدعوة[1].

أولاً: إن هذه الفتنة التي حصلت زمن خلافة "عثمان" ليس بالأمر الغريب، وهي سابقة على كل الإفتراءات التي يتشدق بها أولئك المستشرقون؛ لأن الرسول (ﷺ) قد أخبر بفتنة ستحدث وقد خص فيها "عثمان" في أنه صاحب البلوي فيها.

ثانيا: أن تولية عثمان لبني أمية لم يكن بالأمر الجديد في خلافته وحدها بل إن "عثمان" كان متأسياً في ذلك بالرسول (ﷺ) يقول "أبن العربي"[2] "واعجبا لاستنكار الناس ولاية بني أمية، وأول من عقد لهم الولاية رسول الله (ﷺ)، فإنه ولي يوم الفتح " "عتاب بن أسد بن أبي العاص بن أمية"[3] مكة حرم الله وخير بلاده،

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص78.

(2) هو محمد بن عبدالله المغافري أبو بكر ابن عربي، إمام من أئمة المالكية له العديد من المؤلفات منها "الانصاف" "المحصول" في أصول الفقه "أحكام القرآن" "العواصم من القواصم"، توفي بمراكش،ينضر الموسوعة العربية العالمية، مصدر سابق.

(3) هو عتاب بن أسيد بن أبي أمية أبن عبد شمس أبو عبدالرحمن، من الصحابة كان شجاعاً عاقلاً من أشراف العرب أسلم يوم فتح مكة، واستعمله النبي (ﷺ) عليها عند مخرجه توفى في اوائل سنة 3هـ،، ينظر الإعلام للزركلي، مصدر سابق.

واستكتب "معاوية بن أبي سفيان"[1] أميناً على وحيه، ثم ولي "أبو بكر" أخاه "يزيد بن أبي سفيان"[2] الشام وما زال بعد ذلك يتقول المتقولون عن تولية عثمان لبني أمية ويتخدون منها مطية لشبهاتهم، وهؤلاء هم ولاة رسول الله (ﷺ) وولاة أبي بكر و"عمر" من بعده، وأن ما يدعيه "ديورانت" لا أساس له من الصحة.

وربما هناك بعض الأسباب التي كانت وراء هذه الفتنة، وإن لم تكن هي المحرك الأساسي لها فإنها قد تعد من الأسباب الثانوية، وليس الأساسية، وهي:

1- إقبال الناس على الدنيا بعد الفتوحات بالإضافة إلى ضعف تربية الأجيال الحديثة التي دخلت الإسلام.

2- ظهور بعض العصبيات الجاهلية في قبائل العرب.

ومع دور هذين السببين في تحريك الفتنة؛ فإنه لم يحدث بسببهما أي فتنة أو قتال إلا عندما بدأ تفعيل السبب الرئيس، والذي كان وراءه اليهود وبعض الفئات الأخرى المعادية للإسلام، وهذا ما يؤكد عليه "ديورانت" حيث يقول: عن هذه الفتنة أن رجلاً يهودياً ممن اعتنقوا الإسلام أخذ يدعو في البصرة إلى عقيدة ثورية مضمونها أن النبي (ﷺ) سيبعث حياً، وأن "علياً" أحق الناس بالخلافة، وأن "عثمان" لاحق له فيها، وقد اختار مجموعة من الخارجين على الدين، وعندما لم تجد دعوته هذه قبولاً في البصرة انتقل إلى الكوفة، وعندما لم تقبله الكوفة انتقل إلى مصر حيث وجدت دعوته آذاناً صاغيه، واعتنقها كثيرون وخرج من مصر إلى المدينة خمسمائة من المسلمين وطلبوا إلى "عثمان" أن يعتزل الخلافة، فلما أبي حاصروا بيته ثم اقتحموا عليه حجرته وقتلوه وهو يتلو القرآن[3].

---

(1) هو معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموى موسس الدولة الأمويه كان من دهاة العرب أسلم يوم فتح مكة، وتعلم الكتابة فجعله رسول الله (ﷺ) في كتابه، ولما تولى أبو بكر ولاة قيادة جيش تحت إمرة أخيه يزيد، "ينظر الإعلام للزركلي، مصدر سابق.

(2) مصطفى مراد، الخلفاء الراشدون، مصدر سابق، ص483.

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص78.

من هنا نستطيع أن نقول: أن السبب الرئيس لهذه الفتنة وتأجيج نيرانها كان وراءه التخطيط اليهودي المحكم والذي كان الأداة الفاعلة في تنفيذه اليهودي "عبدالله بن سبأ"[1] ولاحظنا كيف أشار "ديورانت" بوضوح إلى الدور الفاعل الذي قام به "ابن سبا" وهو ينتقل بين الأمصار في نشر تلك الدعوة والعقيدة الباطلة، وقد استطاع أن يقنع الفئة الغاضبة من قتلة "عثمان" والتي أقيم عليها الحد حيث كان هؤلاء من اللصوص وقطاع الطرق[2] ناهيك عن مساندة المنافقين من اليهود والنصاري والمجوس الذين كانوا موالين لدعوة ابن سبا وعندما حاصر المنافقون بيت "عثمان" وطلبوا منه التنحي رفض ذلك ؛لأن الرسول (ﷺ) قد أوصاه بعدم تركه للخلافة إذا طلب منه هؤلاء المنافقون والثائرون ذلك، فعن "عائشة" رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. "يا عثمان أن ولاك الله هذا الأمر يوماً". "يعني الخلافة" "فأراد بك المنافقون أن تخلع قميصك الذي قمصك الله فلا تخلعه"[3] يقول: ذلك ثلاث مرات وكما يقول "ديورانت" لقد قتل "عثمان" رضي الله عنه وهو يقرأ القرآن، وقد سقط دمه على قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة، الآية 137].

خلافة عليّ:-

بعد مقتل "عثمان" روُعت المدينة الإسلامية بهذه الفاجعة، وعم الهلع والرعب بين الناس جراء ما ارتكبه هؤلاء الأشرار، مما جعل "ديورانت" يقول: لم يتبقَّ أحد من زعماء بني أمية في المدينة، وعندها بايع بنو هاشم "عليا" خليفة للمسلمين[4].

---

(1) هو عبدالله بن سبأ، يهودي من صنعاء، تنسب إليه السبئية، وهو من الغلاة الرافضة، أسلم ووالى علي بن أبي طالب. "ينظر موقع ويكبيديا الحرة".

(2) ابن الأثير الكامل في التاريخ، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، ج2، ط الأولى، دار الكتاب العربي، بيروت، سنة 1417هـ، 1997، ص526.

(3) اخرجه الترمذي ج3، ص160 وقال هذا حديث حسن غريب، وأخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب فضل عثمان ج1، ص71، وأخرجه احمد في المستدرك، ج1، ص86-88.

(4) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص78.

لم يعيّن "عليٌ" خليفة للمسلمين عن طريق المبايعة كما يزعم الأخير، بل إن قتلة "عثمان" هم من عرض الخلافة على كبار الصحابة، وعند رفض الصحابة لذلك توعدهم الأشرار بالقتل، إزاء رفضهم مما جعل "عليا" يتخذ هذا الموقف حتى تستقر الأمور، وبعد ما ألح عليه كبار الصحابة ليتولى هذا المنصب قبل علي الخلافة نزولاً لرغبة هؤلاء الصحابة[1].

وعندما تولى "عليٌ" الخلافة كان شديد التواضع والتقوى والنشاط والإخلاص للدين، أصلع الرأس ممتلئ الجسم لطيف المعشر محسنٌ كثيرٌ التفكير[2].

إذن قد وصف" ديورانت" "عليا" بالصفات التي ذكرناها آنفاً، فإن كتب السيرة، تقول عن فضائله، بأنه لم يترك فضيلة من الفضائل إلا وتحلى بها فبلغ المنتهي في العلم والعمل والإخلاص والورع والجهاد والدعوة والبر وحسن الخلق والعبادة والزهد في الدنيا مع القدرة عليها[3].ومن أولويات المطالب لبعض الصحابة هي الاقتصاص من قاتلي "عثمان" غير أن "ديورانت" يرى أن علياً قد تباطأ في ذلك فتمكنوا من الفرار[4].

لقد كان "عليٌ" حريصاً على القصاص من هؤلاء القتلى أكثر من حرص الصحابة على ذلك غير أنه رأى بأن الوقت ليس مناسباً لذلك لأن الأشرار كانوا مسيطرين على المدينة حينها، ولا يستطيع "عليٌ" أن يقتص منهم، فطلب التهدئة وقال: للصحابة "ويا أخوتي إني لست أجهل ما تعلمون ولكن كيف أصنع بقوم

---

(1) موسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، نقلاً عن موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي، مصدر سابق، ص130.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص78.

(3) الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، نقلاً عن موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي، مصدر سابق، ص130.

(4) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص78.

يملكوننا ولا نملكهم"[1]. ويقصد بذلك هؤلاء الأشرار الذين كانوا يسيطرون على المدينة حينها.

ويذكر "ديورانت" أن بعض السياسات التي اتبعها "عليّ" أثناء خلافته غير مجدية مثل عزله لولاة "عثمان" والذين رفض بعضهم ذلك، بل إن "معاوية" لم يكتفِ بالرفض وحده وأخذ بقميص "عثمان" الملطخ بالدماء ونشره في دمشق.

إن رفض "معاوية" لهذا الأمر لم يكن من أجل أمر دنيوي كما يتوهم "ديورانت" بل إن معاوية كان يسعى إلي ما يسعى إليه كبار الصحابة وهو القصاص من قتلة "عثمان"، ولذات السبب كان "علي" يريد عزل "معاولة" لأن في بقاءه إفساد الأمر بين أنصار "علي" الصادقين، وبين قتلة "عثمان" الذين كان يراودهم "علي" ويروضهم حتى يتمكن من الإمساك بهم، ومن جانب آخر أن معاوية كان يقضي بعض الأمور دون الرجوع إلي "علي" وقد سعى "علي" لعزله من منصبه قبل تولي الخلافة لذات الأمر، وقد أشار إلى عثمان بذلك لأنه عندما قتل "عمر" لم يعد "معاوية" يرجع إلى أحد فيما يقضيه، لأنه كان يخشى من عمر لذلك تجد "علياً" يقول: عنه دائما "إن معاوية كان أخوف لعمر بن الخطاب"[2] ولعل هذا كان من بين الأسباب التي جعلت "معاوية يرفض مسألة عزله وعندها حصل ما كان يخشاه "علي" وهو مبايعة أنصار "علي" الصادقين لمعاوية مع مبايعة القتلة له.

في هذه الأثناء من الانشقاقات يقول "ديورانت" خرج على "عليّ" "طلحة" و"الزبير" من أصحاب رسول الله (ﷺ) وطالباهُ أيضاً بالخلافة، وخرجت عائشة زوج النبي (ﷺ) من المدينة إلى مكة، وانضمت إلى الثوار، وعندما لحق أهل البصرة

(1) الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، نقلاً عن موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي، مصدر سابق، ص133.

(2) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج3، تحقيق عمر عبدالسلام التدمري، ط الثانية، دار الكتاب العربي، بيروت، سنة 1413هـ، 1993م، ص537.

بالثائرين، طلب علىٌ المدد من أهل الكوفة الأشراس في القتال، وقد وعدهم باتخاذ "البصرة" عاصمة للدولة الإسلامية إذا استجابوا لطلبة[1].

إن الأحداث التي يسوقها "ديورانت" تخلو من الدقة والتمحيص، والتجاهل لبعض الأمور التي كانت السبب في زرع هذه الفتنة، وحيث إن "طلحة" و"الزبير" لم يخرجا علىَ "عليّ" وكل ما في الأمر أن "عائشة" أم المؤمنين حينما ما سمعت بمقتل "عثمان" مظلوماً أعلنت سخطها على القتلة فطالبت بالقصاص منهم، وإصلاح ما أفسده هؤلاء القتلة الثائرين من انتهاك للحرم المكي، والأموال، ولأجل مصلحة الأمة وسد الفتنة رأى "طلحة" و"الزبير" ما رأته "عائشة" فتوحدوا، وأنظم إلى عائشة حوالي ألف مقاتل، وفي هذه الأثناء كان أمير المؤمنين يتأهب للخروج إلى الشام لقتال "معاوية" فاضطر إلى تغيير الخطة، فأرسل إلى معسكر "عائشة" و"طلحة" و"الزبير" حتى يعرف ما يريدون فقالت "عائشة" خرجنا نصلح بين الناس ونطالب بدم "عثمان" فطلب منهم "علي" التهدئة، وتجديد البيعة له ومقابلته للتفكير والحوار معاً فيما يصلح آمر الأمة فقبلوا ذلك.

معنى ذلك أن الجميع قد خرجوا للإصلاح وسد الفتنة كلا على حسب اجتهاده، وإلى حد هذه الخطة لم يحدث بين الطرفين أي اختلاف كأن يكون على سلطة أو ما شابه ذلك، وعندما توحد الهدف الذي خرجوا لأجله استقر أمرهم وطلبوا البحث معاً لتحقيق ذلك.

موقعة الجمل:-

علينا أولاً أن نقف على بعض الأسباب التي تجاهلها "ديورانت" والتي أفسدت ما اتفق عليه الطرفان وهي:

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص79.

أولاً: أن أتباع "ابن سبا" الذين قتلوا "عثمان" كانوا في معسكر "علي" وهم من أفسد الاتفاق حيث عقد لهم "ابن سبا" مؤتمراً سرياً يدبرون فيه مكيدة، فأشار بعضهم بقتل "علي" غير أن "ابن سبأ" لم يعجبه ذلك لأنه يريد معركة طاحنة يقتل فيها أكبر عدد من المسلمين.

ثانياً: وبعد تفكير طويل من "ابن سبا" وأتباعه لم يجدوا أمامهم إلا الهجوم على معسكر عائشة ليلاً وبدون علم أو موافقة "علي"[1] وبذلك توصلوا إلى ما كانوا يسعون إليه من فتنة وقتال بين الطرفين فحصل ما حصل.

يقول "ديورانت" التقى الجيشان جنوب العراق في واقعة الجمل، وسميت كذلك لأن "عائشة" كانت تحرض على القتال من هودجها فوق الجمل، وهزم "طلحة" و"الزبير" وقتلا وردت "عائشة" إلى بيتها معززة مكرمة، ونقل "عليّ" العاصمة إلى الكوفة القريبة من موقع بابل القديمة[2].

ليس المهم لمن يكون النصر ولكن المهم هو ما لم يذكره "ديورانت" أيضاً وهو أن "عائشة" رضي الله عنها، "وعلي" "وطلحة" "والزبير" أدركوا بعد نهاية المعركة أن الأمر مدبر من قتلة "عثمان"؛ لأن الصلح بين الطرفين يعني لهم القصاص منهم، وعندما رأى "عليٌ" "الزبير" ناداه وكلمه فرجع عن القتال عندما ذكره بحديث الرسول (ﷺ) "تناجيه فوالله ليقاتلنك وهو لك ظالم"[3] وقتل "طلحة" بسهم مسموم بعد انسحابه من المعركة، وحاول السبيئون قتل "عائشة" فتجمع جيش البصرة حول الجمل فحموه، وأمر "علي" أن يُحمل الهودج من بين القتلى، ولما انتهى إليها قال: كيف أنت يا أماه، قالت بخير قال: يغفر الله لك قالت – ولك[4] انظر كيف غض "ديورانت عينه

---

(1) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج3، مصدر سابق، ص478.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص79.

(3) أخرجه الحاكم في المستدرك، ج3، ص366، وصححه ووافقه الذهبي.

(4) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج3، مصدر سابق، ص524.

عن دسائس وتربص "ابن سبا" واتباعه بالمسلمين وحرصهم على هذه الفتنة، محاولاً بذلك أن يجعل الأمر نزاعاً بين المسلمين من اجل سلطة أو مال أو غيرها مستبعداً كل الأطراف الأخرى.

معركة صفيّن 37هـ:-

قام "معاوية" بتجهيز قوة أخرى لقتال "عليّ" وكان "معاوية" خبيرٌ بشؤون الدنيا غير متزمت في الدين، وكان يرى في الدين بديلاً من الشرطة أقل منه نفقة ولكنه لا يصح أن يكون حائلاً بينه وبين الاستمتاع بطيبات الحياة، ويضيف "ديورانت" إلى ذلك أن "معاوية " كان يسعى إلى إعادة الأقلية المصطفاة من قريش إلى السلطة والزعامة اللتين كانتا لها من قبل أيام النبي (ﷺ)[1].

لقد اتخذت القضية منحي سياسياً بين الأطراف المتناحرة ولكن ليس بالمعنى الذي يصوره "ديورانت" ففي البداية كان "معاوية" يريد القصاص من قتلة "عثمان" وطلب من "عليّ" تسليمهم له، غير أن "عليا" لم يكن بمقدوره فعل ذلك كما أشرنا سابقاً، ومن هنا كانت نقطة الخلاف بين الاثنين مما جعل "معاوية" يسعى إلى السلطة من أجل القصاص من هؤلاء القتلة، ولو كان "معاوية" يرى في الدين بديلاً من الشرطة كما زعم "ديورانت" لما أقرَّ بأحقية "علي" في الإمامة وأفضليته، فقد دخل جماعة على "معاوية" فقالوا: له هل تنازع "علياً أم أنت مثله؟ فقال: "والله أني لأعلم أنه خير مني وأفضل وأحق بالأمر مني، ولكن ألستم تعلمون أن "عثمان" قتل مظلوماً، وأنا ابن عمه، وأنا أطلب بدمه وأمره إليَّ؟ فقولوا له فليسلم إلى قتلة "عثمان" وأنا أسلم له أمره، فأتوا "عليا" فكلموه في ذلك فلم يدفع إليهم أحداً، ليس لأنه لا يريد، ولكن لأنه لا يستطيع أن يدفع بأحد، ولو كان الأمر بيد "علي" لاقتص من هؤلاء

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص79.

الأشرار منذ توليه الخلافة، ولأن "عليا" لم يدفع بأحد إلى "معاوية" انظم أهل الشام إلي معاوية ليقاتلوا معه[1].

وقبل نشوب المعركة أعاد "علي" ترتيب جيشه والتقى الجمعان عند صفين على نهر الفرات، وكان "عليٌ" هو الأقرب إلى النصر لولا أن "عمرو بن العاص" قائد جيش "معاوية" رفع المصاحف على أسنة الرماح طالباً تحكيم كتاب الله، وقد رضي "علي" بذلك لإلحاح جنوده، وعيّن الحكمان وحدد لهما مدة ستة أشهر ليفصلا في النزاع، ويعود الجنود فيها إلى بيوتهم[2].

لقد دارت معركة طاحنة بين الطرفين قتل فيها من الجانبين نحو سبعين ألفاً، ولما رأى الناس كثرة القتلى من الجانبين أصبح أهل العراق يصيحون في أهل الشام قائلين: من لثغور العراق إن قتل أهل العراق، ويردد الآخرون من لثغور الشام إن قتل أهل الشام، وعندها تم رفع المصاحف من قبل جيش "معاوية" وطلب التحكيم من عند "عمرو بن العاص" وقبل الطرفان بالتحكيم وبعد ستة أشهر من المباحثات لحل النزاع توصل الحكمان إلى نتيجة، وهي عزل "علي" عن الخلافة، ورد الأمر إلى الأمة لتختار خليفة لها غير أن "علياً"، قد رفض ذلك واعتبر أن الحكمين تجاوزا حدودهما لأن محور الخلاف لم يكن من أجل منصب الخلافة، وإنما من أجل إقامة الحد على قتلة عثمان، وبيعة معاوية له[3].

ظهور الخوارج:-

لقد واجهت "علياً" مشكلة جديدة بالإضافة إلى مشكلة القتلة الثائرين، ومشكلة "معاوية" ومطالبته بدم "عثمان" وهذه المشكلة تتمثل في ظهور فرقة الخوارج.

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، ج8، مصدر سابق، ص132.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص79.

(3) المصدر نفسه، ص71.

يقول: "ديورانت" خرج بعض الرجال على حكومة "علي" بعد واقعة صفين، وألفوا منهم جيشاً مستقلاً وسموا "بالخوارج" وأظهروا مقولة أن الخليفة "يجب أن يختاره الشعب وأن يكون من حقه أن يعزله"، وكان بعضهم الآخر فوضوي يرفض كل حكومة ما عدا حكومة الله[1]، وقد حاول علي جاهداً أن يعيد هم تحت لوائه بالحجة والإقناع فلم يفلح، وعند ذلك استفحل أمرهم، وأقاموا الفوضى من خلال محاولتهم الإخلال بالنظام حاول "علي" دعوة أنصاره لمحاربة "معاوية" من جديد غير أن جيش "على قد سئم الحرب، وانقسم إلى شيعة منهم من رأى ما رآه امير المؤمنين، ومنهم من خرج عن رأيه، واعتبر أن التحكيم خاطئاً، ووصل الأمر من بعضهم إلى اتهام "علي" بالكفر "حاشا لله" وقد تكون هذه الفرقة هي امتداد لفرقة السبيئة غير أنها حاولت تغيير مخططها هذه المرة، وهم يستندون إلى عقيدة تقول: لا حكم إلا لله وقد صدق رسول الله (ﷺ) حين قال: تمرق مارقة علي حين فرقة من الناس وفي رواية من أمتي فيقتلها أولى الطائفتين بالحق[2].

ولم يكتفِ هؤلاء الخوارج بذلك بل طلبوا من "علي" أن يعلن كفره ويتوب ويسلم من جديد، حتى يعودوا إليه ويقاتلوا معه، فإذا لم يفعل ذلك فسوف يقاتلونه، وكان "عليٌ" مما رد به على تلك العقيدة الباطلة للخوارج قوله "كلمة حق أريد بها باطل".

ولكن "عليا" لم يسكت على هذا الأمر، وهذا ما يؤكده "ديورانت" حيث قال: فلم يسع "علياً" إلا أن يعلن عليهم الحرب، ويفرق شملهم "أي الخوارج" وفي وسط هذا الاضطراب هجم رجل من الخوارج على "علي" فطعنه في رأسه بسيف مسموم عام

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص71.

(2) هذا الحديث له عدة روايات منها قوله (ﷺ) تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين يقتلها أولى الطائفتين بالحق وفي رواية "تكون في أمتي فرقتان فتخرج من بينهما مارقة يلي قتلهم أولاهم بالحق" أخرج هذه الروايات مسلم، كتاب الزكاة، باب التحريض على قتل الخوارج، ج7، ص168.

"661م" واتخذ من المكان الذي دفن فيه مكان تحج إليه كما تحج سائر المسلمين إلى مكة نفسها[1].

إن "عليا" قد أشار على قتالهم وشرع الجهاد فيهم فقال: قاتلوا من حاد الله وحاول أن يطفئ نور الله وقاتلوا الخاطئين، ولو ولوا عليكم يعملون فيكم بأعمال كسري، وهرقل، واستطاع "علي" إبادتهم والقضاء عليهم بالكامل، فلم ينجُ منهم سوى عدد قليل أقل من عشرة[2].

وهؤلاء العشرة لم يسكتوا عن مقتل أهلهم، فأخذوا يدبرون مكيدة لمقتل "علي" حتى أن قاتل "علي" قطع لنفسه عهداً لقتله أو الموت دونه، وبعد مشورة من معه جاء القاتل (عبدالرحمن بن ملجم) وجلس مقابل السدة التي يخرج منها علي للصلاة، وكان الناس قد أجمعوا للصلاة بعد خروج على من السدة كعادته بادر إليه أحد أصحاب "ابن ملجم" فضربه، ثم أكمل عليه "ابن ملجم" بالسيف على قرنه على رأسه كما قال "ديورانت" فسال دمه على لحيته ومات رضي الله عنه[3].

وأما خُصُّ قبر "عليّ" بالمزار على طريقة الحجاج كما يقول "ديورانت" فقد اختص بها الشيعة الإمامية من تخصيص التقديس لقبور الأئمة الأمر الذي يجعل له من التقديس والتعظيم، ما يفوق قبور الأنبياء والمرسلين، وخصوها بآداب لم يشرعها الشارع الإسلامي في حق الرسل، وجعلوا للزائر طقوس وأذكار وأوراد يقومون بها عند زيارتهم لقبورهم، ويكفينا هنا الإشارة إلى قبور الأئمة الاثنى عشرية "علي" والحسن، والحسين، وفاطمة، رضي الله عنهم[4].

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج13، الجزء الثاني من المجلد الرابع، مصدر سابق، ص71.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، ج7، مصدر سابق، ص299-300.

(3) الطبري، تاريخ الرسول والملوك، ج6، مصدر سابق، ص62.

(4) أنظر: الحلي، مفتاح الكرامة، كتاب الفرائض، ص17-35، نقلاً عن، مصطفى مراد، الخلفاء الراشدين، مصدر سابق، ص811.

لقد انتهت بمقتل الإمام "علي" مرحلة الخلافة الرشيدة التي سارت على النهج الذي سلكه الرسول (ﷺ)، وبعد انقضاء زمن الخلفاء بدأت زاوية الانحراف تظهر شيئاً فشيئاً.

نستخلص من دراستنا لمرحلة الخلفاء عند "ول ديورانت" انه قد تعرض لدراسة هذه المرحلة ونقل تفاصيلها بشيء يشبه إلى حد كبير ما تناولته بعض كتب السير والتاريخ فانطلق من المرحلة الأولى بعد وفاة الرسول (ﷺ) وما حدث فيها من خلافات عمَّن يتولى أمر المسلمين وخلافتهم الجديدة بالإضافة إلى اجتماع السقيفة وصولاً إلى اختيار أبي بكر، ومحاربته للمرتدين، وبعض الفتوحات التي قام بها، ثم وفاته وتوليته لعمر من بعده.

ولم يختلف الأمر كثيراً في المبحث الثاني حيث تعرض "ديورانت" لدراسة بعض من جوانب حياة (عمر)، وبعض من القضايا التي عالجها في حياته كالولاة وتعيين بعضهم وعزل البعض الأخر، بالإضافة إلى إعجابه بما عليه الفاروق من عدل وكرم وتعبد، غير أن هذا الإعجاب قابله إنكار لبعض الأحداث والقصص التي تأتي بذكرها كتب السير مثل قصة الدرة التي يحملها الفاروق، والقصاص من الخارجين عن الدين، وانشغاله بنشر الإسلام، ومع هذا الإنكار لمثل هذه القصص لقد أعطى "ديورانت" القدر الكبير للدور الذي لعبه الفاروق في الفتوحات الكبيرة التي حدثت أثناء خلافته، بالإضافة إلى ذلك فقد نوه على تعيين "عمر" لبعض الزعماء ليتولى أحدهم الخلافة بعد وفاته.

وذكر في المبحث الثالث، وجه التشابه بين "عثمان وعمر وخلافة الأول، والفتوحات التي وقعت في زمنه في الجبهتين الشرقية والغربية، وقد ذكر بعض مظاهر الترف التي يتمتع بها بعض الصحابة مثل "طلحة"و"الزبير" وقد جعل من مصدر هذا الترف "بيت مال المسلمين حاشا لله، ثم استرسل في ذكر ظهور الفتنة

التي بدأت من خلافته، والتي أشعل نيرانها "عبدالله بن سبا" كما يقول "ديورانت"، مما جعل له اتباعاً حتى استطاع أن يقتل عثمان وهو في بيته يقرأ القرآن.

وامتداداً للمبحث الثالث انطلقت الأحداث متتالية في نسق الفتن التي لم تهدأ نيرانها حتى بموت "عثمان وكانت هذه الفتن أشد وطأة على "عليٍّ" عند ديورانت وبدأت من المطالبة بدم "عثمان" ورفض بعض الولاة أمر عزلهم من الإمام "علي" وعلى رأسهم "معاوية بن أبي سفيان" الأمر الذي أدى إلى اندلاع المعارك بين الطرفين، كما خرجت "عائشة" هي الأخرى للمطالبة بدم "عثمان" وكاد علي أن يطفيء هذه الفتنة إلا أن "ابن سبا" واتباعه استطاعوا أن يشعلوها من جديد، وكما أشار "ديورانت" إلى موقعة الجمل وموقعة صفين، وظهور الخوارج، وانبثاق الشيعة عنهم، وقتلهم "لعلي" رضي الله عنه.

الخاتمـــــة

اهتممت في الرسالة بعرض آراء "ول ديورانت" في الإسلام في مبادئه وشخص الرسول محمد (ﷺ) وسيرته وفي القرآن الكريم وعصر الخلفاء الراشدين، ومن أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث الآتي:

1- لايوجد لدى "ديورانت" دليل ديني، أو عقلي أو منطقي يؤكد أدعاء محمد (ﷺ) للنبوءة من عنده إلا تأثره بالخرافات والأساطير اليونانية، وبعض الفلسفات الأخرى.

2- إن إعجاب "ديورانت" بشخصية النبي محمد (ﷺ) يرجع إلى أنه من أعظم وأشهر الشخصيات عبر التاريخ حيث أن "ديورانت" لم يكن الأول من بين المعجبين بالشخصية المحمدية، وليس الأخير، ومع هذا الإعجاب الشديد لكثير من هؤلاء المستشرقين إلا أنهم أرادوا تشويه سيرته في أكثر من حدث من خلال التشكيك في كثير من الأحداث في طفولته وأسلوب حياته، وتربيته، وأساليب نشر رسالته، على الرغم من اعتراف بعضهم المنصف بخلاف ذلك، إذ أن شكوك الطاعنين لم يكن وراءها سوى الحقد والتعصب الأعمى، فليس لديهم دليل مقنع.

3- إن إنكار "ديورانت" للنبوة في عمومها وعدم إيمانه بوجود المسيح يؤكد على إلحاده.

4- يكاد يكون هناك إجماع من قبل المستشرقين يرجح بشرية الرسالة الإسلامية وذلك لأن السبب في شبه إجماعهم يعود إلى أن الغاية من هذه الرسالة المصالح الشخصية للنبي محمد (ﷺ) زاعمين بأنه (ﷺ) أخذ رسالته من الديانتين المسيحية، واليهودية، وذلك للتشابه الحاصل بينهما إذ أن هذا التشابه

يؤكد على المصدر الإلهي الواحد الذي تنبع منه الديانات السماوية بقدر ما يؤكد على اختلاف الرسل والأزمنة التي بعثوا فيها، والكتب التي جاءوا بها.

5- إن التشكيك في مصدرية القرآن وجمعه وموثوقيته لدى "ديورانت" منبثق من التحريف الذي حصل للديانة المسيحية، واليهودية عندما قام القسيسون والرهبان بذلك، مما جعل "ديورانت" ينكر وجود المسيح أصلاً ناهيك عن تأثر الديانتين بالفلسفات التشاؤمية واليونانية مما جعله يخضع الرسالة الإسلامية (القرآن) إلى ذات المصير، وهذا المعيار لدى "ديورانت" يخرج عن ضوابط النقد والمقارنة الصحيحة.

6- على الرغم من تأكيد "ديورانت" على الدوافع الاقتصادية لإنجاح الفتوحات الإسلامية وغيرها من الحروب لم يستطع استبعاد الجانب الأخلاقي والديني كسبب من أسباب نجاح الفتوحات الإسلامية، مما يؤكد على اعترافه بالدور الكبير الذي لعبه العاملان للمساهمة في هذه الفتوحات بخلاف الحروب غير الإسلامية، والتي عادة ما يضع "ديورانت" في مقدمة أسباب نجاحها العامل الاقتصادي.

7- إن الحضارة الإسلامية جاءت مخالفة للحضارات الأخرى فلم تعتمد على الخرافات والأساطير اليونانية كما ادعى بعض المستشرقين المنكرين لوجود هذه الحضارة قبل الإسلام حيث زعموا بأنها مستمدة من الحضارة الغربية محاولين بذلك طمس الجذور التاريخية لهذه الحضارة قبل الإسلام، وطمس ما أخذوه عنها هم، وما أحدثته لهم من تغيير إبان العصور الأوروبية المظلمة التي سيطرت عليها الكنيسة والخرافات والفلسفات بشتى أنواعها.

8- إن الاهتمام بالدراسات الشرقية والإسلامية في الأوساط العلمية الغربية كان وراءه الحقد والطعن والإساء إلى الرسول (ﷺ) والإسلام والمسلمين إدراكاً منهم للخطر الذي يهددهم به هذا الدين إذا لم يستطيعوا القضاء عليه.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً- المصادر:

- القرآن الكريم – برواية الإمام قالون عن الإمام نافع.

1- ابن إسحاق، السير والمغازي، تحقيق سهيل نتار، ط الأولى، دار الفكر، بيروت، سنة 1978.

2- ابن الأثير الإصابة في معرفة الصحابة، تحقيق عادل احمد الرفاعي، دار أحياء التراث العربي، بيروت، سنة، 1417هـ، 1996.

3- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، ط الأولى، دار الكتاب العربي، بيروت، سنة 1997م.

4- أبن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة تحقيق عادل أحمد الرفاعي، الناشر دار إحياء التراث، بيروت، سنة 1417هـ، 1996م.

5- ابن حزم، الفصل في الملل والنحل، تحقيق أحمد السيد، سيد أحمد علي، ط الأولى، الناشر المكتبة التوفيقية، القاهرة.

6- ابن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق. محمد عبدالقادر عطاط، ط الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 141هـ–199م.

7- ابن شرف النووي، شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية، السعودية، رفحاء، الموقع الالكتروني www.almotageem.net.

8- ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق عبدالله عبدالمحسن التركي، ط الأولى، دار هجر للطباعة والنشر، الجيزة، سنة 1997م.

9- ابن كثير، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبدالواحد، دار المعرفة بيروت، لبنان، سنة 1395هـ.

10- ابن منظور، لسان العرب، ط الثالثة، دار صادر، بيروت، سنة 1414.

11- ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ، ط الثانية، دار شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، سنة 1955.

12- أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق مصطفى ديب البغا، ط الثالثة، دار ابن كثير، بيروت، سنة 1407هـ-1987م.

13- أبوبكر أحمد بن الحسين البيهقي، سنن البيهقي، تحقيق محمد عبدالقادر عط، ط الثانية، دار الباز مكة المكرمة، سنة 1414هـ-1994م.

14- أبوزكريا يحيى بن شرف بن مرى النووي، شرح النووي على صحيح مسلم، ط الثانية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، سنة 1392.

15- أبوعبدالله أحمد بن حنبل الشيباني، مسند أحمد، مؤسسة قرطبة، القاهرة.

16- أبوعبدالله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 1411هـ-1990م.

17- أبي زهرة، خاتم النبيين (صلى الله عليه وسلم)، دار الفكر العربي، القاهرة، سنة 1425.

18- اتيين دينييه، سليمان بن إبراهيم، محمد رسول الله، ترجمة عبدالحليم محمود محمد، محمد عبدالحليم، ط الثالثة، دار المعارف، مصر، القاهرة.

19- أحمد إبراهيم الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول (صلى الله عليه وسلم)، دار الفكر العربي.

20- أحمد بن حسن بن علي الخطيب، وسيلة الإسلام بالنبي عليه الصلاة والسلام، تحقيق سليمان العبد المعافي، ط الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، سنة 1984.

21- أحمد بن شعيب أبوعبدالرحمن النسائي، سنن النسائي، تحقيق، عبدالفتاح أبوغدة، ط الثانية، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، سنة 1406هـ-1986م.

22- أحمد بن علي، مسند أبي يعلي، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، سنة 1404هـ-1984م.

23- أحمد بن علي بن حجر أبوالفضل العسقلاني الشافعي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق أحمد بن علي بن حجر أبوالفضل العسقلاني، ط الثانية، دار المعرفة، بيروت، سنة 1379م.

24- أحمد عبدالفتاح زواوي، شمائل الرسول (صلى الله عليه وسلم)، دار القمة الإسكندرية.

25- أحمد عبدالوهاب، الإسلام في الفكر الغربي دين ودولة وحضارة، دار نوبارا،

26- الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق وتقديم وفهرسه أبو بكر عبدالرزاق، الناشر، مكتبة مصر.

27- الباقلاني، الانتصار للقرآن، تحقيق محمد عصام القضاة، ط1 الأولى، دار الفتح عمان، سنة 2001م.

28- البغوي تفسير القرآن، تحقيق عبدالرزاق المهدي، ط الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، سنة 1420هـ.

29- البيضاوي أنور التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد عبدالرحمن المرعشلي، ط1 الأولى، دار إحياء التراث العربي بيروت، سنة 1418هـ.

30- تفسير القرطبي، دراسة وتحقيق، محمد طلحة، بلال منيار، ط الأولى، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، سنة 1418هـ.

31- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط الرابعة، دار الساقي، سنة 2001.

32- الحافظ نورالدين الهيثمي، زوائد الهيثمي، تحقيق حسن أحمد صالح الباكري، ط الأولى، الناشر مركز خدمة السنة النبوية، المدينة المنورة، سنة 1413هـ-1992م.

33- الحافظ يوسف بن البر، الدورر في اختصار المغازي والسير، تحقيق شوقي ضيف، ط الثانية، سنة 1403هـ.

34- الذهبي، تاريخ الإسلام، تحقيق عمر عبدالسلام التدمري، ط الثانية، دار الكتاب العربي، بيروت، سنة 1993م.

35- الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، تحقيق مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر بيروت، سنة 1996.

36- الشيخ الخضري، نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، ط الثانية، دار الفيحاء، دمشق، سنة 1425هـ.

37- صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ط الخامسة والعشرون، دار العلم للملايين بيروت لبنان، سنة 2002.

38- طاهر عبدالقيوم عبدالعفور السندي، جمع القرآن الكريم في عهد الخلفاء الراشدين، الناشر مجمع الملك فهد للطباعة، المصحف الشريف بالمدينة المنورة.

39- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ط الثانية، دار التراث بيروت، سنة 1387هـ.

40- عابد طه ناصف، أمهات المؤمنين وتكريم نساء العالمين.

41- عبدالحليم خفاجي، كواكب حول الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقضية التعدد، ط الثانية، سنة 1993م.

42- عبدالشافي محمد عبداللطيف، السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، ط الأولى، دار السلام، القاهرة، سنة 1428هـ.

43- عبدالعال سالم مكرم القراءات القرآنية وأثرها في الدراسات النحوية، ط1، الأولى، دار عالم الكتب مصر، القاهرة، سنة 2009م.
44- عبدالله محمد النقراط، المفيد في الثقافة الإسلامية، ط الأولى، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، سنة 2010.
45- محمد بن حبان أبو حاتم التميمي، صحيح ابن حبان، تحقيق شعيب الأرنوط، ط الثانية، الناشر مؤسسة الرسالة، بيروت، سنة 1414هـ-1987م.
46- محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية، تحقيق سيد عباس الجميلي، الناشر مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، سنة 1412هـ.
47- محمد قاسم الحنبلي، أبو بكر الصديق، (ينظر موقع مكتبة المسجد النبوي الشريف).
48- محمود شاكر، موسوعة تاريخ اليهود، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، عمان.
49- النيسباوري، أسباب النزول، تحقيق عصام بن عبدالمحسن الحميدان، ط الثانية، دار الإصلاح الدمام، سنة 1992م.
50- النيسباوري، الوسط في تفسير القرآن، تحقيق وتعليق، عادل أحمد علي الموجود، علي محمد معوض، أحمد محمد جبره، عبدالغني الجمل عبدالرحمن عويس، تقديم وقرظه عبد الحي الفرماوي، ط الأولى، دار الكتب العلمية بيروت، سنة 1415هـ، 1999م، ج1.
51- الهيثمي، موارد الضمان إلى زوائد ابن حبان.
52- ول ديورانت، دروس التاريخ، تقديم وترجمة علي شلش، ط الأولى، دار سما الصباح، سنة 1993.

53- ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، ط الأولى، دار الجيل، بيروت.
54- ول ديورانت، قصة الفلسفة، ترجمة فتح الله محمد المشعشع، ط السادسة، منشورات مكتبة المعارف، بيروت، سنة 1988م.

ثانياً- المراجع:-

1- أحمد علوش، السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني، ط الأولى، الناشر مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، سنة 2004م.
2- أحمد معمور العسيري، مؤجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم عليه السلام (تاريخ ما قبل الإسلام إلى عصرنا الحاضر)، ط الأولى، سنة 1996م.
3- إسرائيل ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، مطبعة الاعتماد شارع حسن الأكبر بمصر، سنة 1927م.
4- الأعلام للزركلي"، الطبعة الخامسة عشر، دار العلم للملايين، بيروت، سنة 2002م.
5- أمين دويدار، سورة من حياة الرسول، دار المعارف، القاهرة.
6- أنور الجندي، صفحات مضيئة من تراث الإسلام، ط الثانية، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، سنة، 1983م.
7- أنور محمد زناتي، زيادة جديدة للأستشراق، ط الأولى، دار الأنجلو المصرية، الأزهرة، سنة 2006.
8- أيمن محمود مهدي، السنة النبوية في مواجهة التحديات والشبهات المعاصرة، ط الأولى، سنة 2005م.

9- بدر الدين الحلبي، المقتفي من سيرة المصطفى (صلى الله عليه وسلم) تحقيق مصطفى محمد حسن الذهبي، ط الأولى، دار الحديث القاهرة، مصر، سنة 1996م.
10-بشير رمضان التليسي، جمال هاشم الذويب، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، دار المدار الإسلامي، طرابلس، ليبيا.
11-البوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد صبحي الدين عبدالحميد، ط الأولى، دار مطبعة السعادة مصر، سنة 1371هـ.
12-البوطي، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، ط الخامسة والعشرون، دار الفكر دمشق، سنة 1426.
13-تقي الدين المقريزي، أمتاع الاسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والمتاع، تحقيق محمد عبدالحميد النسفي، دار العلمية بيروت، سنة 1999.
14-جعفر عبدالسلام، محمد عبدالرحيم محمد، المستشرقون والدراسات العربية الإسلامية، سنة 2006م.
15-جميل عبدالله محمد المصري، انتشار الإسلام والفتوحات الإسلامية زمن الراشدين، الناشر الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، سنة 1409م.
16-جورج بوش، محمد صلى الله عليه وسلم مؤسس الدين الإسلامي ومؤسس إمبراطورية المسلمين، ترجمة وعلق عليه عبدالرحمن الشيخ، ط الثالثة، دار المريخ، سنة 2005.
17-حاتم إسماعيل، محاضرات في التاريخ الإسلامي، ط الأولى، دار المحجة البيضاء، بيروت، سنة 2007م.
18-الحارث بن أسد المحاسب أبو عبدالله، فهم القرآن ومعانيه تحقيق حسين القوتلي، دار الكندي دار الفكر بيروت، ط الثانية، سنة 1398هـ.

19-حسن الباشا، دراسات في الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية، القاهرة، سنة 1991م.

20-حسن حسين، ثلاثية البرد بردة، الرسول (صلى الله عليه وسلم) ط الأولى، دار الكتب القطرية الدوحة، سنة 1400.

21-حسين حسني معدي، الرسول (صلى الله عليه وسلم) في عيون غريبة منصفة، ط الأولى، دار الكتاب العربي، دمشق، سنة 1419.

22-خواجه كمال الدين، المثل الأعلى في الأنبياء، عربة وقدم له، أمين محمود الشريف، اللورد هدلي، ط الأولى، دار الفكر المعاصر، لبنان، سنة 1989.

23-رفاعة الطهطاوي، نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز، ط الأولى، دار الدفاتر، القاهرة، سنة 1419هـ.

24-روم لاندو، الإسلام والعرب، ترجمة منير البعلبكي، ط الثانية، دار العلم للملايين، بيروت، سنة 1977.

25-سامر عامر، محمد (صلى الله عليه وسلم) في الكتب المقدسة، ط الأولى، دار مركز التنوير الإسلامي للخدمات المسرحية، القاهرة، سنة 2006.

26-سعود بن عبدالعزيز الخلف، دحض دعوة المستشرقين أن القرآن من عند النبي (ﷺ)، دار غراس للنشر والتوزيع.

27-سعيد أيوب، زوجات النبي، ط الأولى، دار الهادي غبيري بيروت لبنان، سنة 1997م.

28-شفيق جاسر أحمد محمود، الفتح العمري للقدس نموذج للدعوة بالعمل والقدرة، سنة 1404هـ.

29-شوقي أبوخليل، أضواء على مواقف المستشرقين والمبشرين، ط الثانية، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، سنة 1428هـ، 1999م.

30-عباس محمود العقاد، عبقرية محمد، دار النهضة المصرية، القاهرة، سنة 1999.

31-عبدالمتعال محمد الجبري، السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، ط الأولى، دار مكتبة وهبة القاهرة، سنة 1988.

32-عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، سنة 1989م.

33-عزيز السيد جاسم، محمد الحقيقة العظمى، ط الأولى، دار الأندلس، لبنان، سنة 1987.

34-علاء الدين آل رشد، خلود إسماعيل مصطفى، في ظلال السيرة النبوية، ط الأولى، دار الفكر المعاصر، دمشق، سنة 2001م.

35-علي بن سليمان العبيد جمع القرآن حفظاً وكتابة، الناشر مجمع الملك فهد للطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة.

36-علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ط التاسعة، دار المعارف، القاهرة، سنة 1388هـ، 1968م.

37-علي عبدالواحد وافي، الأسفار المقدسة في الديانات السابقة للإسلام، ط الأولى، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، سنة 1996.

38-علي محمد محمد الصلابي، السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، ط السابعة، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، سنة 2008م.

39-عماد الدين خليل، قالوا عن القرآن، www.Aal.islam.com.

40-محفوظ العباسي، الغرب نحو الدرب بأقلام مفكريه، ط الأولى، دار معمل ومطبعة الزهراء الحديثة المحدودة، سنة 1987.

41-محمد السيد الوكيل، السيرة النبوية دراسة وتحليل، ط الأولى، الناشر الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، سنة 1400هـ.

42-محمد السيد الوكيل، موقعة اليرموك، دراسة وتحليل، الناشر الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، سنة 1401هـ.

43-محمد السيد راضي جليل، عناية المسلمين بإبراز وجوه الأعجاز في القرآن الكريم، مصدر الكتاب موقع الإسلام،www.Aal.islam.com.

44-محمد بن أحمد بن مصطفى، خاتم النبيين (صلى الله عليه وسلم)، دار الفكر العربي، القاهرة، سنة 1452.

45-محمد حسن هيكل، حياة محمد، ط الرابعة، دار المعارف، القاهرة، سنة 2001م.

46-محمد رواس قلعه جي، قراءة سياسية للسيرة النبوية، ط الأولى، دار النفائس سنة 1996م.

47-محمد سعيد ياقوت، نبي الرحمة الرسالة والإنسان، تقديم فريد عبدالخالق، ط الأولى، دار الزهراء للإعلام العربي سنة 2007م.

48-محمد شلبي، حياة أبي بكر، ط الثالثة، دار الجيل بيروت، سنة 1309هـ، 1989م.

49- محمد ظفر الله خان، الإسلام والإنسان المعاصر، ترجمة وقدم له محمد جلال شرف، دار النهضة العربية، بيروت، سنة 1981.

50-محمد عابد الجابري، مدخل إلى القرآن الكريم في التعريف بالقرآن، ط الثالثة، الناشر مركز دراسات الوحدة العربية، سنة 2010.

51-محمد عبدالوهاب، مختصر سيرة الرسول، دار وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة، سنة 1418هـ.

52-محمد عزت إسماعيل الطهطاوي، التبشير والأستشراق أحقاد وحملات على النبي (صلى الله عليه وسلم) وبلا الإسلام، ط الأولى، دار الزهرة للإعلام الغزي، 1991.

53-محمد علي سويد، موسوعة هل تعلم، الطبعة الأولى، الناشر شركة رشار برس، بيروت لبنان، 1999.

54-محمد فريد وجدي، السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، جمعها وراجعها وقدم لها، محمد رجب البيومي، الناشر مكتبة الأسرة.

55-محمد محمود حجازي، التفسير الواضح، الطبعة السادسة، الناشر مطبعة الاستقلال الكبرى، 1389هـ-1969م.

56-محمد محمود عبدالعليم، محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، ط الثانية، دار شركة الشمرلي، القاهرة، سنة 2004م.

57-محمد نصر مهنا، الفتوحات الإسلامية من عصر النبؤة إلى الغزو الصليبي، دار الوفا لدنيا الطباعة والنشر الإسكندرية، سنة 2011م.

58-محمود شيت خطاب، الرسول القائد، ط السادسة، دار الفكر بيروت، سنة 1422هـ.

59-محمود محمد سيد علي، العقيدة اليهودية بين الحقيقة والأسطورة، مصدر الكتاب، "الموسوعة الالكترونية".

60-مراد هوفمان، الإسلام كبديل، ترجمة غريب محمد غريب، ط الأولى، الناشر مؤسسة بافاريا، سنة 1993.

61-مصطفى بن حسن السباعي، السيرة النبوية دروس وعبر، ط الثالثة، الناشر المكتب الإسلامي، سنة 1985م.

62-مصطفى مراد، الخلفاء الراشدون، ط، الأولى، دار الفجر للتراث القاهرة، سنة، 2006م.

63-الموسوعة العربية العالمية، أول عمل من نوعه وحجمه ومنهجه في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية، شارك في إنجازه أكثر من ألف عالم، ومؤلف،

ومترجم، ومحرر، ومراجع علمي ولغوي، ومخرج فني، ومؤسسة من جميع البلاد العربية.

64-الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، نقلاً عن موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي ينظر (المكتبة الالكترونية).

65-مونتجمري وات، محمد (صلى الله عليه وسلم) في مكة، تحقيق أحمد شلبي، ترجمة عبدالرحمن الشيخ، الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة 1415هـ.

66-النبهاني، وسائل الوصول إلى شمائل الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ط الثانية، دار المنهاج جدة، سنة 1425هـ.

67-نبيل فازيو، محمد (صلى الله عليه وسلم) الرسول المتخيل قراءة نقدية في صورة النبي في الاستشراق، (مونتجمروات ومكسيم رودنسن)، ط الأولى، دار منتدى المعارف، سنة 2011.

68-نذير حمدان، الرسول (صلى الله عليه وسلم) في كتابات المستشرقين، ط الثانية، دار المنارة جدة، سنة 1986.

69-هاشم عبدالراضي محمد عيسى، جمال فوزي محمد، صفحات من السيرة النبوية، دار الهاني للطباعة والنشر، سنة 2009م.

ثالثاً- رسائل الماجستير والدكتوراه:-

1- القرن الرابع الهجري، رسالة لنيل دكتوراه في كلية دار العلوم.

2- رسائل الرسول (ﷺ) والخلفاء الراشدون (دراسة دلالية) محب محمود رزق، رسالة دكتوراه مقدمة لجامعة المنصورة، كلية الآداب، مصر.

3- عبدالمحسن بن متعب المطيري، الطعن في القرآن الكريم والرد على الطاعنين في القرن الرابع الهجري، رسالة لنيل درجة الدكتوراه في كلية دار العلوم، المصدر، موقع مركز الكتب الالكترونية.

رابعاً- المجلات والدوريات:-

1- الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والارشاد، مجلة البحوث الإسلامية، مجلة دورية تصدر عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد.

خامساً- المواقع الالكترونية:-

1- المكتبة الالكترونية.

2- ويكيبيديا الحرة.

3- الإسلام www.Aal.islam.com.

4- مكتبة المسجد النبوي الشريف.

فهرس المحتويات

الموضـــــــــــــوع	رقم الصفحة
مقدمة	د
الفصل الأول: أثر شخصية النبي محمد (ﷺ) في نشر الدعوة.	
المبحث الأول:	3
– مولـده (ﷺ).	3
– سيرتـه (ﷺ).	6
– كفالته.	8
– رحلتا الرسول (ﷺ) إلى الشام.	10
– الرحلة الأولى.	10
– الرحلة الثانية وزواجه من خديجة (ﷺ).	11
– صفات رسول الله (ﷺ).	14
– الحاجة إلى بعثته (صلى الله عليه وسلم).	20
– مفهوم المتنبئين عند ول "ديورانت".	27
– مفهوم الحنفاء عند ول "ديورانت".	29
المبحث الثاني: دعوته (صلى الله عليه وسلم)	31
– بعثته.	31
– بدء الوحي.	31
– سرِّية الدعوة.	38
– الجهر بالدعوة.	40
– إسلام عمر بن الخطاب.	49

الموضـــــــــــــــوع	رقم الصفحة
- المقاطعة.	50
- الهجرة إلى الطائف.	52
- الإسراء والمعراج.	56
- بيعة العقبة الأولى.	58
- بيعة العقبة الثانية.	59
- الهجرة النبوية.	63
الفصل الثاني: التأثير والتغيير الدعوى الذي أحدثه النبي (ﷺ) بعد الهجرة.	
المبحث الأول: بداية عهد محمد (ﷺ) في المدينة.	70
- المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.	72
- مفهوم الإسلام عند "ول ديورانت".	76
- الرسول الزعيم الديني والحاكم السياسي.	77
- كتاب الرسول (ﷺ) في موادعة اليهود	81
المبحث الثاني: السرايا والغزوات.	88
- سرية عبدالله بن جحش.	88
- غزوة بدر الكبرى.	89
- غزوة يهود بني قينقاع.	98
- غزوة أحد.	100
- غزوة يهود بني النضير.	102
- معركة الخندق.	105

الموضـــــــــــــوع	رقم الصفحة
- غزوة بني قريظة.	107
- صلح الحديبية.	107
- غزوة يهود خيبر.	109
- عُمرة القضاء.	111
- فتح مكة.	113
- أنتصار النبي (ﷺ).	116
الفصل الثالث: أثر بشرية النبي (ﷺ) في القرآن:	
المبحث الأول: مصدرية القرآن.	145
- أسلوب القرآن	156
المبحث الثاني: موثوقية القرآن.	161
- موثوقية الجمع.	164
- موثوقية مصدره.	169
المبحث الثالث: جمع القرآن.	175
- مرحلة التدوين.	177
- الجمع في عهد الصحابة.	182
- الجمع في عهد عثمان.	186
- دستور عثمان في كتابة المصحف	189
الفصل الرابع: الدولة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين.	
المبحث الأول: الصراع السياسي والاجتماعي.	196
- خلافة أبي بكر.	196

الموضـــــــــــــــوع	رقم الصفحة
- مناقب أبي بكر.	198
- قتال أبي بكر للمرتدين.	201
- أسباب نجاح الفتوحات الإسلامية عند "ول ديورانت".	204
- واقعة أليس.	210
- معركة اليرموك.	214
المبحث الثاني: خلافة عمر بن الخطاب.	217
- مناقب عمر.	217
- الفتوحات العمرية عند "ول ديورانت".	222
- فتح بيت المقدس.	222
المبحث الثالث: بداية الصراع وحدوث الفتنة عند "ول ديورانت".	229
- خلافة عثمان.	229
- مناقب عثمان.	229
- بداية الصراع.	231
- خلافة علي.	233
- موقعة الجمل.	237
- معركة صفيّن.	238
- ظهور الخوارج.	240
الخاتمة.	244
المصادر والمراجع.	246